ABU ABDO ALBAGL

الحضارات الأولى

الأصول..والأساطير

مدونة ابو عبدو

دبي الثقافية
أغسطس
2009

غلين دانيال

ترجمة

سعيد الغانمي

مجاناً مع دبي الثقافية

5073

كتـاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية

ويـوزع مجانـاً مع المجلـة

الإصدار 27

الحضارات الأولى

الأصول.. والأساطير

غلين دانيال

ترجمة / سعيد الغانمي

■ الطبعة الأولى، أغسطس ٢٠٠٩

■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مـدير التحرير
نـاصـر عـراق

المـدير الفني
أيمـن رمسيس

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحريـر والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

مقدمة الدار

بقلم: سيف المري

العلم والفلسفة ليسا كما يظن البعض وجهين لعملة واحدة لأن العلم في حقيقته قياسي وموضوعي أما الفلسفة فإنها ذاتية تنسب لأصحابها كما ينسب الناس لآبائهم فنقول فلسفة سقراط وأفلاطون وهيجل ولا نستطيع أن نقول علم فلان وفلان وفلان والتاريخ في حقيقته علم يتدثر بدثار الفلسفة ويقترب منها حين تفلسف أحداث التاريخ ولكن للبحث التاريخي في حقيقة الأمر فلسفته الخاصة به والتي بموجبها يحرك التاريخ مفاصله ثانية ويعود إلى الحياة جسداً من غير روح بعد أن عاش الأحداث روحاً مجردةً عن الجسد.

ومع أن العرب يعدون من أ قدم من دون أحداث التاريخ ونسب حوادثه وفسر معالمه وبرغم ما تزخر به المنطقة العربية من آثار حضارية هامة إلا أن الدراسات التاريخية العربية لم تتجاوز تاريخ الأفراد وتلك أزمة هذا التاريخ وفيها مقتله الحقيقي ومع أن أقدم الكتابات الإنسانية قد نشأت في أحضان أمتنا العظيمة إلا أن الدراسات العلمية العربية لم تتجاوز التدوين دون الغوص في أعماق تلك

الحضارات العظيمة.

ومن هنا تبدو الحاجة إلى الاستعانة بما قام به الغربيون من دراسات تناولت حضاراتنا القديمة والاستفادة من المنهج البحثي الذي اتبعوه لتعزيز الأسلوب السردي عند العرب. وقد حرص الباحث عند تأليف كتابه على أن يركز على الحضارات وليس على المدن المزدهرة وانتقى حضارات إنسانية لا يوجد بينها تواصل ثقافي ليدلل على أن للحضارة قواعد إنسانية محددة تنشأ بموجبها أية حضارة إنسانية سواءً أكانت الحضارات العربية في بلاد النهرين ومصر أم المايا والإنكا والبيرو في أمريكا أم حضارة السند في بلاد الهند أم حضارة صين شانغ في بلاد الصين ولعل أهم مقومات الحضارة وجود الكتابة التي لا يمكن لأي حضارة أن تنشأ بمعزل عنها.

وإيماناً من دار «الصدى» بأهمية البحث في أصول الحضارات يسعدنا من خلال مجلة «دبي الثقافية» أن نقدم هذا العمل الجليل للبروفيسور غلين دانيال والمسمى «الحضارات الأولى الأصول والأساطير» وقد نقله للعربية الأستاذ سعيد الغانمي بأسلوب مشوق ورائع ونرجو أن نكون من خلال نشر هذا الكتاب قد أضفنا إلى المكتبة العربية إصداراً نعده على رغم محدودية صفحاته عملاً موسوعياً من حيث القيمة العلمية للبحث.. والله من وراء القصد..

ألق الحضارة وعبق التاريخ

بقلم: ناصر عراق

مَنْ لا يعرف ماضيه، يجهل حاضره ولا يدرك مستقبله، ومن لا يحب التاريخ يحرم نفسه من لذة ليس لها مثيل، فالتاريخ علم ينبغي أن يطلع عليه الناس، ليستزيدوا من خبرات الذين سبقوهم، فيمسكوا بما هو ناصع وجميل في أنفسهم وذواتهم، ويعرضوا عن كل ما هو معتم وقبيح!

لذا، كان حرصنا في «دبي الثقافية» على أن نقدم هذا الكتاب المدهش والآسر الذي يغوص بنا جميعاً في نشأة الحضارة الإنسانية وكيفية تكوينها من خلال رصد ما خلّفت شعوب صنعت مجداً تليداً تاركة لنا آثارها الباهرة لتشهد على هذا المجد.

ولأن الآثار تعد المنبع الأول لكشف خبايا وأسرار الحضارة القديمة، فإن أهم ما يميز هذا الكتاب أن مؤلفه «غلين دانيال» من أشهر علماء الآثار البريطانيين الذي له

باع طويل في مجاله، لذا جاء الكتاب شاملاً جذاباً على الرغم من بساطته غير المخلّة وهو أمر يحتاج إليه كثيراً القارئ العام، أو القارئ غير المتخصص.

أما الأستاد سعيد الغانمي، فيعد من أهم المترجمين العراقيين والعرب، ولعلك ستلحظ ذلك فور قراءة السطور الأولى، لأنه صاحب أسلوب أنيق يتسم بالرشاقة والحلاوة، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب إضافة بالغة الأهمية للمكتبة العربية، ستفيد القارئ العربي وتمتعه في آن، وهو ما نحرص عليه دوماً في هذه السلسلة.

الحضارات الأولى

أصولها في ضوء علم الآثار

غلين دانيال

ترجمة: سعيد الغانمي

العنوان الأصلي للكتاب:

Glyn Daniel, The First Civilizations; The Archaeology of their Origin.

© Dubai al-Thaqafiyya

ينشر الكتاب باتفاق خاص مع الناشر

Curtis Brown Group Limited

مقدمة الترجمة العربية

يدعي النظام العقلي أنه أحدث «ثورة» على النظام الأسطوري، وولّد النظام العلمي. وهذا الادعاء غير صحيح، ولكنه يضعنا بإزاء ثلاثة أنظمة حول علاقة اللغة بالفكر، هي: النظام الأسطوري، والنظام العقلي، والنظام العلمي. في النظام الأسطوري، الذي قد يُسمى أحياناً بالنظام الاستعاري أو الشعري، يتطابق الدال والمدلول، والاسم والمسمى، والكلمة والشيء. وفي النظام العقلي، أو الكنائي أو الفلسفي، تخضع الكلمة لمنظومة الفكر أو المنطق أو الوعي أو النفس، ولكي يوجد الشيء، ينبغي أولاً أن يوجد في إحدى هذه المناطق، ليتحقق بعد ذلك في اللغة. وفي العلم، أو في النظام الوصفي، ينبغي أن يوجد الشيء في الواقع الخارجي أولاً، ويُحَسَّ به تجريبياً أو مادياً أو مختبرياً، لكي يُصرَّح له بحق الوجود في اللغة.

لكل نظام من هذه النظم إجراءاته ومناهجه وعلومه المستقلة. أطلق النظام الاستعاري الأساطير والشعر والأمثال والديانات والعبادات، وكوّن تراثاً هائلاً من الأدب يمتد من «ملحمة جلجامش» حتى آخر جائزة نوبل في الآداب. وأطلق النظام الكنائي علومه من نظرية «النفس» عند سقراط، ونظرية «المثل» عند أفلاطون، حتى «المستقبل ما بعد الإنساني» عند فوكوياما. وبرغم أن النظام الوصفي لم ينطلق إلا في القرن

السابع عشر أو قبله بقليل، فإنه صار يقود حياتنا المعاصرة ولا سيما في هذا العصر «الأنترنيتي».

ينتمي التاريخ بمعناه التأملي إلى النظام الثقافي الثاني، إلى النظام العقلي والكنائي. فهو تأمل فلسفي في آليات اشتغال العقل التي يفكر بها في ذاته، على حد تعبير هيغل، فيلسوف التاريخ الأكبر. مع بداية القرن العشرين، صار «التاريخ» يطالب بالانتقال من مرحلة دراسة «الخبر» إلى مرحلة دراسة «الأثر»، أو بعبارة أخرى، صار يريد أن يكتفي بتقرير حدوث الوقائع عملياً وحيادياً بمعزل عن النظام العقلي والمنطقي. وهكذا تولدت آليات الدراسة الداخلية للنصوص. لكن الإنجاز الأكبر الذي تحقق هو «الأركيولوجيا» أو «علم الآثار».

في البداية، قوبل «علم الآثار» باستخفاف المؤرخين العقلانيين، فوُصِمَ بأنه «علم القمامة». أيُّ علم هذا الذي ينكب على دراسة مزابل الشعوب القديمة وفضلات المجتمعات الموصومة بالبدائية؟ ماذا يبقى من «كبرياء» التاريخ، إذا انصرف إلى التأمل في الجرار والأقداح والفؤوس والألعاب والآجر من مخلفات شعوب بادت واندثرت؟ كان هيغل يصف نابليون بأنه «وعي العالم على جواد»، فهو اختصار التاريخ في الرجال الذين يصنعونه، فأية «كرامة» تبقى للتاريخ إذا انحط إلى علم لقمامة الشعوب البدائية؟

من الناحية المعرفية المجردة، لا أفضلية لنظام معرفي من النظم الثلاثة على آخر، ولا لعلم على غيره. كل نظام معرفي له آلياته الداخلية التي تسوّغ وجوده. والأنظمة المعرفية لا تتفاضل، بل تختلف وحسب. لا فضل للعقل أو العلم على الأسطورة، ولا تفوق، إلا من منظور المركزية المعرفية المغلقة على ذاتها. والعلم ليس أرقى أو أحسن أو أدق من الشعر. بل هما ميدانان يختلفان وحسب، لكل منهما آلياته ومسوغاته وإجراءاته. نعم، قد يحدث أن يتضخم الشعر أو العقل أو العلم في مجتمع ما في حقبة ما، وحينئذ يحتاج هذا المجتمع الذي يحدث فيه هذا التضخم إلى نوع من الإصلاح بآليات أخرى، تخفيفاً من عبء هذه المركزية. لكن هذا لا يعني أفضلية نظام على آخر، بل يعني فقط حاجة المجتمع إلى التوقي من أمراض تضخم النظام المعرفي. وبالتالي، فإن لكل علم «كرامته»، لا بمعنى التراتب، بل بمعنى «حصانة الآليات الداخلية» المسوغة لوجوده. من دون خجل، كانت فلسفات التاريخ الكبرى تصف المجتمعات الشرقية أو الأفريقية أو الأمريكية بأنها «مجتمعات بلا تاريخ». والحال أن علم الآثار يكشف أن هذه المجتمعات قد قطعت الأشواط نفسها التي قطعتها المجتمعات التاريخية في البناء والتكون.

يعنى الكتاب الذي بين يدي القارئ بأصول الحضارة، أي بالحضارات التي تشكلت في سبع مناطق في العالم، وكانت

حضارات «أصيلة»، بعضها، مثل سومر ومصر، سابقة على اليونان، وبعضها مستقل عنها تماماً، مثل حضارة وادي السند وصين شانغ والحضارات الأمريكية الثلاث: الأزتيك والمايا وبيرو.

وفيما يتعلق بالحضارات الأربع الأولى في سومر ومصر والسند والصين، يلاحظ المؤلف أنها نشأت في وديان أنهار، فالحضارة السومرية ظهرت في الجزء الجنوبي من العراق بين دجلة والفرات، وظهرت الحضارة المصرية في حوض وادي النيل، وظهرت حضارتا موهينجو – دارو وهرابا على ضفاف نهر السند، في حين ظهرت صين شانغ على ضفاف النهر الأصفر. فهل من علاقة ضرورية بين الأنهار والحضارة؟ يجيبنا المؤلف بأن الحضارة ليست وليدة الزراعة على الإطلاق. فقد ازدهرت الزراعة الأولى قبل ظهور الحضارة السومرية، التي هي أقدم الحضارات في رأيه، في أريحا والأناضول وشمال إيران بآلاف السنين. وإذا كانت الحضارة تدين بشيء فليس للزراعة، بل للبناء والعمران. وبالطبع ليس المقصود بالبناء هنا بناء البيوت والمنازل، بل بناء المدن. وفي رأي المؤلف أن من مقومات الحضارة وجود عنصرين من ثلاثة عناصر: المدن والكتابة وساحات الاحتفالات العامة. لا بد للحضارة من نظام كتابي تستعمله للتدوين، ومدينة لا يقل سكانها عن خمسة آلاف نسمة، وساحات احتفالات يتجمع فيها السكان في

المناسبات العبادية أو الاجتماعية. لكن الأهم في رأيه هو ما يسميه «اتحاد المدن» أو تفاعلها الذي من شأنه أن يفضي إلى تكوين «دويلات المدن». و«اتحاد المدن» فكرة شديدة الشبه بفكرة العصبية عند ابن خلدون. وكما تدفع العصبية القبائل البدوية في المجتمع البدوي إلى الاتحاد لتكوين عصبة أو سلالة، كذلك يدفع اتحاد المدن المجتمعات الحضرية الأولى إلى الاتحاد في عصبة مدنية لتشكيل «دولة المدينة».

خلافاً لهذه الحضارات الأربع، نشأت الحضارات الأمريكية الثلاث في وقت متأخر عنها، ولكن بمعزل عن أي اتصال بها، مع أن المؤلف يشير إلى العثور على دمى وألعاب ذات عجلات، ويلاحظ أن هذه الحضارات لم تستعمل العجلات أبداً لا في العربات ولا المراكب ولا في عجلة الخزاف. ويرجح أن اتصالات حدثت لها مع اليابان أو الصين في فترة مجهولة.

الحضارة، إذاً، هي ابنة المدينة والكتابة. وهذا الكتاب هو رحلة في الأطوار التكوينية الأولى لأقدم سبع حضارات، لم يعثر عليها علم التاريخ بأهراماته الفلسفية التأملية، بل عثر عليها علم الآثار الذي وصم بأنه «علم القمامة»، مستخدماً الفأس والمجرفة.

يقدم هذا الكتاب خلاصة نقدية وجيزة لتكون الحضارات السبع المذكورة من وجهة نظر علم الآثار، وصلاتها المحتملة

ببعضها، والاتصالات بينها، إذا وجدت. وليس من شك في أن موضوع نشأة الحضارات موضوع واسع مترامي الأطراف، وهناك عشرات الكتب التي تغطي مساحات واسعة لتكوين أي من هذه الحضارات. غير أن فضيلة هذا الكتاب أنه يقدم إلمامة سريعة وعميقة في الوقت نفسه يستطيع أن يحيط بها القارئ غير المختص لما يستكشفه علم الآثار في مواقع الحضارات المذكورة على نحو مبسط، دون أن يقع في تبسيط مخل، ويتمكن من ربط كل شيء، في النهاية، في نظريته عن اتحاد المدن.

والبساطة من دون تبسيط هي التي جعلت هذا الكتاب فريداً في بابه، وهي التي جعلته يصدر في طبعتين حتى الآن، إحداهما عن منشورات بنغوين، والثانية عن جمعية نادي الكتاب بالتعاون مع دار تيمس وهدسون المعروفة بنشر الأعمال التاريخية. وبرغم أن الكتاب صدر في الربع الثالث من القرن العشرين، وسيلمس القارئ تقاليد تلك الفترة في ثنايا سطوره، فإنه يظل مرجعاً أساسياً للحضارات الأولى التي كشفت عنها مجرفة الآثاريين ودورها في تكوين الحضارات اللاحقة.

عندما طلبت مني هيئة تحرير «دبي الثقافية» المساهمة في مشروع كتابها الجميل بعمل مترجم، اقترحت عليها أكثر من عشرة عناوين. ولم يتأخر رد المجلة في اختيار

كتاب «الحضارات الأولى» لكي يكون باكورة انفتاحها على الترجمة. وإني لأشكر للأصدقاء في «دبي الثقافية» إعطائي هذه الفرصة بالاحتكاك مع تجربة ثقافات من النادر أن يفكر أحد باحتمال وجود رابط بينها، وأتمنى أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا العمل.

سعيد الغانمي

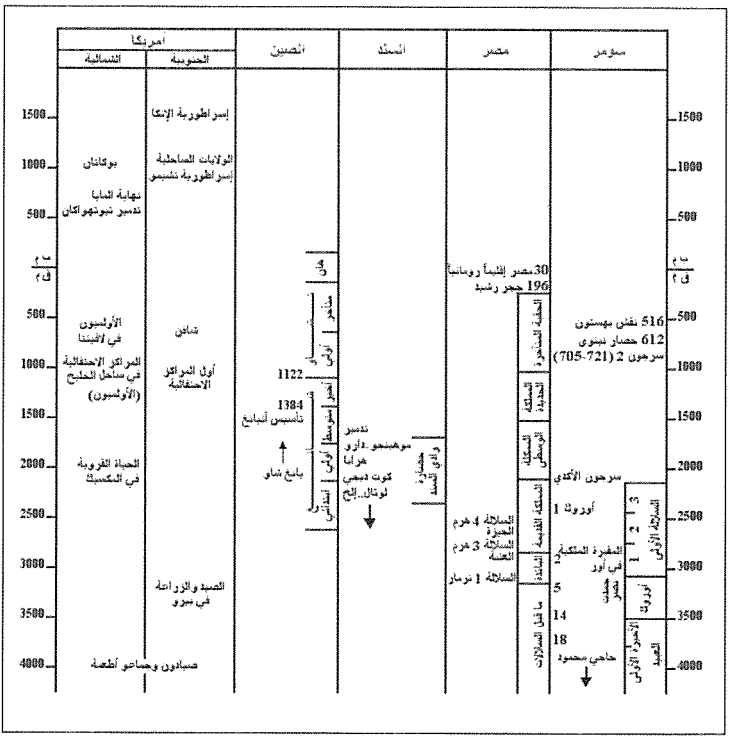

الفصل الأول

الوحشية والبربرية والحضارة

في مقالة متأخرة في مجلة «المتفرج» (Spectator)، أشار البروفيسور استيوارت بيغوت إلى علم الآثار بوصفه «علم القمامة»[١]. وكان يُلمِّح إلى أن علم الآثار هو دراسة أية مادة نُبِذت وتُرِكت، دراسة الأنصاب الصغرى التي خلفها الزمان «الذي يُخفي على الآثار، ويتفنن في تفتيت كل شيء إلى تراب، ولكنه استبقاها»، دراسة عظام الموتى «الذين رقدوا تحت ضجيج طبول الغزاة ووطأتهم»، إذا استشهدنا بالسير توماس براون. وهل تتذكرون أيضاً تعريف فرنسيس بيكون حول ماذا يعني علم الآثار؟ لقد قال: «الآثار هي التاريخ الذي انطمس أو بعض بقايا التاريخ التي أفلتت عرضاً من حطام الزمن»[٢].

ببقايا التاريخ هذه، بالقمامة التي أفلتت من حطام الزمن، يهتم هذا الكتاب. حين رأيت مقالة الأستاذ بيغوت تذكرت فوراً حكم الإدانة الجميل على علم الآثار الذي أطلقه ذات مرة أستاذ الأنثروبولوجيا الأمريكي المدهش، المرحوم أرنست ألفرد هوتون. قال: «يعني علم الآثار الاهتمام بممتلكات الماضي المهجورة، ويصِمُ تلاميذه بأنهم لا يعبأون بضرورات الحاضر – بل ينكبّ مدللو العلم الخَرِفون على أكوام قمامة الآثار»[٣]. وأنا واحد من هؤلاء المدللين الخرفين، وأدعوك إلى أن تنكب

معي على أكوام قمامة الآثار: فدعنا نحفر في علم الآثار معاً عسى أن نجد الضوء الذي يسلطه على ما أعُدُّه واحدة من أهم المشكلات التاريخية – مشكلة بدايات حضارات الإنسان القديمة. إذاً، فموضوعتنا هي ما يقوله لنا علم الآثار، أي دراسة مخلَّفات ماضي الإنسان المادية، حول أصل المجتمعات المتحضرة في الأزمنة القديمة، أي حول أصل المجتمعات المتحضرة المبكرة والأولى، وبالتالي حول أصول الحضارة نفسها[٤].

وهذه موضوعة واسعة، وبالطبع لن أمسَّ سوى بعض أهم المظاهر وأبرزها في هذه المشكلة. لكني لن أنسلَّ من هذه المهمّة، لأنني أعتقد أنه لا بدَّ من مناقشة هذه المشكلة الكبيرة من وقت لآخر بطريقة عامة، وأن على الآثاريين المحترفين من وقت لآخر أن يتوقفوا عن النظر إلى شجرتهم الخاصة – وهي في حالتي الأنصاب الحجرية في أوروبا الغربية – وأن ينظروا إلى الغابة الشاملة[٥]. وقد نُشِر أول كتاب درس أصول الحضارة من خلال أدلة علم الآثار قبل ما يقرب من قرن. وكان بعنوان «أصول الحضارة». وقد كتبه مصرفي، سياسي، باحث، عضو في البرلمان، ولد باسم جون لوبوك، ثم صار السير جون لوبوك، وبعدها رُقِّيَ إلى مرتبة النبلاء بوصفه «لورد أفيبري» – وقد علّق أحدهم ساخراً عند ترقيته: «كم علينا أن ننتظر حتى يصبح الفيكونت ستونهنج؟». ونحن ندين بكثير من

الأشياء إلى لوبوك – بداية مفتشية أنصابنا القديمة، وعطل المصارف، التي بقيت تسمى لمدة من الزمن عطل لوبوك. وهو الذي أدخل إلى معجم اللغة الإنجليزية السائدة كلمتي ما قبل التاريخ وما قبل التاريخي، ونحت كلمات مثل العصر الحجري القديم (Palaeolithic) والعصر الحجري الجديد (Neolithic). وقد فعل ذلك في كتابه «عصور ما قبل التاريخ»، الذي نشر قبل أكثر من قرن بقليل، عام ١٨٦٥. وبالمصادفة كانت ما زالت تتوفر نسخ للبيع من هذا الكتاب، حين جئت إلى كامبردج كطالب دراسة أولية قبل ثلاثين سنة[٦].

صدر كتاب لوبوك «أصول الحضارة» بعد كتابه «عصور ما قبل التاريخ» بخمس سنوات. وكان عملاً لآثاري وعالم طبيعي يدرس مشكلة كانت مصادرها مادية في جزء منها، أي أثرية، وأدبية في جزء آخر، أي تاريخية بالمعنى الحصري للتاريخ المكتوب. ونحن ندرك الآن أن المصادر المكتوبة لا يمكنها أن تنقل لنا شيئاً تقريباً عن أصول المجتمعات المتحضرة الأولى: فالمشكلة هي مشكلة أثرية. وقد أخفق كثيرون – وكثيرون جداً– ممن كتبوا عن أصول الحضارة منذ عصر لوبوك في تقدير هذه الواقعة: وهي أن الأدب يزخر بالتعميمات الجغرافية والتاريخية والفلسفية. وهنا نحن لا ننتفع كثيراً من هذه التعميمات: لأن المشكلة أثرية، وينحصر اهتمامنا بالوقائع الصلبة التي يقررها علم الآثار.

يتوفر مثال بارز وحديث على المؤرخ المميز الذي هاجم مشكلة أصول الحضارة دون تقدير لدور علم الآثار في الأستاذ أرنولد توينبي. فكتابه الذي يُقَرُّ له بالفخامة «دراسة التاريخ» يهمل إهمالاً جلياً أدلة أنصاب التاريخ، ولا سيما الأنصاب الصغرى التي «استبقاها الزمن»، أي صنائع أناس ما قبل الكتابة التي يُكتَبُ ما قبل التاريخ منها. وتوينبي هو مثال كلاسيكي على الحقيقة التي ترى أن المؤرخ لا يستطيع أن يعتاش على المصادر المكتوبة وحدها[٧]. وليست هذه نظرة شخصية، أو عصبية خاصة، بل أعتقد أنها نظرة أكثر الناس الذين يدرسون ماضي الإنسان القديم جداً، سواء أكانت مصادرهم مادية أو أدبية. ودعوني أقتبس نظرات د. أغناثيو برنال، من مدرسة الأنثروبولوجيا الوطنية في المكسيك، ومدير المتحف الوطني للأنثروبولوجيا. تحدث عام ١٩٦٣ في نهاية ندوة عن إنسان ما قبل التاريخ في أمريكا قائلاً: «حاولت ذات مرة استكشاف جدوى تطبيق أفكار توينبي عن ميلاد الحضارات ونموها وموتها على الحقائق المعروفة عن علم الآثار في أمريكا الوسطى. وقد اتضح تقريباً أن جميع بياناته الواقعية هي غير دقيقة ومنقوصة وفاتها الزمن على نحو سيئ. حاولت أن أبين برغم ذلك أن أفكاره يمكن أن تُستخدم استخداماً مفيداً على تطور أمريكا الوسطى، وأنها تشكل في الأقل نمطاً من أنماط التأويل، يقدم تفسيراً معقولاً لسبب ظهور الحضارة وكذلك «كيفيتها»...لكن جهودي استُقبِلت بابتسامة

حزينة، بدا وكأنها تعني أننا نعيش في عالم حر ويحق لكل إنسان فيه أن يتمتع بشيء من الحماقة»[٨].

حتى عصر لوبوك، كان تاريخ الإنسان يُقسَّم تقليدياً إلى حديث، ووسيط، وقديم. وحدد لوبوك القسم الرابع منه، أعني ما قبل التاريخ – وهي تسمية غير موفقة نوعاً ما – تعني فعلياً تاريخ ما قبل الكتابة. والكتابة إنجاز متأخر في التطور الثقافي للإنسان: إذ تأتينا أقدم أشكال الكتابة الباقية من مصر وبلاد الرافدين ولا يزيد تاريخها عما يقرب من ٣٠٠٠ ق م[٩]. فالكتابة، إذاً، مهارة عمرها خمسة آلاف سنة. وكان وجود الإنسان الأول، ربما في أفريقيا، قبل ما يقرب مليوناً إلى مليون ونصف من السنين. وبالتأكيد كان «الإنسان العاقل» (homo sapiens) موجوداً قبل ثلاثين إلى أربعين ألف سنة، أو ربما قبلها بقليل. وبتقدير محافظ جداً، يشكل ماضي الإنسان العاقل في طور ما قبل الكتابة وما قبل التاريخ عشرة أضعاف التاريخ المكتوب طولاً، أما ماضي الإنسان كنوع في طور ما قبل التاريخ فأطول بكثير جداً. وما يهمنا هنا هو المراحل النهائية للماضي الطويل قبل الكتابة، وشهادة المجرفة والفأس، وليست شهادة الكلمة المكتوبة، هي التي تقترح علينا النظرات التي يجب أن نتبناها الآن حول أصول المجتمعات المتحضرة. فمع الزمن الذي وصلت فيه الكتابة، وصار التاريخ المدون تحت متناولنا، كانت المجتمعات المتحضرة قد ولدت أصلاً[١٠].

وهنا تظهر مشكلة، مشكلة تتعلق بالمنهج والتناول. فالمؤرخ الدقيق يتشكك بالمؤرخ المنفلت، إذا جاز لي أن أسمي هكذا الآثاري الذي يتصدى لعلم «قمامة» ما قبل التاريخ، أي الباحث الذي يهتم بالقدور والأوعية والأطلال، ويبتكر الأسماء للشعب الذي خلق الثقافات غير المتعلمة. ومن جهته يشكك الآثاري بالمناهج الفضفاضة التي يقوم بها المؤرخ وفيلسوف التاريخ وغالباً ما يعود إلى تصنيفه وتنميطه ويتخذ له ملجأ في دقائق الثقافة المادية القديمة. ولهذا السبب فإن المشكلة التي ندرسها هنا مغرية جداً ومحفوفة جداً بالمخاطر والمكاره، لأنها تتطلب معرفة أثرية ونفَسَ تفكيرٍ تاريخي. وقد لا نحقق وحدة هذين العلمين، ولكن دعونا نجرب.

صورتنا عن ماضي الإنسان البعيد مستمدة من علم الآثار، بكل ما يرتبط به من حقول علمية، كعلم المستحثات الإنسانية، والطبقات الزمنية للأرض، ودراسة البقايا الحيوانية والنباتية. وتتنوع القيم النسبية للمصادر المادية والأدبية لبناء ماضي الإنسان منذ البدايات حتى الوقت الحاضر. وفي ما قبل التاريخ، كما قلنا، يحظى علم الآثار بالسلطة العليا؛ والحقيقة أن ما قبل التاريخ هو علم الآثار ما قبل التاريخية. وفي التاريخ القديم يكتسب علم الآثار أهمية عظمى، وأحياناً يشار إلى الجزء الأكبر منه باعتباره التاريخ الأولي. فنحن لا نستطيع أن نحل أو نبدأ برؤية طريقنا نحو حل لهذه المشكلة

الآسرة عن انبثاق الإنسان من الوحشية عبر البربرية غير المتعلمة إلى الحضارة المتعلمة حتى أو ما لم نقدِّر ما ينبغي أن يقوله علم الآثار؛ أما كم ينبغي أن يقول، وأحياناً كم ينبغي أن يصمت، فسوف نتحدث عن حدود علم الآثار لاحقاً.

ومن ناحية أخرى، فإن تحديدات المصادر المكتوبة أكثر وضوحاً: فهي لا توجد قبل عام ٣٠٠٠ ق م في الشرق الأدنى. وآثار حضارة الإنسان الأولى دفينة في ماضي ما قبل الكتابة، وهو ما يخبرنا به علم الآثار عن المراحل الأخيرة في ذلك الماضي ما قبل الكتابة كما ينبثق عن طريق التاريخ الأولي إلى التاريخ الذي هو اهتمامنا[١١].

وليست كلمة (حضارة) بالكلمة القديمة جداً في اللغة الإنجليزية على الإطلاق. إذ يروي بوسويل أنه استحث في عام ١٧٧٢ الدكتور جونسن على أن يضمن الكلمة في «معجمه»، لكن الدكتور رفض: وآثر الكلمة الأقدم (تمدن)، وكانت هذه الكلمة، شأنها شأن كلمة (تحضر)، تعكس ثقافة أهل المدن في البلدات أو المدن كما تتميز عن ثقافة البربرية – الريفية الزراعية. وبالطبع كانت كلمة متحيزة: وهنا نحن نستخدم المدنية والحضارة كمصطلحات موضوعية وخاصة – من دون المحمولات التي نقرنها بكلمتي التمدن والتحضر. ونحن لا نزعم أن أهل الحضارات الأولى، أي سكان البلدات المتعلمين في أور وموهينجو – دارو وآنيانغ، كانوا بالضرورة حضراً أو

متمدنين. لكنهم كانوا يعرفون الكتابة وقد عاشوا في بلدات وكانوا أول الناس الذين قاموا بهذا في العملية الطويلة عن ارتقاء الإنسان الثقافي والاجتماعي من الوحشية المظلمة في بواكير العصر الحجري القديم.

لقد استعملت كلمتا الثقافة والحضارة عدة مرات: وأرى أن أفضل الطرق في تعريفهما هو أن أقتبس ما قاله المرحوم البروفيسور أ. ل. كروبر. وكروبر (١٨٧٦–١٩٦٠) كان واحداً من كبار الأنثروبولوجيين الأمريكيين الرواد. منذ عام ١٩٥٧ فصاعداً بدأ يجمع مادة أولية لكتاب لم ينتهِ منه أبداً: كان عنوانه «جدول الحضارات والثقافة»، وإليكم ما كتبه على ورقة وجدت بعد وفاته في ملفاته لهذا الكتاب:

إن مفردتي الحضارة والثقافة تستخدمان هنا لا بالمعنى المتناقض الذي تستبعد به كلٌّ منهما الأخرى، بل بالمعنى الشمولي كمترادفين في الجوهر لمحتوى يتنوع أحياناً. ولا يوجد اختلاف مبدأي بين الكلمتين، فهما تدلان على درجات يمكن تمييزها من الشيء نفسه. وتحمل الحضارة في الوقت الحالي معنى التطور العالي لمجتمع ما: أما الثقافة فقد أصبحت المصطلح المعتاد للدلالة الكلية في هذا النطاق، وهو ما يصح إطلاقه أيضاً على نتاجات عالية أو خفيضة وتقاليد للمجتمعات. ولكل مجتمع إنساني ثقافته، المعقدة أو البسيطة....وعند الثقافات الكبيرة والغنية لمصطلح الحضارة

استعماله الحالي، الذي هو في غنى عن التنازع بشأنه، بما يُفهم منه أنه لا ينطوي على تمييزات في النوع بين الحضارة والثقافة[١٢].

في تقديري أن هذا التعريف لا يعلوه تعريف لأغراض الوضوح والصحة. فما من تمييزات ضمنية في النوع أو القيمة متضمنة فيه. وأود أن أضيف شيئاً واحداً فقط لإضفاء مزيد من الوضوح على الاختلاف بين الاستعمال الأثري / الأنثروبولوجي لهاتين الكلمتين وبين أحكام القيمة. لجميع الناس من حيث التعريف ثقافة، ولكن هذا لا يعني أن جميع الناس مثقفون بالضرورة. وينتمي أغلب الناس في هذه الأيام كلاً أو جزءاً إلى حضارة – أي إلى نمط ثقافي محدد– لكن آخرين كثيرين، ممن يسمون بالبدائيين، ما زالوا يعيشون في مجتمع لم يصل بعد إلى هذا المستوى من التعقيد. وليس جميع الناس الذين يشكلون جزءاً من الحضارة هم من المتحضرين أو المتمدنين بالضرورة[١٣].

وبرغم أن لوبوك كان أنثروبولوجياً – بين الأشياء الكثيرة التي كانها– فإنه كان يكتب قبل وقت طويل من الكشف عن كثير من الاكتشافات الأثرية الكبرى لحضارات الإنسان الأولى. كما أنه كتب أعماله في ذلك الحين، حين كان تشارلز داروين قد قسم الناس المطمئنين بنشر كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩، كما أن تشارلز لايل وجون إيفانز قسما الناس

مزيداً من التقسيم بقبولهما، في تلك «السنة العجيبة» نفسها (annus mirabilis)، بالآثار القديمة الكبرى للإنسان، حينما كانت هناك فكرة واضحة ومريحة تماماً عما تعنيه الحضارة. فقد كانت الحضارة هي أوروبا الغربية، وكان العصر الفكتوري هو الذروة الزاهية في ذلك الصرح، صرح الحضارة الغربية. ونحن جميعاً بطرق متنوعة كثيرة، ما زلنا نستخدم شعار هذه العبارة: الحضارة الغربية. نزهو بها، ونحس بالعار منها، هي مجد الديمقراطية والمسيحية العظيم، وهي الرأسمالية البرجوازية، ونحن مستعدون للموت من أجلها، وهي خاوية راكعة تحتضر على قدميها: وكل شيء يعتمد على الكيفية التي تنظر بها لها. وكم من موضع ما زلنا نواجه فيه الصورة التقليدية التي يقدمها كتاب التاريخ عن ارتقاء الحضارة الغربية ومكوناتها – المكونات الثلاثة من أثينا وروما والقدس. أعطت أثينا الحضارة الغربية تراثها الفكري والفني، وأعطتها روما الإنجاز العملي للحكومة والقانون، وأعطتها القدس إيمانها وأخلاقها. إذا تم تصوير كل شيء على هذا النحو البسيط، فإن الفكرة ستتكرر في الغالب بهذه الصيغة التبسيطية.

ولكن حتى في القرن التاسع عشر كانت هذه القصة المفرطة في التبسيط عن الحضارات الثلاث التي تقف وراء الغرب الوسيط والحديث – الإغريق والرومان والعبرانيين– قصة

منقوصة وغير كاملة على نحو جلي. إذ كان «الإنسانوي» والمسيحي، حتى من دون مصادر أثرية تفصيلية، واستناداً إلى التاريخية المشكوك فيها للكتاب المقدس، بل إلى الملاحظات والأوصاف الأدق عند أناس من طراز هيرودوت، يعرفان المصريين والآشوريين والبابليين والميديين والفرس. لقد نسي، أو تناسى، أكثر الباحثين خلال الفترة التي تمتد بين ١٤٩٢ و ١٥٣٠، الفترة من كولومبس إلى أمريكو فيسبوتشي، أن حضاراتٍ اكتشفها ودمرها الغزاة الإسبان جزئياً في أمريكا الوسطى. وهي بالمصادفة واحدة من الخصائص المثيرة في تطور دراسة الآثار القديمة للإنسان في هذه الجزر البريطانية التي لم نولها حتى الآن اهتماماً كبيراً في حضارات أمريكا قبل كولومبس. وربما كان القارئ ذو الثقافة المتوسطة يعرف عن المايا والأزتيك والإنكا في أمريكا أقل مما يعرفه عن المصريين القدماء والسومريين وأهل هرابا وشعب حضارة شانغ في الصين[١٤].

ولكن إذا كان الفكتوريون لم يولوا كثيراً من التفكير لما يكمن وراء الإغريق وروما والميديين والفرس، ولم يصرفوا إلا القليل من الاهتمام إلى أمريكا الوسطى، فقد كانت لديهم أفكار غامضة عن آثار الحياة المدنية في الهند والصين. أفلم تكن الصين هي التي اخترعت الورق والبارود، أولم يوجد أمراء «الصاحب» والمباني السامقة التي نظر إليها باعتبارها بقايا

قديمة ملعونة في غابات الهند، أولم يوجد شعور لدى القلة بأن ثمة حكمة قديمة جداً في الشرق، بمعزل عن البهلوانيات وابتلاع السيوف عند الدراويش والفقراء؟ كنا نعيش في القرن التاسع عشر لكن كثيرين منا ظلوا متمركزين حول الغرب. وكما قال المرحوم البروفيسور رالف لنتون في كتابه «شجرة الحضارة»، الذي يشكل هو نفسه مقدمة قيمة جداً لارتقاء الإنسان الثقافي، «لقد قيل إن معركة واترلو كُسبت في ملاعب «إيتون» الرياضية، ولا بد أن يضيف المرء أن سنغافورة خسرتها في صفوفها الدراسية»[١٥].

حصلت الثورة التي أحدثها علم الآثار في معرفتنا بحضارات الإنسان المبكرة في السنين الخمس والسبعين التي أعقبت صدور «أصل الأنواع» وكتاب لوبوك «عصور ما قبل التاريخ». عام ١٨٧٧، بدأ أرنست دي سارزاك، القنصل الفرنسي في البصرة، بالحفر في موضع اسمه «تلّو»، حيث تم العثور على بعض التماثيل الحجرية؛ وأثناء ربع القرن التالي، عُثِرَ على السومريين من خلال علم الآثار. عام ١٨٧١، بدأ هاينرك شليمان بالحفر في «حصارلك» في غرب تركيا وعثر على طروادة. بقي يحفر بين الحين والآخر حتى وفاته في عام ١٨٩٠، وفيما بين حملاته الأثرية الأربع في طروادة، نقّب في ميسينا وتيرانس وكشف عن عالم حضارة جديدة، هي حضارة الميسينيين. وحين توفي شليمان، كان يتفاوض من أجل

السماح له بالحفر في كريت. وفي عام ١٨٩٩، بدأ آرثر إيفانز التنقيبات في كنوسوس، وفي غضون تسعة أسابيع كشف عن مبنى ضخم وصفه بأنه قصر مينوس. وفي العام التالي أعلن عن وجود حضارة مبكرة سماها الحضارة المينووية[١٦].

في الجزء الأول من «تاريخ كامبرج للهند»، الذي نشر في عام ١٩٢٢، كتب السير جون مارشال: «من سوء حظ التاريخ الهندي أن الصفحات الأولى والأكثر غموضاً منه لا تستمد إلا ضوءاً قليلاً من الآثار المعاصرة»[١٧]. وبعد سنتين في عام ١٩٢٤، أعلن في مجلة «أخبار لندن المصورة» أن التنقيبات في موهينجو – دارو وهرابا، التي هي الآن جزء من باكستان، قد كشفت عن حضارة جديدة ما قبل التاريخ، غالباً ما يشار إليها الآن باسم حضارة السند أو الحضارة الهرابية. وخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عثر مزارعون كانوا يحرثون حقولهم بالقرب من آنيانغ في شمال الصين على كسر مثيرة من عظام مزخرفة، هي ما يسمى بعظام النبوءة. وفي عام ١٩٢٨، بدأت «الأكاديمية الصينية» و«معهد شمشونيان» بالحفر في آنيانغ وكشفوا عن حضارة العصر البرونزي في الصين، التي تتطابق الآن مع سلالة شانغ لدى المؤرخين الصينيين[١٨].

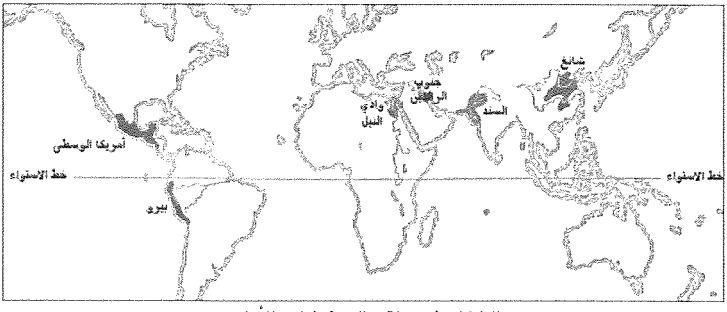

الشكل ١: مواقع الحضارات الأولى

ومن الصين إلى بيرو. لقد كشفت السنوات الثلاثون إلى الأربعين الماضية من الاطلاع والتنقيب في أمريكا الوسطى وبيرو عن أصل الحضارات الأمريكية النووية ونموها. ولذلك فنحن نتمتع الآن بموقف يختلف تماماً عن موقف لوبوك حين شرع بكتابة «أصول الحضارة» في عام ١٨٧٠. نعتقد الآن أننا نعرف من علم الآثار أماكن وجود حضارات الإنسان الأولى وأزمنة وجودها – في جنوب بلاد الرافدين، وفي مصر، وفي وادي السند، وفي النهر الأصفر في الصين، وفي وادي المكسيك، وفي غابات غواتيمالا وهندوراس، وعلى سواحل البيرو ومرتفعاتها. في هذه المناطق السبع تحققت الحضارات الأولى في الوجود. ولن ندعوها بالحضارات الأولية، لأن هذا من شأنه أن يجعل من الصعب الإشارة إلى كريت وميسينا والحيثيين والإغريق والرومان وغيرهم بوصفهم حضارات ثانوية، ويبدو أن مصطلح «الثانوي» ينطوي على معنى ازدرائي. بل إننا سنتحدث عن الحضارات الأولى والمبكرة

والحضارات المتأخرة[١٩].

فلنعد قليلاً إلى السؤال المركزي حول ماهية الحضارة: وقد أجبنا عنه قبل قليل باقتباس من كروبر – ولكن دعونا نبدأ من جديد. يعرِّف «معجم أوكسفورد الإنجليزي» الحضارة بأنها «فعل أو عملية...التحضر»، أو «حالة التحضر أو شرطها». وهذا نفسه يتطلب سؤالاً يجاب عنه حين ننظر إلى تعريف «التحضر». وهناك نعرف أنه يعني «الانتقال من حالة البربرية، وتعلم فنون الحياة، وإنارتها وتصفيتها». وكإنسان تعلم في كامبرج، وأخذ «معجم أوكسفورد الإنجليزي» كمرآة دقيقة للاستعمال الإنجليزي دائماً، كانت الحضارة تبدو عندي بوصفها عملية تغيير ما سماه أديسون «العالم الفج الخشن إلى عالم متحضر صقيل». ولسنا مغالين غلوَّ سومرست موم الذي قال «إن درجة حضارة أمة تتحدد بتجاهلها لضرورات الوجود».

كان تعريف كروبر يرى أن الحضارة هي نمط خاص من الثقافة. وأدرج غوردن كايلد في كتابيه «الإنسان يصنع ذاته» و«ما حدث في التاريخ»، العناصر التي اعتقد أنها تشكل نمط الجماعات الحضرية المتمدنة في الشرق الأدنى القديم – المحراث، المركبة ذات العجلات، حيوانات السحب، المركب الشراعي، سبك خامات النحاس، التقويم الشمسي، الكتابة، عمليات الحساب، مقاييس الأوزان والتعيير، الري، الصنائعيين المتخصصين، حياة المدينة، فائض الأطعمة المتيسرة لدعم

أعضاء الجماعة الذين لم يعودوا قادرين على إنتاج أطعمتهم. وبالتأكيد فإن السمات المشتركة لما تقوم عليه الحضارات الأولى هي التالية: الأول، وجود فائض من التربة لتلبية حاجات الطبقات الاقتصادية الجديدة ودعمها؛ الثاني نمط معاش معقد – وليس قائماً على محصول واحد– ودرجة معينة من استخدام مكثف للأرض يكون الري إحدى التقنيات فيه. وتنحصر قائمة كايلد في الأساس بالأشياء المادية. ويؤكد ردفيلد، في تحليله للحضارة، بالإضافة إلى ذلك على أربعة أشياء: الأول، القيمة الممنوحة للتراكم المركزي لرأس المال الذي يُجمَع بالخراج أو استحصال الضرائب؛ الثاني، الفوائد الخاصة للطبقة الحاكمة؛ الثالث، القيمة العليا التي تُضفى على «الدولة»؛ الرابع، ظهور أديان قومية، أو طبقات كهنوتية، أو حكام آلهة، أو كهنة آلهة ومراكز احتفالية بيروقراطية[٢٠].

في عام ١٩٥٨، عقد «المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو» ندوة عن أصول الحضارة في الشرق الأدنى: وقد نشرت البحوث المعدة للندوة والمحاضرات والمناقشات التي جرت حولها عام ١٩٦٠ في كتاب بعنوان «المدينة الحصينة». وبطبيعة الحال، أطلق كثيرٌ ممن شاركوا في هذه الندوة القيّمة تعريفاتهم الخاصة للحضارة. قال المرحوم البروفيسور كلايد كلوكهون إنه لا بدَّ لكي يُسمَّى المجتمع مجتمعاً متحضراً أن يمتلك خاصتين مما يأتي: بلدات تضم ما لا يقل عن ٥٠٠٠

نسمة، ولغة مكتوبة، ومراكز احتفالية نصبية. ورأى غيلب أنك لا تستطيع أن تمتلك حضارة من دون كتابة. قال: «لقد توصلت إلى استنتاج مفاده أن الكتابة من الأهمية بحيث لا يمكن أن توجد حضارة من دونها، والعكس بالعكس، فالكتابة لا يمكن أن توجد إلا في حضارة». وكان تعريف البروفيسور روبرت أدامز للحضارة بأنها مجتمع ذو شبكة متداخلة وظيفياً من المؤسسات الاجتماعية التي يدرجها كما يأتي:

١. تدرُّج طبقي تميزه درجات مختلفة جداً من ملكية السيطرة على مصادر الإنتاج الأساسية؛

٢. تراتبات سياسية ودينية يكمِّلُ بعضها بعضاً في إدارة الدول المنظمة إقليمياً؛

٣. تقسيم معقد للعمل مع صنائعيين متفرغين، وخدم، وجنود وموظفين بالإضافة إلى الكتلة الكبيرة من المنتجين المزارعين الأوليين[٢١].

وهناك تعريف آخر، لا يأتي من مؤتمر شيكاغو، بل من البروفيسور استيوارت بيغوت في مقدمته لكتاب الأستاذ ماكس مَلَوان الذي نشر مؤخراً بعنوان «بلاد الرافدين المبكرة وإيران»:

لن نخطئ الهدف بالتأكيد إذا فكرنا بالمجتمعات المتمدنة باعتبارها تلك المجتمعات التي سعت إلى إيجاد حل لمعضلة العيش في جماعة دائمة نسبياً، على مستوى من التطور

التقني والمجتمعي فوق مستوى عصبة الصيادين، أو المزرعة العائلية، أو القرية الريفية المكتفية ذاتياً، أو القبيلة الرعوية، مع القدرة على خزن المعلومات بصورة وثائق مكتوبة أو ما يعادلها. فالحضارة، مثل الثقافة الإنسانية بأسرها على أي مستوى كان، هي شيء اصطناعي يصنعه الإنسان، ونتيجة لصنع الأدوات (المادية أو المفهومية) للتعقيد المتزايد استجابة لمفاهيم حياة الجماعة المتسعة التي تنمو في عقول الناس[٢٢].

إذاً، حين نتحدث عن أصول الحضارة، فنحن نعني أصول سكان المدن والبلدات المتعلمة الأولى؛ ونحن نناقش ما سماه غوردن كايلد «الثورة الحضرية» – ولكن سوف نرى أن ما أُفضِّل أن أُسميه بعملية اتحاد المدن لم يكن ثورة بل ارتقاء، وهو ارتقاء حصل في أجزاء مختلفة من العالم. تتعلق مشكلتنا بكيف ولماذا وأين ومتى قامت المجتمعات البربرية بهذه القفزة نحو الجماعات المتعلمة من سكان المدن. وهنا يكمن لبُّ السؤال: هل حصلت هذه القفزة إلى الأمام مرة واحدة فقط، أم حصلت مراراً؟ وقبل أن نجيب عن هذا السؤال، أو حتى أن نناقش المزايا النسبية لمختلف الأجوبة التي تقدم عنه من آن لآخر، لا بدَّ أن نمرَّ بالأدلة الأثرية في المناطق الحاسمة. وفي البداية سنناقش بلاد الرافدين، ثم مصر، ثم الهند والصين، وأخيراً الأدلة الأثرية من أمريكا.

لقد أثرنا من قبل سؤالاً آخر بالإشارة مراراً إلى البربرية. وكان الإغريق يعرفون ما قصدوه بالبرابرة: فقد أطلقوا عليهم اسم «البرابرة» (barbaroi)، وهي كلمة تعني ما تعنيه كلمة «المتبربرين» (barbarophonoi)، أي الناس الذين يتحدثون بلغة أعجمية أو بربرية – الناس الذين دأبوا على قول (بر! بر!)[أ]. وقد قابل الإغريق هؤلاء الناس عند حدود العالم المتمدن وكانوا يسمونهم بأسمائهم مثل السرماتيين والسكيثيين والكلتيين والليغوريين. وقد أعطانا هيرودوت نبذة عن شعب يعيش في قرية على بحيرة في اليونان، وهنا كان يكتب نبذة أثنوغرافية عما نسميه هذه الأيام بجماعة من العصر الحجري الحديث أو البرونزي[٢٣]. ويشترك البرابرة الذين قابلهم الإغريق بأشياء كثيرة – فهم غير متعلمين، لا يعرفون الكتابة، وما كانوا يعيشون في بلدات، وبعضهم كانوا بدواً، يشربون حليب الأفراس، والغريب أن بعضهم كانوا يلبسون السراويل. لكن جريمتهم الكبرى أنهم لم يكونوا يتكلمون الإغريقية – وهذا ما يبين بوضوح أي برابرة كانوا حقاً!..

مع ذلك كان البرابرة – برغم أنهم لم يمتلكوا المدن أو الكتابة أو الأدب– ضليعين في كثير من الفنون والصنائع. دجنوا الحيوانات – والواقع أن كثيرين منهم كانوا يحسنون

(أ) [كان هذا الفهم هو السائد لتأثيل أصل البربرية، بمعنى العجمة وعدم الإفصاح، لكن بعض اللغويين يعتقد أن الكلمة من أصل سامي، وتعني: (بر) الأولى= ابن، بينما تعني (بر) الثانية = البرية أو الصحراء، فهي ابن البرية، أو البدوي– المترجم].

ركوب الخيل- وزرعوا الحنطة. وطوّر بعضهم، مثل الكلتيين والسكيثيين، أسلوباً فنياً متميزاً[٢٤]. وكانوا في واقع الأمر شبه متمدنين، أو هكذا اعتقد الإغريق.

في الغالب لم يلتقِ الإغريق بشعب لم يكونوا مزارعين أو رعاة؛ ولم يكن لهم اهتمام كبير بالناس الذين صرنا منذ العصور الوسطى فصاعداً نسميهم بالمتوحشين :(savages) وهي كلمة مشتقة من «أهل الغابة» (silvaticus) المشتقة من (silva)، أي الغابة أو الأجمة. كان المتوحشون أهل الغابات أو الأجمات – الشعوب التي لا تزرع، وبالتأكيد لم يعرفوا زراعة الحنطة: وحتى عام ١٥٨٨ ظلت الكلمة تستخدم للناس غير المتمدنين الذين يعيشون في حالة ثقافية متدنية – أناس يعيشون في حالة الطبيعة: وربما تتذكرون عبارة تنيسون: «سأتخذ لي امرأة متوحشة، وسترفع عرقي القاتم»[٢٥].

وبحلول أواخر القرن الثامن عشر كان هناك وعي واضح لدى بعض الباحثين في الأقل بالمتوحشين والبرابرة والمتحضرين (أو المتمدنين) باعتبارهم ثلاث مراحل في ارتقاء الإنسان الاجتماعي والثقافي. كتب الحاكم بونال – كان حاكماً لماساشوستيس- في المجلد الثاني من مجلة «الأركيولوجيا» عام ١٧٧٣ قائلاً:

وجد كوكب الأرض الذي نعيش فيه، بحكم العملية التي

تقررها طبيعته، تحت تغير متعاقب في الأشكال، وقد سكنته أنواع مختلفة من البشر، الذين عاشوا في مختلف أنماط الحياة، التي تتناسب مع الحالة الخاصة بالأرض التي وجدوا عليها. ولكون وجه الأرض تغطيه الغابات في كل مكان أصلاً، إلا حيث تنبسط المياه، فإن الكائنات الإنسانية الأولى فيه كانوا «أهل الغابات»، الذين يعيشون على الفواكه والأسماك وطرائد الغابة. وقد أفلح العامل على الأرض مع هؤلاء. استقر على بر الأرض، وأصبح ساكناً دائماً وتناسل وتكاثر. وحيثما جاء العامل على الأرض، كان يلتهم في زمنه العرق المشتت لأهل الغابة[٢٦].

في أواخر القرن الثامن عشر بدأ التأمل في هذا التعاقب: أهل الغابات، أناس وحشة الغابة، الغابيون، أو المتوحشون؛ ثم العاملون على بر الأرض، الناس المستقرون، البرابرة عند الإغريق، وأخيراً، الحضارة. وهكذا كان التعاقب الثلاثي يبدأ بجمّاعي الأطعمة، والزراعيين البدائيين والرعاة، ثم الحضارة؛ أي بكلمة واحدة، أو بالأحرى بثلاث كلمات، الوحشية ثم البربرية ثم الحضارة. وضع سفين نيلسون، أستاذ علم الحيوان في جامعة لوند في السويد هذه النظرات في كتابه (Skandinaviaska Nordens Urinvandre)، الذي نشرت طبعته الأولى في لوند عام ١٨٣٨-٤٣. وقد ترجمت الطبعة الثانية إلى الإنجليزية - على يد لوبوك- وظهرت عام ١٨٦٨

تحت عنوان «سكان اسكندنافيا البدائيون». هنا يضع نيلسون تصنيفاً لماضي الإنسان يقوم على نمط معاشه. في البداية، وجدت الحالة «الوحشية» – طفولة الجنس البشري– حين كان الإنسان صياداً وسماكاً وجماعاً للثمار والفواكه. ثانياً، مرحلة «الرعاة» أو «البدو»، حين صار الصيد مهنة ظرفية لكن الإنسان بقي يعيش في الأساس على نتاج قطعانه. والمرحلة الثالثة هي «الزراعية»، والرابعة هي «الحضارة»، التي يحددها نيلسون، بالمصادفة، على أساس النقود المسكوكة والكتابة وتقسيم العمل. كان يرى أن مرحلة الرعي أو المرحلة الرعوية بين جني الأطعمة والزراعة لبثت طويلاً، وإنه لمن المثير أن نجد الشاعر كوليرج يقول في عام ١٨٣٦ إن «التطور من الوحشية إلى الحضارة جرى في البداية من الصيد إلى المرحلة الرعوية»(ب).

(ب) [كان ابن خلدون في الثقافة العربية قد قسم مراحل تطور المجتمعات البشرية إلى ثلاثة أنواع استناداً إلى أساليب معاشها، هي: المجتمع البدوي، الذي يسميه أحياناً بالمتوحش، وهو مجتمع المعاش الضروري، والمجتمع الريفي، الذي يشكل وسيطاً بين المجتمعين، والمجتمع الحضري، الذي يتميز بالعمران ويزيد في معاشه عن الضرورة إلى الكمال والترف. ولا يكاد يختلف رأي كوليرج المذكور في إيثاره البدائية والطبيعية على الحضارة عن رأي المتنبي في قوله:

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها ... وخالفوها بتقويض وتطنيب

ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطريةٍ ... وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

يُنظر: ديوان المتنبي، ص ٤٨١– المترجم.

لم يقبل الأنثروبولوجيون والأثنوغرافيون في القرن التاسع عشر الذين كانوا في بدء إثارة اهتمام العالم بالمجتمعات البدائية ومشكلاتها الشيقة في علاقاتها بماضي المجتمعات الحديثة – أي هل كان ذلك تقدماً وتطوراً أم هو تراجع وتأخر– بنموذج المراحل الأربع عند نيلسون بالضرورة، ألا وهي جمّاع الأطعمة، والبدوي الرعوي، والمزارع، والإنسان المتمدن المتحضر، لكنهم لم يقبلوا على العموم بنموذج الوحشية والبربرية والحضارة، واستمرت الحال معنا كذلك منذ ذلك الحين. ولا اعتراض لي على هذا في صيغته العامة العميقة. فقد كانت أول صياغة شكلية واضحة له في كتاب إدوار تايلر «الأنثروبولوجيا: مقدمة إلى دراسة الإنسان والحضارة»، الذي نشر في عام ١٨٨١. أصبح تايلر أول قارئ للأنثروبولوجيا في بريطانيا، وبالتالي، أول أستاذ في أكسفورد، يقف لمرة واحدة، إلى جانب الأسباب الظافرة. وقد اقترح تايلر صورياً التمييز بين ثلاث مراحل في التاريخ الإنساني: الوحشية، والبربرية، التي عرّفها بأنها البدء بالزراعة؛ والحضارة، التي جعلها تبدأ بالكتابة[٢٧].

انطلق الأنثروبولوجي الأمريكي لويس هـ. مورغان، في كتابه «المجتمع القديم: أو بحوث في خطوط التقدم الإنساني من الوحشية عبر البربرية إلى الحضارة» (١٨٧٧)، في تعريف هذه المصطلحات على نحو أكثر دقة بحسب اتساع مصادر

معاش الإنسان. وقد ميّز سبع فترات عرقية كما يسميها. كانت الست الأولى منها:

١. **الوحشية الدنيا**، من ظهور الإنسان حتى اكتشاف النار؛

٢. **الوحشية الوسطى**، من اكتشاف النار حتى اكتشاف القوس والسهم؛

٣. **الوحشية العليا**، من اكتشاف القوس والسهم حتى اكتشاف الفخار؛

٤. **البربرية الدنيا**، بدأت هذه المرحلة مع اكتشاف الفخار (الذي كان يشكل عند مورغان الخط الفاصل بين الوحشية والبربرية) وانتهت بتدجين الحيوانات؛

٥. **البربرية الوسطى**، من تدجين الحيوانات حتى سبك سبائك الحديد؛

٦. **البربرية العليا**، من اكتشاف الحديد حتى اختراع الألفباء الصوتية.

وأخيراً كانت الفترة السابعة هي الحضارة مع الكتابة والألفباء[٢٨].

بالطبع كانت مخططات تايلر ومورغان مخططات نظرية؛ وكانت نماذج عن الماضي مشابهة للنماذج الأبسط عند بونال

ونيلسن. وحين شرع نيلسن يكتب، كان يجري تطوير نموذج آخر، في الدنمارك في الأساس. وهو نموذج تقني رأى أن ماضي الإنسان يقع في ثلاث مراحل أو عصور، هي الحجر والبرونز والحديد. افتتح س. ج. ثومسن، قيّم «المتحف الدنماركي الوطني في كوبنهاغن» هذا المتحف للجمهور في عام ١٨١٩، وقد صُنِّفت معروضاته بهذه الطريقة. وبرهن مساعده وخليفته ج. ج. أ. وورساي أن هذه التقنيات المتتابعة الثلاث لم تكن مجرد نموذج نظري، بل هي الواقع الذي رصدته التنقيبات وبرهنت عليه. ويتمثل إسهام وورساي الكبير في أنه بيّن في حفره في السباخ الدنماركية وروابي جوتلاند أن الإنسان كان قد عاش في عصر حجري، ثم صار يستخدم المعادن، لكنه لم يعرف منها سوى النحاس وسبكه مع القصدير، وهو تحديداً البرونز؛ ولم يحصل إلا في أواخر ارتقائه – ونحن نعرف الآن أن ذلك لم يحدث قبل ١٥٠٠ ق م في الأناضول وبعدها بكثير في أجزاء العالم الأخرى– في عام ٥٠٠ ق م في هذه البلاد – صار الإنسان يستخدم الحديد[٢٩].

سرعان ما تبين أن هناك مراحل متعددة في العصر الحجري، وكان لوبوك، قبل مائة سنة، هو الذي ولّد مصطلحي «العصر الحجري القديم» و«العصر الحجري الجديد» وأطلقهما على هذه العصور الحجرية. وفيما بعد أُضيف «العصر الحجري الوسيط»، واستعمل بعضهم «العصر الحجري المبكر»، ليصير

الجميع خمس مراحل – العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الوسيط، والعصر الحجري الجديد، وعصر البرونز، وعصر الحديد– تنقسم إلى حقب وفترات تعكس في مجراها أنماط الثقافة المادية المتعددة ومختلف أشكال تجميع الصنائع.

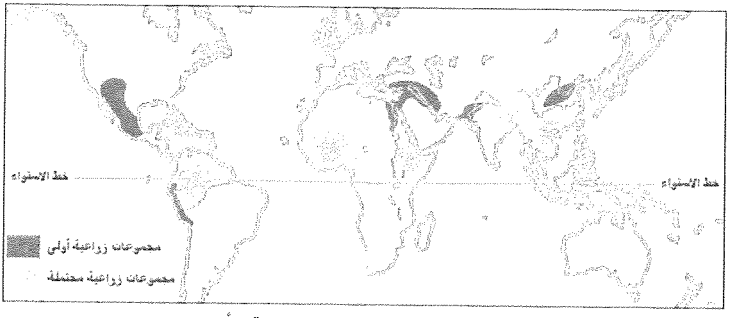

الشكل٢: مواقع الجماعات الزراعية الأولى

وقد حاول شخصان في الأقل أن يزاوجا بين هذين النموذجين. أحدهما المرحوم غوردن كايلد، والآخر هو ج. غ. د. كلارك، الأستاذ الحالي للآثار في كامبرج. إذا نظرت إلى عمل كايلد الكلاسيكي «ما حدث في التاريخ»، الذي نشر للمرة الأولى في عام ١٩٤٢، ستجد فصولاً عناوينها الوحشية في العصر الحجري القديم، والبربرية في العصر الحجري الجديد، والبربرية العليا في عصر النحاس، وحضارة عصر البرونز المبكرة، وغيرها. وعندي أن هذه المزاوجات بين النموذجين غير مجدية جداً؛ والحقيقة أن النموذج التقني، كما بقيت أنا نفسي أدافع لسنين، وهو ما أفادنا جداً لمدة طويلة – ومن دونه

ربما ما كان بإمكان علم الآثار أن يتطور إلى حقل دراسي – يمكن الآن التخلي عنه برضا في الأحاديث العامة، برغم أنه سيظل يُستخدَم تصنيفياً لمدة طويلة، وسنظل نرى في المتاحف عناوين توضع لتسمي الآثار بأنها تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى، أو العصر الحجري الجديد الأوسط، وما أشبه[٣٠].

والمثير بشكل خاص أنه في تطور علم الآثار الأمريكي ما قبل كولومبس، وهو ما سنعنى به لاحقاً، سنجد أنه بعد فترة من استعمال الألقاب الإغريقية المحدثة القديمة، ولّد علم الآثار الأمريكي جهازاً اصطلاحياً خاصاً به، بعبارات مثل: حجري، وبائد، وتكويني، وكلاسيكي، وما بعد كلاسيكي. سنناقش هذه المصطلحات فيما بعد: وأنا لا أجدها مقنعة تماماً، لكنها بالتأكيد أبنية مفيدة جداً. والطور الكلاسيكي هو طور الحضارة الأمريكية المبكرة في المكسيك ويوكاتان وبيرو[٣١].

قد تسأل لماذا تكون هذه اللحظة مناسبة لإعادة نقاش المشكلة برمتها حول أصول تلك النماذج الخاصة بالثقافة التي اتفقنا على أن نسميها بالحضارة: أو إذا شئت أن تعبر بطريقة أخرى، ما الذي حصل منذ الحرب الأخيرة لينقل كلَّ هذه القضايا الواسعة إلى الصدارة؟ وجوابي عن هذا ذو ثلاثة شقوق: الأول، أنه جرت تنقيبات جديدة واكتشافات جديدة من نوع بعيد الأثر – اكتشاف أريدو في بلاد الرافدين، على سبيل المثال، التي قيل عن صواب دون شك إنها أقدم من جميع

المدن؛ وإعادة التنقيب في موهينجو – دارو وهرابا مع الضوء الجديد الذي تسلطه على هذه المدن في السند؛ اكتشاف عدة مواقع جديدة في السند؛ التنقيبات في الصين التي أعادتنا إلى أصول حضارة شانغ؛ ثم العمل الذي لا ينتهي في أمريكا الوسطى وبيرو وتتوّج باكتشاف أصول الزراعة الأمريكية.

الأول إذاً هو الاكتشاف، والوقائع الجديدة. أما الثاني فتأريخ هذه الوقائع. لقد كان دائماً من الصعب، بل من المحبط في الغالب، العثور على تواريخ دقيقة للأحداث قبل اختراع الكتابة في بلاد الرافدين منذ خمسة آلاف سنة؛ وكذلك تواريخ للثقافات والحضارات البربرية التي كانت تماماً خارج نطاق الاتصال بالتقنيات الأولى في الشرق الأدنى القديم. وظل علم الآثار لمدة طويلة بحاجة ماسة إلى تقنية تأريخ مستقل للإنسان والكتابة. كانت تقنيات الأثبات الزمنية الأولى للأرض هي مشجرات الأثبات الزمنية، التي تطورت في أمريكا وتمكنت من إرجاع الثقافات الأمريكية ما قبل كولومبس إلى خمسة عشر قرناً قبل كولومبس، إلى ما يقرب من زمن ميلاد المسيح. والأثبات الزمنية للأرض بالمعنى الضيق للكلمة، أي حساب الطبقات الرسوبية للطين – أي طبقة الطين الرقيقة التي يتركها وراءه خليط المياه من أنهار الجليد المتراجعة– هي التي مكنت الجيولوجي السويدي بارون دي جير من حساب تاريخ لنهاية العصر الجليدي الأخير ومن تقديم

ثبت زمني للسنين الإثني عشر ألفاً الماضية. وتداخل دراسة لقاحات الغبار بطبقات الطين الرسوبية المؤرخة حقق امتداداً هائلاً في تاريخ طبقات الأرض وتوفير جدول زمني للأطوار المناخية والنباتية ما قبل الجليدية[٣٢].

غير أن الاختراق الكبير، وربما الأكبر، في تطور علم الآثار، جاء نتيجة البحث في الفيزياء النووية في الحرب الماضية. فالبروفيسور ولارد ف. لِبّي، الذي كان حينئذ أستاذ الفيزياء في شيكاغو وأستاذ الكيمياء الآن في كاليفورنيا - وأول حاصل على جائزة نوبل في الآثار، كما وُصِف- اكتشف أن من الممكن تحديد تاريخ على نحو مطلق لأشياء الماضي العضوية، مثل العظام والمتفحمات، لأنه حين يموت جسم عضوي فإن محتوى الكاربون ١٢ يبقى ثابتاً لديه، غير أن الكاربون ١٤ يتحلل بمعدل ثابت. وهناك الآن ما يزيد عن سبعين مختبراً في جميع أرجاء العالم منخرطة في إعطاء تواريخ استناداً إلى الإشعاع الكاربوني[٣٣].

وبسبب هذه التقنية الثورية في تحديد الأثبات الزمنية للأرض نستطيع الآن أن نذكر الوقائع التاريخية كالتالي:

١. المتوحشون في العصر الحجري القديم الأعلى في جنوب فرنسا وشمال إسبانيا الذين كانوا يعيشون على الصيد والأسماك وجني الفواكه والثمار، ولثقافتهم أسماء مثل

الأريغانية والسوليوترية والمجدلانية، والذين أنتجوا فنون الكهوف في لاسكو ونيوس وألتاميرا، عاشوا من زهاء ٣٥,٠٠٠ ق.م إلى ١٠,٠٠٠ ق.م [٣٤]

٢. حصلت بدايات تدجين الحيوانات وزراعة الحنطة في البداية في الشرق الأدنى القديم قبل زهاء عشرة آلاف سنة. وقد ابتكر المستشرق الأمريكي الكبير جيمس برستيد عبارة «الهلال الخصيب» لتطلق على المروج والروابي التي تمتد من مصر وتمر بفلسطين إلى شمال بلاد الرافدين وغرب إيران، وهنا في رأيه، تحقق في الوجود أوائل المزارعين. كان في هذه المنطقة حنطة برية وشعير وأغنام برية ومعيز. وهكذا وجد مزارعونا الأوائل في شمال بلاد الرافدين وفلسطين، ولكن أيضاً في منطقة ثالثة خارج الهلال الخصيب عند برستيد – في جنوب الأناضول[٣٥]؛

٣. لم تتطور الحضارة، بالمعنى الذي نستخدم به الكلمة، على سفوح جبال زاجروس أو في فلسطين أو في جنوب الأناضول، بل لم تتطور في الحقيقة في الهلال الخصيب أو حيث ازدهر المزارعون الفلاحون الأوائل. بل هي تطورت في جنوب بلاد الرافدين، وسوف نهتم بهذا في الفصلين التاليين. وقد كتب البروفيسور صموئيل كريمر كتاباً عن بلاد الرافدين المبكرة بعنوان «التاريخ يبدأ

في سومر» – وهو عنوان جميل مبهرج، ولكنه صحيح أيضاً؛ فقد حقق الإنسان في البداية الحضارة على سهول فيضان النهرين التوأمين في دجلة والفرات.

نفكر بهذه المشكلة من جديد لأننا نعرف الآن، في المحل الأول، وقائع جديدة، وهذه الوقائع، ثانياً، مؤرخة. ربما نخمن فيما يتعلق بالأصول والعلاقات المتداخلة، لكننا لم نعد مضطرين لذلك، أو صار بوسعنا أن نخمن التواريخ، فالوقائع الجديدة تواريخ دقيقة؛ غير أن هذا هو السبب الثالث الذي تكون بمقتضاه اللحظة الحاضرة مواتية لإعادة النقاش حول القضايا العامة المتضمنة – أعني التغير في مناخ الفكر الآثاري. وجرت العادة أن ينشأ نزاع كبير في جميع الدوائر الآثارية والأنثروبولوجية، نزاع بين الانتشار والابتداع أو الارتقاء المستقل، حيث ذهب مؤيدو الانتشار أحياناً مذاهب متطرفة في نزعتهم في الانتشار المتعدي، فاشتقوا جميع الحضارات، وجميع الفنون العليا، من مكان واحد، هو في الغالب مصر أو سومر. وفي السنوات الخمس والعشرين الماضية أو ما قاربها كنا نعيش في مناخ فكري ساد فيه نوع من النزعة الانتشارية المعدلة. ويتوفر خير مثال على هذا في كتاب غوردن كايلد «ما حدث في التاريخ»، وهو كتاب وسم بميسمه تفكير أغلب الناس حتى هذا اليوم.

والآن يبدو لكثير منا أن كايلد لم يولِ اهتماماً كافياً

لإمكانات الابتكار المستقل والتطور المتناظر المتوازي. وقد أشرت سابقاً إلى كتاب إ. ب. تايلر «الأنثروبولوجيا»؛ في كتاب آخر بعنوان «أبحاث في تاريخ البشرية المبكر» (١٨٦٥)، قال: «لكون الحضارة عملية نمو طويل ومعقد، فلا يمكن فهمها فهماً عميقاً إلا حين تُدرَسُ على مدى امتدادها بأسره... أحياناً تُعزى إلى عمل متشابه في عقول أناس يعيشون في ظل ظروف متشابهة، وأحياناً يتوفر دليل على علاقة دم، أو احتكاك، مباشر أو غير مباشر، بين العرقين اللذين يعثر عليها لديهما». لقد كُتبت هذه الكلمات الحكيمة قبل قرن من الزمان، وأعتقد أننا نجد أنفسنا على وفاق كبير معها إذا ما تفحصنا الوقائع الجديدة والتواريخ الجديدة التي لم يحلم بوجودها تايلر قط[٣٦].

وصف روبرت لوي، في كتابه «تاريخ النظرية الإثنولوجية»، اللحظات في القرن التاسع عشر حين كان «الارتقاء...يختبئ ودياً وراء الانتشار»[٣٧]، وبالتأكيد ما زال كذلك. والإنسان، بما هو حيوان متمدن، هو نتاج تطور مستقل ومتناظر إلى حد ما بين الجماعات القروية الفلاحية الأولى في العالمين القديم والجديد، وإلى حد ما هو نتاج تخصيب عابر للأفكار والشعوب بين أقدم المجتمعات المتمدنة التي سنناقشها في الفصول الستة التالية. وسنعود إلى النظرية العامة عن الأصول الثقافية في الفصل الأخير.

الفصل الثاني

اكتشاف الحضارة الأولى

في الإصحاح الحادي عشر من «سفر التكوين» ترد الكلمات التالية: «وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هَلُمَّ نصنع لَبِناً : [آجراً] ونشويه شيّاً. فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحُمَر: [القار] مكان الطين. وقالوا هلُمَّ نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كلِّ الأرض». كُتبت هذه الكلمات بالعبرية بما لا يسبق عام ٨٠٠ ق م، وهي تعطي، في جمل قليلة، نبذة عن أقدم وأبكر الحضارات الأولى التي صنعها الإنسان – حضارة بلاد شنعار، وأرض سومر. ولقد صنعوا لأنفسهم اسماً، وكان ذلك الاسم هو «السومريون»[٣٨].

سينصرف اهتمامنا في هذا الفصل والفصل التالي إلى الضوء الذي يسلطه علم الآثار على أصول الحضارة السومرية. ولقد أشرت فيما سبق إلى التاريخية المشكوك فيها للكتاب المقدس، وقد قصدت من ذلك عجزنا عن القبول بكل ما يرد في بداية «العهد القديم» باعتباره حقيقة ودليلاً مؤكداً حول أصل العالم، وتكوين الإنسان، وتطور ثقافته من الوحشية – إذا صح استخدام هذه الكلمة– في «جنة عدن» من خلال الزراعة

الفلاحية لدى قابيل وتربية القطعان لدى هابيل إلى الحياة المدنية في بابل والحضارات القديمة في الشرق الأدنى، التي شهدها أهل «العهد القديم» في مصر وبابل وأماكن أخرى. ولكن تتخفى في تلك الكتل المثيرة من الأساطير والخرافات، التي يستقي كثير منها مباشرة من بلاد الرافدين قبل أن ينطلق إبراهيم راحلاً عن أور الكلدانيين، بعض الحقائق التاريخية، كما سنرى، مما صار يسهل في الحقيقة رؤيته اليوم بعد مئة من السنين وأكثر من البحث الأثري في شمال غرب آسيا. فلا شك أن نوح والطوفان يعكسان بعض الطوفانات التي كانت تكتسح الأجزاء الجنوبية من بلاد الرافدين من وقت لآخر، وكانت تفيض على العالم المعروف حينئذ برغم أنها لم تغطِّ العالم بأسره بالطبع؛ وقصة الصراع بين هابيل وقابيل هي انعكاس للصراع بين السهوب والبذار، وبين الصحراء ووديان الأنهار المروية – وهي موضوعة تتكرر في تاريخ بلاد الرافدين القديمة[٣٩].

سومر هي الأراضي التي أُطلق عليها بعد ٢٠٠٠ ق.م اسم بلاد بابل. وسهل بلاد شنعار هو أراضي ما بين النهرين، التوأمين، دجلة والفرات. وقد أطلق الإغريق على هذه الأرض اسم (ميزوبوتاميا)، وهي كلمة تعني بلاد ما بين النهرين. ويشكل أغلبها اليوم جزءاً من دولة العراق الحديثة، برغم أن الفرات يرتفع في سوريا، ودجلة في تركيا. وفيما بين الحدود

التركية وجبال أرمينيا في الشمال حتى الخليج العربي في الجنوب، يمتد ما يقرب من ستمائة ميل، هي تقريباً المساحة التي تمتد من أبردين إلى دوفر. وفيما بين الصحراء السورية في الغرب وجبال فارس – جبال زاجروس– في الشرق ما يقرب من مائة إلى مائة وخمسين ميلاً. في هذه المنطقة، وبالذات في الجنوب منها، تحققت الحضارة السومرية في الوجود في النصف الثاني من الألفية الرابعة ق م[٤٠].

بالطبع كان من المعروف جيداً أن بلاد الرافدين كانت وطناً لحضارات قديمة منذ زمن بعيد. إذ شكلت بلاد بابل وآشور جزءاً من الصورة التاريخية للإنسان استناداً إلى الكتّاب الكلاسيكيين و«العهد القديم». وقد زار هيرودوت بابل عام ٤٥٠ ق م، ووصف المعبد الكبير أو الزقورة فيها، وقال: «إن بلاد آشور كمنتج للحبوب هي أغنى بلاد العالم». والأرقام التي قدمها سترابو وهيرودوت لمحصول الذرة بوصفه ضعفين أو ثلاثة أضعاف قد يكون مبالغاً فيها كثيراً. وقد حسب جاكوبسن من النصوص المسمارية أن غلة الحنطة في جنوب العراق في ٢٤٠٠ ق م كانت تعادل غلة أفضل حقول الحنطة الكندية الحديثة، وربما يكون هذا سبباً من الأسباب الداعية إلى نمو الحضارة السومرية وازدهارها – أي خصوبة بلاد الرافدين الجنوبية وثروتها الزراعية – حينما تتم زراعتها بعناية. وبالطبع كان ينبغي أن أقول «الشروط المهيئة» بدلاً

من «الأسباب»: فأنا لا أريد هنا في أي موضع من هذا الكتاب أن أظهر بمظهر من ينزلق إلى حتمية اقتصادية أو جغرافية سهلة.

أُخِذ اليهود أسرى في بابل، وقد انتحبوا على مياهها. وكلنا يعرف النبذة الدرامية التي يرويها النبي – الشاعر العبراني دانيال الذي كان ضيفاً على غير إرادته على وليمة بيلشاصر: «بيلشاصر الملك صنع وليمة عظيمة لعظمائه الألف وشرب خمراً قدام الألف». خلال الوليمة كان رجال قورش [الفارسي] يخوضون النهر ويتسللون إلى المدينة: «في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت بإزاء النبراس على مكلّس حائط قصر الملك...**مَنَا مَنَا تَقيل وَفرْسين**». حدث هذا عام ٥٣٨ ق م. فقد توقف حكم البابليين والآشوريين في بلاد الرافدين الذي استمر من ٢٠٠٠ ق م. ولقد كان حمورابي أعظم الملوك البابليين وواضع شريعة «قوانين حمورابي» الشهيرة التي أصدرها:

لجعل العدالة تعم في البلاد
لتدمير الأشرار والشر.
وحتى لا يضطهد القوي الضعيف.

ظلت تواريخ حمورابي موضوعاً للنقاش: ودعا البروفيسور سدني سمث إلى تثبيت مسرد زمني طويل، وحظي رأيه الذي يحدد تاريخ تسنم حمورابي العرش بعام ١٧٩٢ بدعم قوي توفره الدلائل المتأخرة.

ربما تساءلتَ مَن كان الكلدانيون وماذا كانت كلديا بالضبط في هذه الدراسة للشعوب القديمة والحضارات المبكرة. وقد سمع أغلب الناس بأن إبراهيم عاش في «أور الكلدانيين» (التكوين ١١: ٢٨)؛ وتتكرر كلمات «الكلدانيين» و«الكلديين» و«كلدة» في «العهد القديم» حيث تستخدم كمرادفات مساوية لبابل والبابليين. وكان المصطلح القديم هو: مات كلدو. وربما كان الكلدانيون في مرحلة مبكرة شعباً ساميَّ اللغة منفصلاً، لكنهم سرعان ما لم يعد بالإمكان في التاريخ القديم تمييزهم عن الشعوب التي تتكلم السامية في بابل.

ولذلك، فحين نتكلم في الوقت الحاضر عن شعوب بلاد الرافدين القديمة، فإننا نتكلم عن الآشوريين والبابليين، وليس عن الآشوريين والكلديين. وبالمناسبة، فقد استخدمت كلمة الكلديين لاحقاً وأُلصقت خطأً باللغة الآرامية نفسها، في حين هي تعني، في «سفر دانيال» ولدى هيرودوت وسترابو وديودروس «الفلكيين والمنجمين»: وبقيت الكلمة زمناً طويلاً تعني: «الحكماء»[٤١].

هناك سمتان خاصتان اقترنتا في أذهان المؤرخين والآثاريين لمدة طويلة ببلاد الرافدين المبكرة. الأولى هي وجود «التلول»، والثانية هي الكتابة المسمارية. وتحتاج كلتاهما إلى تفسير بكلمات قليلة هنا. كانت البيوت والمعابد الأولى في بلاد الرافدين القديمة مبنية من الطين، إما كلبن، يرتفع كيفما

اتفق فوق الأرض، أو ككتل بلا أشكال من الطين تُضغط معاً. وفيما بعد، استُخدم الآجر المجفف بالشمس، وفي آخر الأمر، استخدم الآجر المجفف في أفران النار وكان بطبيعته أكثر بقاءً ولا سيما حين يضم إلى بعضه بالقار. كان الآجر المجفف في أفران النار مكلفاً ويُحتفظ به لبناء المعابد والقصور: وقد بُنيت الغالبية العظمى من المباني في بلاد الرافدين من اللبن أو آجر اللبن. وتُبلي الأمطار والاستعمال الطبيعي هذه المباني من اللبن، وقد قُدِّرَ معدل عمر البيت المبني من اللبن في بلاد الرافدين بأنه تقريباً خمس وسبعون سنة. فكانت تبنى بيوت جديدة فوق البقايا المنهارة والمتفرقة للبيوت القديمة، وعبر القرون، تبدأ تتجمع مرتفعات صنعها الإنسان، أو تلول ترتفع بالمصادفة نتيجة ماضي الإنسان المادي. وتسمى هذه المرتفعات الاصطناعية التي تتراكم باستمرار نتيجة تعاقب المستوطنات بالتلول في بلاد الرافدين – وهي كلمة سابقة على الإسلام– ولها أسماء محلية أخرى في الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى، مثل (تبه) في شمال بلاد الرافدين وإيران، و(هويوك) في تركيا. في بعض الأحيان تكون عالية جداً بحق، بل إن بعضها، كما هو الحال في أربيل (أربيلا القديمة) وكركوك، ما زالت قائمة، أو لعل الأصح القول ما زال الناس يعيشون فيها؛ وقليلاً أو كثيراً استمر الناس يشغلونها منذ الأزمنة الأولى حتى العصر الحاضر – ربما لستة أو ثمانية آلاف سنة[٤٢].

تشكل مرتفعات المستوطنات التي صنعها الإنسان – أي التلول والتبات والهويوكات – سمة من سمات علم الآثار في إيران والعراق وفلسطين وتركيا؛ كما أنها موجودة في جنوب روسيا وبلغاريا. فهي ليست سمة كالتي تميز الماضي الباقي في أوروبا الغربية البربرية أو أوروبا الشمالية الغربية، ولا التي تميز مصر، كما سنرى، حيث يصعب العثور على المستوطنات الأولى. والحقيقة أن آثارياً أمريكياً يعمل في مصر، هو جون ولسن، سمى حضارة مصر الأولى «حضارة من دون مدن». ولكن حيث تنتصب «التلول» فهي مكان واضح للباحث عن العاديات والرحالة المهتم بالماضي، والآثاري الحديث بحفرياته وتنقيباته الواسعة. وهذا هو السبب الذي يجعل النبذ المنقولة عن التنقيبات في الشرق الأدنى مستويات مرقمة مثل أوروك ١٨، وتبة غورا ١٢[أ]، ونينوى ٣...إلخ. ولن أشغل القارئ بدقائق تقارير التنقيب، التي هي صورة ثانوية للمعرفة الأثرية – أي الماضي كما يبدو للمنقب، بمعزل عن التلول نفسها – أي الماضي كما بقي. فنحن معنيون هنا بالمستوى الثالث من الدراسة الأثرية – أي الماضي كما يبدو لنا من التأليف بين تقارير المنقبين، لكنك إذا أردت أن تشير إلى هذه المصادر – أعني تقارير المنقبين– فيجب أن تضع نصب عينيك أن بعض التنقيبات منشورة بمستويات مرقمة من الأعلى إلى الأسفل كما بدت في عمل التنقيب، وغيرها مرقمة من الأسفل إلى الأعلى حسب التعاقب التاريخي. وهكذا

ففي حقبة العبيد ونينوى فإن الرقم (١) هو الأقدم، لكنه في أوروك وتبة غورا هو الأحدث.

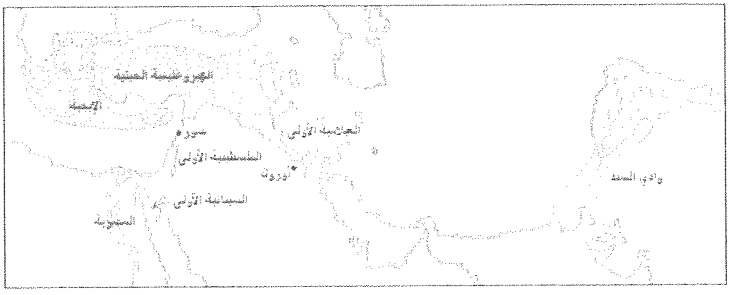

الشكل ٣: توزيع الكتابات غير المسمارية في الشرق الأدنى في العصر البرونزي

قبل حقب مديدة جداً من التنقيب في التلول القديمة في الشرق الأدنى، كانت تُعرف بأنها بقايا من مستوطنات قديمة. فأكبر «تلين» بالقرب من الحلة في بابل وبالقرب من الموصل في آشور كان يشار إليهما في التراث اليهودي والعربي باعتبارهما موقعي بابل ونينوى؛ وقد زار رحالة أوروبيون هذين الموقعين وغيرهما منذ القرن الثاني عشر فصاعداً. وجمع هؤلاء الرحالة في الغالب الآجر وكسر الخزف وشظايا الألواح من هذين التلين. جلب نبيل إيطالي، هو بيترو ديلا فالة، كتب نبذة بالغة الإمتاع عن رحلته عبر بلاد الرافدين، معه إلى أوروبا عام ١٦٢٥ بعض الألواح الطينية المفخورة «التي كانت عليها كتابة بعلامات مجهولة». وكانت هذه الكتابة هي الكتابة المسمارية، أي أقدم كتابة في العالم. كتب السومريون على الطين بقلم مصنوع من القصب أو الخشب.

وكانت العلامات الأولى التي دُوِّنت علامات تصويرية – أي نوعاً من الكتابة الصورية كما يستعملها الصينيون؛ واستخدم البابليون فيما بعد القلم لتدوين كتابة مقطعية. كانت الحافة المبرية من قلم القصب تترك طبعات على شكل مسامير على اللوح، ومن هنا يأتي اسم الكتابة «المسمارية» لهذه الكتابة الأقدم[٤٣].

لكن هذه الكتابة المسمارية لم تكن تقتصر على الألواح الطينية وحسب. إذ كانت هناك نقوش نصبية أيضاً. حين واجه العالَم المتعلم في أوروبا الغربية الكتابة على الأنصاب والألواح، بدأ يدرك أنه يقف أمام سر، وميدان جديد يحتاج إلى الاستكشاف العلمي. عام ١٧٦١ أرسل ملك الدنمارك بعثة علمية للشرق لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات في جميع الميادين، بما فيها الآثار. وكان يرأس هذه البعثة الأستاذ كارستن نيبور، وهو رياضي، لكنه رجل ذو اهتمامات واسعة، وقد نسخ بيده نقوشاً متعددة في بيرسيبولس. وقد لاحظ نيبور نفسه أنها تبدو مكتوبة بثلاثة أنواع من الخطوط المختلفة، وكان مصيباً في هذا: إذ كانت مكتوبة بثلاث لغات نعرف الآن أنها الفارسية القديمة، والسوسية أو العيلامية، والبابلية.

مع بداية القرن التاسع عشر، انهمك ألماني شاب اسمه جورج فردريك غروتفند في العمل على نُسَخ نيبور من نقوش بيرسيبولس الثلاثية اللغة. عام ١٨٠٢، حين كان عمره سبعة

وعشرين عاماً فقط، تمكن من حل شفرة أسماء ثلاثة ملوك في أبسط الكتابات الثلاث، الفارسية القديمة، وتمكن لاحقاً من فك شفرة ما يقرب من ثلث الحروف في هذه اللغة على نحو صحيح. وبحدس ملهم عثر على مفتاح فك شفرة الكتابة المسمارية. غير أن غروتفند لم يكن باحثاً شرقياً؛ بل لم يكن عضواً في كلية جامعة غوتنغن التي قدم لأكاديمية علومها رسالة في اللاتينية حول اكتشافه التاريخي. كان غروتفند معلماً جامعياً غير معروف على نطاق واسع، فرفضت أكاديمية غوتنغن، لفرط عارها الأبدي، أن تنشر رسالته: والحقيقة أنها لم تنشر حتى عام ١٨٩٣، حين لم تعد تثير سوى اهتمام تاريخي، وحين كان آخرون قد حصلوا على امتياز فك شفرة هذا الخط[٤٤].

نعبر من قصة رفض أكاديمية غوتنغن الحزينة لرسالة غروتفند إلى قصة نجاح واحد من أكثر الشخصيات إثارة وعنفواناً في تطور دراسات الشرق الأدنى، ألا وهو هنري كريسويك راولنسن الذي عاش من عام ١٨١٠ إلى عام ١٨٩٥. كان عقيداً في «الجيش الهندي»، عُيِّنَ في بغداد كمقيم بريطاني ومستشار عام؛ وأُعطي فيما بعد لقب فارس لإنجازاته المتنوعة. وبمعرفة باللغات الشرقية، ولكن من دون معرفة بعمل غروتفند، بدأ بدراسة النقوش المسمارية. شرع بنقشين قصيرين ثلاثيي اللغة عثر عليهما بالقرب من همدان

ثم عمل على النقش الشهير ثلاثي اللغة الذي حُفِرَ عام ٥١٦ ق م بأمر دارا الأول (٥٢١– ٤٨٥ ق م) على صخرة بهستون الكبيرة، على مسافة اثنين وعشرين ميلاً شرق كرمنشاه. حُفِرَ هذا النقش بارتفاع خمسمائة قدم عن مستوى الأرض على وجه صخرة ترتفع هي نفسها ألفاً وسبعمائة قدم عن مستوى السهل. وهذا النقش العملاق، الذي أُطلق عليه اسم «حجر رشيد بلاد الرافدين»، يقع بمقاس ١٥٠ قدماً في ١٠٠ قدم. وتكمن الصعوبة في كيفية نسخ النقش.

بدأ راولنسن العمل وحده. وقد كتب عام ١٨٥٢ قائلاً:

حينما كنت أعيش في كرمنشاه قبل خمس عشرة سنة، وكنت أكثر نشاطاً بطريقة ما مما أنا عليه في الوقت الحاضر، تعودت باستمرار أن أتسلق الصخرة ثلاث مرات أو أربعاً في اليوم دون معونة الحبال أو أي سلّم؛ وفي الحقيقة دون معونة أي شيء. وخلال زياراتي الأخيرة، صرت أجد من الأروح لي أن أرتقي ثم أنزل بمعونة الحبال إلى المسلك على مرتفع بارز، وألقي لوحاً من الخشب على تلك الشقوق حيث أية خطوة مغلوطة في القفز عبرها يمكن أن تفضي إلى الهاوية. وحين أصل إلى الفجوة في الجدار الذي يحتوي على النص الفارسي، تكون السلالم ضرورة لازمة... وحتى مع السلالم هناك مخاطرة كبيرة، لأن موضع القدم ضيق جداً، ثمانية عشر إنشاً تقريباً أو في الأكثر قدمان عرضاً...ولا يمكن نسخ النقش

الأعلى إلا وقوفاً على أعلى خطوة في السلم من دون معونة شيء سوى تثبيت الجسم على ظهر الصخرة بالذراع اليسرى، وفي حين تمسك اليد اليسرى بدفتر الملاحظات تنشغل اليد اليمنى بالقلم.

ويصف راولنسن باقتضاب: «في هذه الوضعية، نسخت جميع النقوش العليا، وانتهى الاهتمام بالعمل تقريباً من دون أي حس بالخطر».

هكذا تمكن راولنسن من نسخ النقش «الفارسي القديم»، لكنه واجه صعوبة كبرى مع النقش العيلامي، الذي سماه «الأسكيثي» خطأ؛ غير أن المصاعب الفعلية بدأت حين حاول أن يقوم بكتابة النسخة البابلية.

وأقتبس من كلمات راولنسن مرة أخرى:

يمكن استنساخ الكتابة بمعونة منظار جيد من الأسفل، لكنني أحن يائساً إلى الحصول على قالب للنقش؛ لذلك وجدت أن مما يتعدى قدراتي تماماً أن أتسلق بغية الوصول إلى النقطة التي نُقِشَ عليها، وأخبرني الرجال الماهرون في التسلق في المكان، الذين تعودوا أن يقتفوا آثار الماعز الجبلي على صفحة الجبل بأسرها، أن القطعة المنقوشة بالخرافة البابلية لا يمكن الوصول إليها أبداً. غير أن فتى كردياً بررياً، جاء من مكان بعيد، تطوع للقيام بالمحاولة...كانت حركة

الفتى الأولى أن يحشر نفسه في شق على الصخرة...مدَّ وتداً خشبياً بثبات على الشق، وشدَّ عليه حبلاً. وبقي عليه بعدئذ أن يعبر إلى الشق بالتعلق على أطراف قدميه وأصابعه نحو التفاوتات الضئيلة...وقد نجح في هذا، ليعبر فوق مسافة عشرين قدماً من صخرة ناعمة شديدة الانحدار بطريقة بدت للناظر أعجوبة خالصة...كان قد أخذ معه حبلاً مشدوداً بالوتد الأول، والآن وقد انساق في ثانية، تمكن من أن يتدلى تماماً فوق كتلة الصخرة البارزة. وهنا بسلم قصير، شكل مقعداً متدلياً، مثل مهد الرسام، وثبت نفسه على هذا المقعد، وأخذ في ضوء توجيهاتي القالب الورقي للترجمة البابلية لسجلات دارا التي تتوفر الآن في قاعات «الجمعية الآسيوية الملكية»، وتنطوي على قيمة مساوية تقريباً لتأويل النقوش الآشورية تماماً مثلما كانت الترجمة الإغريقية لحجر رشيد في الكشف عن النصوص الهيروغليفية في مصر[٤٥].

يمثل الفتى الكردي البري، «الذي جاء من مكان بعيد»، واحداً من أهم الشخصيات عندي في تاريخ علم الآثار. والآخر هو راولنسن نفسه. تفرغ للإقامة في بغداد مع نسخه وانكب على فك شفرتها. «وبغية أن يتمكن من الاستمرار في العمل في الجو الساخن، بنى له كوخاً صغيراً في قرار حديقة تطل على النهر، وكانت المياه تتدفق على كوخه باستمرار». كان شخصية عظيمة: يروي السير والس بج قصة عنه أنه حين

زار بغداد في التسعينيات [من القرن التاسع عشر]، قال أحد المسؤولين الأتراك هناك وهو يتحدث عن راولنسن ما يأتي:

عاش هنا اثني عشر عاماً، وكل سنة يكتسب مزيداً من القوة. وفي أواخر أيامه، صار يصطحب معه كلباً، ويضع على رأسه قبعته الإنجليزية، ثم يرسل الكلب إلى السراي، وجميع الناس في البازار يفسحون له المجال وينحنون له. ويقف الجنود ثابتين وهم يحيونه بأسلحتهم حين يمر[٤٦].

حصلت المغامرة مع الفتى الكردي عام ١٨٤٧. وقبلها بعشر سنوات، نجح راولنسن في ترجمة المقطعين الأولين من النقش المسماري في الفارسية القديمة. عام ١٨٤٦ نشرت «الجمعية الآسيوية الملكية» في جزئين كتابه «النقش المسماري الفارسي في بهستون»، وكان ينطوي على ترجمة كاملة للنص الفارسي القديم، وفي السنة نفسها نشر الدكتور إدوراد هنكس ترجمة مستقلة في «محاضر الأكاديمية الإيرلندية الملكية».

حين تيسر النقش البابلي، شرع راولنسن وهنكس وآخرون، بمن فيهم أوبيرت ودي سالسي وفوكس تالبوت، بالعمل على فك شفرته؛ وسرعان ما انفكت هذه الشفرة وتم الحصول على مفتاح للبابلية والآشورية. لكن الجميع لم يكتفِ بهذا. في عام ١٨٥٧، حين ترجم راولنسن للمتحف البريطاني نقشاً على ختم أسطواني لتغلت بليسر الأول، جرى بعض النقاش حوله، وتقرر قبل طبعه أن يُطلب من هنكس وفوكس تالبوت

وأوبيرت أن يترجموا النقش كلاً بمعزل عن الآخر – ولقد قاموا بذلك. أُرسلت ترجمة راولنسن والترجمات الثلاث الأخريات في ظروف مختومة إلى رئيس «الجمعية الآسيوية الملكية»، الذي أسند أمر فحصها إلى لجنة منتقاة. وأعلنت اللجنة أن الترجمات كانت متشابهة جداً بحيث لا يوجد أي شك في أنه تم فعلاً العثور على مفتاح حقيقي لفك شفرة الكتابة المسمارية.

في المحل الأول، كان هذا مفتاحاً للكتابة المسمارية لدى البابليين والآشوريين: وقد أعاد تاريخ بلاد الرافدين إلى ٢٠٠٠ ق م. لكنه أيضاً كان مفتاحاً لشيء آخر – ألا وهو السومريون، الذين لم يخطر وجودهم في بلاد شنعار على بال أحد. ربما باستثناء إدوارد هنكس الذي أشار، بنباهة كبرى، إلى أن البابليين الناطقين بالسامية ربما لم يكونوا من أوجد الشكل المسماري من الكتابة التي استخدموها هم أنفسهم. ورأى أن البابلية كانت كتابة مقطعية؛ واعتقد أن الخط المسماري مستعار من شعب أقدم من دون كتابة مقطعية. وكان محقاً في هذا، لكنه أثار السؤال: من كان هؤلاء الناس؟ وهل كانوا حقاً شعباً أقدم عاشوا في جنوب بلاد الرافدين؟[٤٧]

بدأت التنقيبات الجدية في بلاد الرافدين عام ١٨٤٣ حين شرع ب. إ. بوتا، القنصل الاستشاري الفرنسي في الموصل، بالحفر في تل كوينجق عبر دجلة من جهة الموصل. وحين كان ينقب هناك في أواخر عام ١٨٤٢ وبواكير عام ١٨٤٣،

عرف أنه تم العثور على صخور منحوتة في تل خرساباد، الذي يبعد أربعة عشر ميلاً إلى الشمال، وفي بداية آذار بدأ بالعمل هناك؛ وفي خلال أسبوع اكتشف بقايا قصر آشوري ضخم ببلاطات منحوتة كبرى ونقوش مسمارية؛ وفي الحال أرسل برقية إلى باريس: «اكتُشفت نينوى».

والحقيقة أن بوتا كان مخطئاً: فخرساباد ليست نينوى، بل هي دور – شروكين، مدينة واحد من أعظم الملوك الآشوريين، سرجون الثاني (٧٢١–٧٠٥ ق م)، وكان القصر الذي اكتشفه بوتا هو قصر سرجون الثاني: أما نينوى فكانت في الواقع في موقع كويسنجق الذي تخلى عنه. لكن هذا ليس بالأمر المهم؛ ما يهم أن المعاول بدأت تستخدم في فحص تلول بلاد الرافدين. وفي عام ١٨٤٥ بدأ لايارد العمل في نمرود، وفي خمسينيات القرن التاسع عشر حل بلاس محل بوتا، وحل محل لايارد مساعده السابق هرمز رسام.

لقد بدأ التنقيب في بلاد الرافدين، ولكن ينبغي الاعتراف أنه كان يجري على نحو سيئ، ولم يكن سوى تدافع للبحث عن اللقى الأثرية القديمة. وقد وصف لايارد نفسه هدفه في التنقيب في نمرود بأنه «الحصول على أكبر عدد ممكن من الأشياء الفنية المحفوظة جيداً في أقل ما يمكن من إنفاق المال والوقت»، وكان عمل رسام على حد تعبير سيتون لويد «مجرد شفط للغنائم الأثرية»[٤٨].

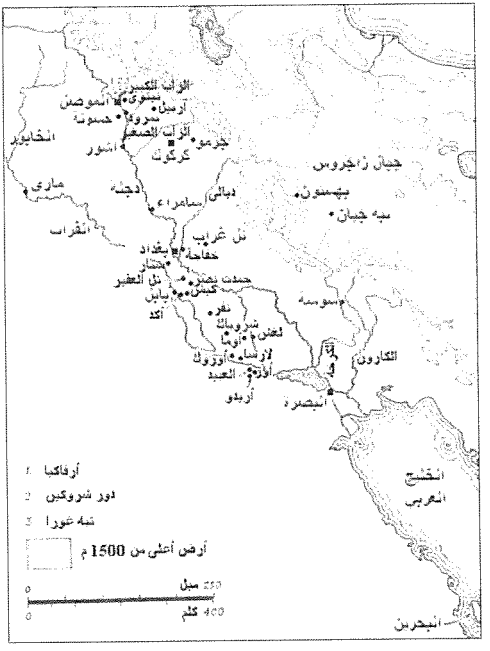

الشكل ٤: بيان مواقع منطقة دجلة والفرات

بدأت التنقيبات في جنوب بلاد الرافدين – موطن السومريين – في هذا الوقت أيضاً. فمع نهاية عام ١٨٤٩ ركب رجلان إنجليزيان، هما و. ك. لوفتس وهـ. أ. تشرتشل، ليخوضا الصحاري والأهوار في جنوب بلاد الرافدين من دجلة إلى الفرات، ورأيا التلول السومرية العظيمة، وشاهدا، ويا لهول المفاجأة، علامات الرخاء السابق والازدهار الواسع. ولأقتبس هنا بإيجاز ما كتبه لوفتس عن الوركاء:

كان مشهد الهجران والعزلة في الوركاء أكثر إثارة حتى

من مشهد الخراب الذي تقدمه بابل نفسها. فما من حياة على مسافة أميال حولها. ما من نهر يتدفق رغداً في قرار تلولها، ما من نخلة خضراء تتفتح بالقرب من أطلالها...لا تجد أسلة عشب أو حشرة مكاناً لها هنا. وحده الأشن الذاوي، الذي يتسلق إلى السطح المغبر للآجر المكسر، يبدو مزهواً في سيطرته الشاملة على هذه الجدران القاحلة. ومن بين جميع صور الخراب التي شاهدتها في حياتي، تتخطى صورة الوركاء جميعها على نحو لا يضاهى[٤٩].

زار لوفتس كثيراً من التلول في منطقة جنوب بلاد الرافدين، التي كانت كما يقول: «منذ طفولتنا ونحن مسوقون إلى اعتبارها مهد الجنس البشري» – وهي جملة مثيرة للفضول لا يفترض أن تكون حدساً استباقياً بالسومريين باعتبارهم أول من خلق الحضارة، بل إشارة إلى «جنة عدن». كتب يقول: «لا أعرف أكثر إثارة للانفعال من النظرة الأولى لأحد هذه الأكوام الكلدية الكبرى في بهاء عزلتها عما يجاورها من سهول وأهوار. وبالطبع تمرق آلاف الخواطر والأفكار حول تاريخها الزاخر الماضي وأصلها – صعودها التدريجي وسقوطها السريع– في ذهن من يراها». عام ١٨٥٠ بدأ لوفتس التنقيبات في الوركاء، حيث وجد جزءاً من سياج مزخرف بالفسيفساء الملونة للمخروطات الطينية، وبعض الألواح المسمارية. ثم حفر في مواقع أخرى مثل سنكرة، حيث وجد سقائف من الآجر

المفخور ومزيداً من الألواح الطينية ذات الكتابة المسمارية. لم يكن لوفتس منقباً علمياً، ومن كان كذلك في ذلك الحين- واعترف بصريح العبارة أنه عند تنقيبه في الوركاء كانت تدفعه «رغبة عارمة في العثور على قطع متحفية كبيرة مهمة»؛ ومهما يكن الأمر، فقد تمكن راولنسن من العمل على الألواح الطينية. وقد حدد هوية سنكرة بأنها مدينة لارسا القديمة (إيلارسر في التوراة)، والوركاء بأنها أرك التوراتية: وكوش التي أنجبت نمرود. «وكان ابتداء مملكته بابل، وأرك، وأكد، وكلنة في أرض شنعار» (التكوين ١٠: ١٠).

في عامي ١٨٥٤-٥٥، بدأ ج. إ. تايلر، نائب القنصل البريطاني في البصرة، التنقيب في تل المقير ومجموعة من الروابي إلى الجنوب منه في تل أبو شهرين. وتمكن راولنسن من تحديد هوية الموقع الأول على أنه أور - أي أور الكلدانيين، مسقط رأس إبراهيم- والثاني على أنه أريدو. وهكذا تم العثور على أرض شنعار وأربع من مدنها القديمة، هي أرك ولارسا وأور وأريدو، أيضاً. قلنا إن هنكس، بنباهة كبرى، ذهب إلى وجود شعب قبل البابليين استعار منه البابليون كتابتهم المسمارية. وفي عام ١٨٦٩ تجرأ أوبيرت على تحديد هوية هؤلاء الناس غير الساميين والسابقين على البابليين بأنهم السومريون. واللقى التي اكتشفها لوفتس وتايلر تعود إلى هؤلاء السومريين، لكن نظرية أوبيرت عن كون السومريين سبقوا

البابليين والآشوريين بالسكنى في العراق لم تقبل على نطاق واسع. والحقيقة أنه لم يكن يوجد شيء يبين أن المكتشفات في أور وأريدو وأماكن أخرى هي أقدم زمناً بكثير، هذا إذا كانت أقدم، من القصور التي كان يحفر فيها بوتا ولايارد بالقرب من الموصل. ولم تحظ المكتشفات في جنوب بلاد الرافدين في البداية باهتمام كبير: إذ لم تكن تضم منحوتات نصبية كبرى. وكانت الحاجة تلزم إلى اكتشاف حسي ذي طابع جمالي مثير قبل أن يهتم العالم أو يؤمن بالسومريين.

ولقد قام أرنست دي سارزاك، القنصل الفرنسي بالبصرة، بهذا الاكتشاف الحسي الجمالي. عام ١٨٧٤ أخبره بعض العرب أنه يمكن العثور على تماثيل حجرية في مكان يدعى «تلّو»، وفي عام ١٨٧٧ حفر بعض الخنادق التجريبية في هذا الركام وعثر على عدد من التماثيل المنحوتة من حجر الغرانيت وكثير من النقوش المسمارية. أخذها إلى باريس وباعها إلى اللوفر، وبعدها استمر في الحفر على نحو متقطع، لكنه صار تحت رعاية اللوفر، حتى عام ١٩٠٠. وتمكن من إثبات أن هذه كانت مدينة لغش السومرية؛ وشملت مكتشفاته كثيراً من المنحوتات القديمة من أواخر الألفية الثالثة ق م، بما فيها التماثيل الشخصية الشهيرة لغوديا، الحاكم السابع في لغش – وكان تاريخه في الفترة بين ٢١٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق م. ووفرت تماثيل غوديا المتعددة ونقوشه دون أدنى شك نماذج

بالغة الجمال على الفن والأدب السومريين، وخلقت مكتشفات دي سارزاك إحساسات مشابهة لما أوجدته مكتشفات بوتا في خرساباد ولايارد في نينوى. وقد وصف دليل متحف اللوفر عام ١٩٠١ لغش بأنها «بومباي الأزمنة البابلية الأولى»، وقال دي غونوياك: «هذه تلو التي كشفنا عن السومريين فيها». وهذا صحيح، لكنها لم يكشف عنها وحسب، بل عُثر عليها لتثير الفضول والاهتمام. أعني أن قيمتها لا تكمن في قدمها وحسب وكونها مذكورة في الكتاب المقدس – أي حيث بدا دائماً في القرن التاسع عشر أن «العلوم الدفينة» في الجيولوجيا والآثار تقدم العون في نقض الإيمان– بل إنها كُشِفَ عنها بوصفها قطعاً فنية لفنانين كبار يمارسون فناً جديداً، فناً يختلف عن الفنون القديمة التقليدية المألوفة كالتي عند الإغريق أو الرومان أو مصر.

بحلول عام ١٩٠٠، كان السومريون قد وصلوا، وفي السنة نفسها صارت لغتهم تُفهَم جيداً. في هذا القرن [العشرين]، رأينا الكشف المكثف والدقيق عن السومريين بفضل المعول ومهارة المترجم عن السومرية. وأنا أخص لحظتين كبيرتين في التنقيبات التي جرت في القرن العشرين للكشف عن هذا الشعب القديم. ففي عام ١٩٢٢ قامت بعثة مشتركة من المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا بإشراف السير ليورنارد وولي، كما صار يدعى فيما بعد، بالحفر في أور، وفي

عام ١٩٢٦ عثرت على المقبرة الكبيرة بأضرحتها الملكية. أحدث اكتشاف هذه القبور بكنوزها الجميلة من الذهب وحجر اللازورد والدليل البين على طقوس الدفن إحساساً مماثلاً لما أحدثته اكتشافات شليمان في «ميسينا» واكتشاف قبر «توت عنخ آمون». وإذا كان السومريون قد «اكتُشفوا» عام ١٩٠٠، فإن الناس الذين سمعوا بهم كانوا قلة. وفي عام ١٩٣٠، أضيفوا إلى المجموعة الصغيرة للشعوب القديمة التي يكاد يكون قد سمع عنها كل شخص شيئاً ما. ويعود هذا إلى حد ما إلى الطبيعة الجمالية للتنقيبات في أور، ولكن أيضاً إلى كتابة وولي الشعبية الواضحة والماهرة عما وجده هناك[٥٠].

وترتبط اللحظة الثانية بالتنقيبات التي أجرتها عامي ١٩٤٦- ٤٧ في أريدو «مديرية الآثار الحكومية العراقية» بإشراف السيد فؤاد سفر. كان موقع أريدو - تل أبو شهرين- كما قلنا، قد حفر تايلر فيه قبل تسعين سنة. صدت تايلر أكوام عميقة من الرمال، وأعاقه، كما أعاقت عواصف الغبار بعثتين بريطانيتين في هذا القرن، فقدان الأمن العام في البلاد والمصاعب الكبيرة في الاتصال. وقد تغلبت التنقيبات في أربعينيات هذا القرن على هذه المصاعب التي ظهرت في أريدو، أقدم مدينة سومرية، وربما أقدم مدينة في العالم. وقد أشرنا إلى الجملة في «سفر التكوين: ١٠»، التي ذكرت أرك - أي الوركاء- بوصفها واحدة من المدن القديمة في أرض شنعار.

وأسطورة «الخليقة البابلية» أكثر تحديداً: فهي تقول: «الأرض كلها كانت بحراً، ثم خلقت أريدو»، وفي الأدب السومري، كان الإله «أنكي» يسكن في أريدو، وكان «أنكي» إله المياه السفلى الذي يقيم في معبده على سواحل الأعماق، التي كانت منقسمة كشرط أولي للخليقة.

لقد كنت معنياً عن عمد في أن أقدم لك السومريين بالرجوع إلى الزمن الذي لم نكن نعرف فيه شيئاً عما كانت تعنيه «تلولهم» وكتابتهم المسمارية، حتى تستطيع أن تقدر كيف تحققت معرفتنا بحضارة الإنسان الأولى. وفي الفصل التالي سأوجز تفاصيل المكتشفات الأثرية ليتضح أننا مع المستوى الرابع في الوركاء نستطيع أن نقول إن الحضارة قد ولدت – أعني الحضارة الأولى في تاريخ الإنسان.

كشفت مستويات المباني الدنيا في أريدو – أي أريدو ١٨ إلى ١٥ (الترقيم من الأعلى إلى الأسفل) عن بعض البيوت والمعابد الصغيرة المبنية بآجر اللبن على شكل مستطيل. ويعود تاريخ هذا الطور، الذي هو أقدم استيطان معروف في جنوب بلاد الرافدين، إلى ما يقارب خمسة آلاف سنة ق م. كان الناس مزارعين وفلاحين مستقرين، وما زالت حضارة السومريين بعيدة في هذه المرحلة. والطور الثاني التالي في ما قبل تاريخ جنوب بلاد الرافدين يسمى موقع حاجي محمود؛ وربما بدأ زهاء ٤٧٥٠ ق م، وهو يحتل في أريدو خمسة مستويات

بناء. ولهذا الطور مواقعه في عموم جنوب بلاد الرافدين، وربما تمثل أفضل في سوسة ولورستان. وهو يتطور إلى الطور الثالث، التالي، الذي سمي باسم موقع «العبيد». ويكشف تاريخ بالكاربون ١٤ من الوركاء أن طور العبيد الأول كان مزدهراً تماماً في ٤٣٥٠ ق م. وقد تطور أناس مرحلة العبيد وانتشروا في بلاد الرافدين بأسرها.

والآن، فإن وجود شعب في جنوب بلاد الرافدين في هذا الطور من دون تقنيات ري كافية أمرٌ لا يمكن التفكير فيه مطلقاً. فقد تمت فلاحة السهل الغني والخصب حتى فاض سكانه، ولهذا انتقل شعب العبيد من الجنوب على طول دجلة والفرات بحثاً عن أرض جديدة.

قبل خمس وعشرين سنة كانت صورة شعب العبيد يطغى عليها كونهم شعباً بدائياً من سكان الأهوار يعيشون في صرائف أو أكواخ من القصب، ويصطادون الطيور والأسماك ويمارسون الزراعة المتفرقة شأنهم شأن «المعدان» أو عرب الأهوار في الوقت الحاضر. أما الآن فقد تغيرت الصورة، وتنقيبات أريدو لعامي ١٩٤٦-٤٧ هي السبب الرئيس في هذا التغيير. إذ كان شعب العبيد يستخدم النحاس والفؤوس المسبوكة؛ وكشف الذهب عن ظهوره مع نهاية هذه الحقبة، وكانت زراعتهم كافية، وانخرطوا في تجارة واسعة. وإذا لم نعطهم اسم حضارة، فقد كانوا في الأقل حضارة أولى، أي حضارة قيد التكوين، لأنهم

كانوا أصلاً يمتلكون مدناً؛ وهذا شيء واضح من أمرين: الأول، مقابرهم الكبيرة (التي شملت في أريدو ما يزيد على ألف قبر)، والثاني، المعابد النصبية التي ظهرت الآن للمرة الأولى – وهي مراكز الاحتفالات التي قلنا إنها من حيث التعريف واحد من شروط المجتمع المتحضر. وببنائها بطابوق اللبن وأحياناً على أسس حجرية، كانوا يشرفون على المدن من أعلى الروابي. في أريدو بنيت الرابية على أرصفة من آجر اللبن أعدت بتعبئة مباني سابقة، ويفضي سلم من العتبات إلى باب في الجانب الطويل من المبنى. وكانت الواجهة الخارجية مزينة بالطلعات والدخلات، وهي سمة تميز جميع المباني السومرية المقدسة اللاحقة. وفي أريدو نجد بداية أكثر السمات المميزة لحفريات بلاد الرافدين الأولى – أعني برج المعبد أو الزقورة. ها نحن إذاً نتطلع إلى برج بابل. وها نحن إذاً في بلدة أو مدينة صغيرة – إذ يعتقد الأستاذ ماكس مَلَوان أن أريدو، حتى قبل ٤٠٠٠ ق م، كانت مكاناً يضم آلافاً متعددة من النسمات[٥١].

في الترتيب الأثري الثابت لجنوب بلاد الرافدين جاء بعد طور العبيد طور أوروك الذي استمر من ٣٨٠٠ أو ٣٧٠٠ حتى ٣٢٠٠ ق م: وكانت ثقافة أوروك قد بلغت نضجها زهاء ٣٥٠٠ ق م. ويتكون موقع أوروك نفسه من ثمانية عشر مستوى لاحظتها التنقيبات في موضع رصد عميق عند تخوم المركز الاحتفالي – أي زقورة «إيانا». وقد جرى هذا الحفر

العميق، أو السبر، بعمق حوالي عشرين متراً، وقد ضم فيه الأنقاض المتراكمة من المستويات التي تبدأ مع شعب أزمنة العبيد. وقد قلت سابقاً إن الآثاريين أحياناً يرتبون المستويات من القمة إلى القاعدة، ولكن في أحيان أخرى من القاعدة أي المستوى الأول ثم يصعدون إلى القمة: فأول وأقدم مستوى في ذلك الموقع هو المستوى ١٨، ويقع التطور الكامل للموقع عند مستوى أوروك ٤. في هذا الزمن كان الفخار والنحت السومري في أرقى حالات تطوره، وبالتزامن مع المعابد العظيمة في أوروك ٤ نجد أقدم الأدلة الوفيرة على الكتابة. فلقد ولدت حضارة: هي الحضارة الأولى في تاريخ الإنسان- أعني الحضارة السومرية، وربما يعود تاريخها إلى ٣٢٠٠ ق م، قبل خمسة آلاف سنة.

الفصل الثالث

السومريون وأصل الحضارة

إذاً، بدأت الحضارة، قبل خمسة آلاف سنة، في جنوب بلاد وادي الرافدين. وقد قلنا في الفصل السابق إننا في طور أوروك الرابعة (أوروك ٤)، بحدود ٣٢٠٠ إلى ٣١٠٠ ق م، كنا من دون ريب نعنى بمجتمع كان متحضراً وفق تعريفات الحضارة التي نتبناها في هذا الكتاب. فقد كانت هناك مدن، وصنائعيون متخصصون، وأعمال ري تعاونية، ومراكز للاحتفالات، وكتابة، وأشياء أخرى كثيرة جعلت من مجتمع «أوروك» و«جمدت نصر» السابق على الكتابة مجتمعاً متحضراً في الاستعمال التاريخي والأثري ذي المعنى للكلمة. وهذه الحضارة، التي يُطلق عليها في المستويات والحقب الأثرية اسم أوروك الرابعة وجمدت نصر، هي الحضارة السومرية[٥٢].

تغطي حقبة فجر السلالات السومرية الجزء من الألفية الثالثة من عام ٢٨٠٠ إلى عام ٢٤٠٠ ق م، وتنتهي بالغزو الذي شنه على سومر ملك الشمال السامي، سرجون الأكدي الأول. ثم حصلت «نهضة» سومرية من عام ٢١٢٠ ق م حتى تم تدمير أور مع نهاية الألفية الثالثة ق م. وبالتأكيد لم تكن هذه نهاية الحضارة السومرية، لكنها كانت نهاية سومر كأمة حاكمة مستقلة. ولذلك فحين نتحدث عن حضارة الإنسان

الأولى، أي الحضارة السومرية، فنحن نعني ذلك المجتمع المتحضر، الذي طوَّر ثقافة بالغة التطور والتعقيد ازدهرت في جنوب بلاد الرافدين بدءاً من النصف الثاني من الألفية الرابعة ق م حتى نهاية الألفية الثالثة.

فلنتفحص الخواص الأساسية لهذا المجتمع المتحضر الأول. الأولى أن السومريين كانوا سكان مدن. وكانت مدنهم تحيط بها أسوار من الطابوق وخنادق وتسود فيها المعابد والزقورات المبنية على أرصفة عالية. وخارج الأسوار، كانت توجد الحدائق، والحقول، والسبخات، والقنوات، والملاجئ. كانت أسوار أوروك تتكون من ميلين مربعين، ويروى أن لغش كانت تتألف من ستة وثلاثين ألف ذكر، ربما ذكر بالغ، ولهذا فلعلها كانت مدينة أو بلدة تضم ما بين ثمانين إلى مائة ألف نسمة – وهو تقريباً حجم المدن الإنجليزية الحديثة في أوكسفورد أوكامبرج أو نورويتش. ويُقدَّر أنها في أعلى أطوار اتساعها كانت تضم نصف مليون نسمة عاشوا داخل الأميال المربعة الأربعة لأور، ولا بد أن كيش وأريدو ولغش ونفّر في لحظات ازدهارها كانت تضم نظائر هؤلاء من السكان.

كانت كل مدينة تمثل مركز دولة مدينة صغيرة: وتنتظم سومر على أساس خمس عشرة إلى عشرين دولة مدينة صغيرة تمتاز كلٌّ منها بالاستقلال سياسياً، لكنها تتواقف على بعضها اقتصادياً. وكانت كل مدينة تحاول بدورها أن تفرض سيطرتها

على الأخريات، أو على الاتحاد بأسره: واندلعت الحروب داخل دول المدن لكنها لم تكن شؤوناً كبرى وغالباً ما تدور حول قضايا إدارية مثل ملكية الأرض أو حقوق الري.

اعتمدت المدن السومرية أو الأحياء الكبرى على ازدهار الزراعة، وكان الشعير هو المحصول الرئيس، ولكن كان يُزرع أيضاً القمح والحنطة النشوية والدخن والسمسم، والنخيل بالطبع، «أقدامه في الماء ورأسه في الشمس المحرقة». كانت هناك فواكه وخضر، وقطعان وأغنام مدجنة. وينبغي أن يظل في البال أن السهل الذي تسقيه في الوقت الحاضر مياه دجلة والفرات هو أرض غنية بالزراعة، لكنه كان أغنى قبل أن تحدث الملوحة الكبيرة. وأمكن لسكان المنطقة برمتها أن يعيشوا على نتاج الأرض ويقايضوا الفائض بما كانوا يحتاجونه من الخارج. ومن الضروري أن نتذكر أيضاً أن هذه لم تكن زراعة كفاف؛ بل زراعة منظمة ذات نظام معقد من قنوات الري. وكان الري والتصريف ينطويان على جهود تعاونية معقدة تتطلب السيطرة والتنظيم ومجتمعاً يمتاز بالمركزية.

في اللغة السومرية، وكذلك في اللغة الأكدية، يبدو أنه لم يكن هناك تمييز بين الكلمات كالذي نستخدمه الآن في اللغة الإنجليزية بين الحجوم المختلفة للمستوطنات – المدينة، البلدة، القرية، الضيعة. يُطلق على كل هذه الأشياء كلمتا (أورو) [uru] و(أولو) [ulu] برغم أن القرى التي تتجمع حول مدينة

كانت تسمى (أورو برَّا)[أ]. وفي المستوطنات يتواجد صنائعيون متخصصون في ورشهم، وفي الأهراء والمخازن أيضاً. فكان هناك حدادون وزجاجون وصاغة وصانعو أختام. وتعطينا ما يسمى بـ«الأضرحة الملكية في أور» صورة عن الفن السومري والصناعات الحرفية فيما بين ٣٠٠٠ و ٢٨٠٠ ق م، وتكشف لنا أن السومريين في ذلك الوقت كانوا خبراء في التعدين، وصقل الأحجار، والصناعات الزجاجية، وأعمال الزركشة والنجارة.

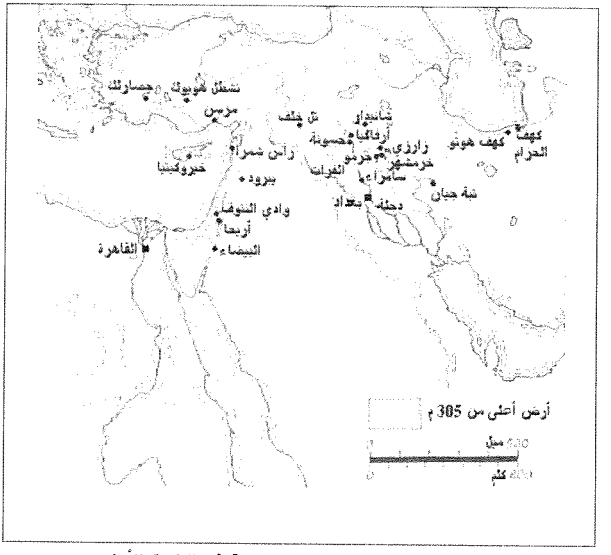

الشكل ٥: بيان المواقع الرئيسة في الشرق الأدنى

(أ) [يعني تعبير (أورو – برا): المدينة الخارجية، وما زال هذا التعبير مستخدماً في العراق، حيث تقسم بعض المدن إلى قسمين، كأن يقال (كرادة برا) و(كرادة جوا) – المترجم].

كان التعدين واحدة من الصنائع الأساسية لديهم. وقد عُثر على حربة نحاسية أصلية معمولة في منطقة «تشطل هويوك» في الأناضول من الألفية السابعة ق م[٥٣]. وفي حقبة العبيد في بلاد الرافدين، وبالتأكيد يعني هذا القول من ٤٤٠٠ ق م، كان المعدن معروفاً وقد صُنعت فؤوس مسبوكة من النحاس في الأقل في شمال البلاد، كما ظهرت الأشياء المصنوعة من الذهب للمرة الأولى. وفي الأقل منذ بدايات عهود السلالات السومرية كان الحدادون يعرفون كيف يسبكون النحاس والقصدير لإنتاج البرونز، ولعل أول اكتشاف لهذه السبيكة – وهو اكتشاف حظي بأهمية فائقة في أواخر عالم ما قبل التاريخ والعالم التاريخي الأول– يعود إلى الحدادين السومريين. وبالتأكيد كانوا يعرفون القالب المغلق ومنهج «القالب الشمعي» (cire-perdu) في السباكة، الذي ربما كانوا اخترعوه بأنفسهم. ويتوفر أقدم مثال مؤكد على استعمال «القالب الشمعي» في النموذج المتقن للعجلة أو العربة التي تجرها أربعة حمر من «تل غراب»: ويعود تاريخ هذا النموذج إلى عصر فجر السلالات الثاني، أي زهاء منتصف الألفية الثالثة ق م. ويبدو من المرجح أيضاً أن الخبرة التعدينية لدى السومريين هي التي أفضت إلى اختراع المغرز. فقد كانوا يستخدمون الذهب منذ أزمنة العبيد: كما استخدموا أيضاً الفضة والرصاص، ومنذ ٣٠٠٠ ق م فصاعداً صارت تظهر الأشياء المصنوعة من الحديد. ومن الواضح أن الحدادين السومريين كانوا يجرون بعض التجارب في التعدين.[٥٤]

لم يكن في بلاد الرافدين أي معدن أصلي: فكانت الأعمال المعدنية وكثير من الصنائع الأخرى تعني وجود علاقات تجارية واسعة. كان السومريون يحصلون على القصدير من شرق إيران، ومن آسيا الصغرى وسوريا، وربما، وإن كنا غير متأكدين من ذلك تماماً، من أوروبا أيضاً. وكانوا يحصلون على الذهب من عيلام، وكبادوقيا ومنطقة أنطاكيا، في حين كانت تأتي الفضة والرصاص من جبال طوروس ومن الخليج العربي، وربما من القوقاز أيضاً. كما كانت عمان مصدراً للحجر من أجل المطاحن اليدوية ومزالج الأبواب والتماثيل. وكان حجر اللازورد يأتي من فارس وأفغانستان، واللؤلؤ من الخليج العربي، وأصداف الزينة من الهند، وخشب الأرز والصنوبر من جبال لبنان في الشام، وجبال زاجروس في إيران. وهكذا كانت العلاقات التجارية للسومريين واسعة جداً تمتد من آسيا الصغرى إلى الهند، ونحن نعرف بعض الشيء عن الكيفية التي كانت تدار بها هذه التجارة. زهاء عام ٢٥٠٠ ق م، وُجدت مستعمرة، أو إذا شئت استعمال الكلمة وُجد مصنع، للسومريين في كانيش في آسيا الصغرى، وهذه القاعدة التجارية والاستعمارية لشعب جنوب بلاد الرافدين كانت تخطط لتصدير النحاس والفضة والقصدير من المناجم في الأناضول. وسنرى في الفصل القادم أنه كانت هناك بالتأكيد صلات تجارية بمدن السند إلى الشرق، وبمصر إلى الغرب.

تمثل العجلة الشيء الآخر في قائمة الإسهامات السومرية في العالم المتحضر. فقد اخترع السومريون العجلة. في البداية كانت عجلة الخزاف: إذ كانوا يصنعون فخاريات جميلة على العجلة ثم يفخرونها في أفران معقدة، وكانوا على دراية بفن التزجيج، ويجب أن نذكر هنا أن الزجاجيات الأولى كانت سومرية. قبل ٣٠٠٠ ق م استخدموا العجلة كوسيلة دوارة لجعل العربات أكثر طواعية في الحركة: إذ كانت لديهم مركبات ثقيلة رباعية العجلات وعربات خفيفة ثنائية العجلات ربما كانت تستخدم كمركبات في المعارك؛ وكلها كانت مركبات ثابتة العجلات(٥٥).

كان في المدن السومرية مراكز لإقامة الاحتفالات تحظى بالأهمية الكبيرة. مع نهاية حقبة أوروك في أرك، كان «التل» – وهو ركام يقوم على مستوطنات سبقته– بارتفاع ٦٠ قدماً ينتصب معبد كبير مكرس للإلهة «إينانا». يقوم هذا المعبد على مساحة ٢٤٥ قدماً طولاً في ١٠٠ قدم عرضاً، وخلفه تنتصب زقورة بارتفاع ٣٥ قدماً فيها سلم من العتبات يفضي إلى القمة، حيث كان يقوم رصيف مغطى بالأسفلت كان يقف فيه معبد صغير مساحته ٧٣ قدماً طولاً في ٥٧ قدماً وستة إنشات عرضاً. وكما عبر عنه غوردن كايلد تعبيراً مفعماً بالعنفوان: «لم يعد المرء يقف في قرية خضراء، بل في كنف مدينة حضرية مشيدة».

هذه المراكز الاحتفالية والأماكن الأخرى كان يزينها معمار جميل. في أزمنة السلالات، استعمل السومريون الطابوق المستوي المحدب (Plano-convex) أو الآجر المتراكب. وكان النحاتون السومريون هم الذين ابتكروا عمود الطابوق؛ فأعمدتهم هي أقدم الأعمدة المعروفة في العالم، وهي مستوحاة مباشرة من جذع النخلة.

كانت مراكز دويلات المدن السومرية هذه هي المناطق الاحتفالية، التي هي «معاقل» لمعابد الآلهة. يبدو أن لكل مدينة إلهها الحامي، وكان بين مجمع الآلهة السومري جماعة من الإلهات، ربما تمثل كلها مظاهر مختلفة لإلهة الأرض – الأم، التي هي واحدة من أول الإلهات وأقدمها في التاريخ الإنساني. وفي الزقورة، أي البرج المدرج أو الجبل الاصطناعي، كان السومريون يقيمون كل سنة أكثر طقوسهم قداسة: ففي مهرجان السنة الجديدة يزف كاهن شاب وكاهنة شابة إلى الزقورة حيث يمارسان بحضور كاهن أعلى مشرف نوعاً من الاتحاد الرمزي كان وفق الديانة السومرية يضمن نجاح المحاصيل الموسمية الجديدة. وما إن ينتهي هذا الزفاف، حتى يُقتَلا ويُدفنا.

وبالتزامن مع المعابد الكبرى لحقبة أوروك الرابعة، نجد أقدم الأدلة على الكتابة. كانت الكتابة تُنقش على الألواح الطينية. وهناك ما يربو على ٥٠٠ إلى ٦٠٠ لوح طيني أو

كِسَرٌ من مثل هذه الكتابات من حقبة أوروك الرابعة والثالثة والثانية، وهذه أكبر وأقدم مجموعة كتابية مصنفة معروفة لنا. في البداية، تتوافر علامات على أشياء، حية وغير حية، نفترض أنها كانت مهمة في حياة السومريين – أغنام، أبقار، أطعمة، معابد، دلاء الحليب، الأدوات الزراعية. وتتكون في الأساس من علامات تصويرية، لكن هناك استثناءات، وفي بعض الحالات ما زالت دلالة العلامات غير معروفة. كانت الكتابة السومرية، أو الكتابة المسمارية أي التي على شكل مسامير، تدون باستعمال قصبة. وحقق البابليون تطويراً لها إلى كتابة مقطعية، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن أستاذاً داهية مثل أوبيرت كان متأكداً أن الكتابة البابلية لم يكن من ابتكرها شعباً يتكلم لغة سامية، بل هو استعارها من ناطقين بلغة غير سامية أقدم، وهؤلاء هم السومريون.

ولا تتعلق أقدم الوثائق المكتوبة عند السومريين بالأدب: فهي ليست قصص حكماء، ولا أساطير خليقة. بل هي وثائق إدارية أو تجارية مثل قوائم تسليم الخبز والجعة لمختلف الناس، وقوائم أنصبة، وقوائم بالمواد المسلَّمة للمعبد وشؤون حكومية أخرى. فالوثائق المكتوبة الأولى من زهاء ٣٥٠٠ ق م هي مذكرات أو إيصالات عن الماشية والحليب والذرة والأغنام.

أنجز السومريون كثيراً من الابتكارات المتنوعة مما لا

يتسع المجال هنا لتعداده، لكن هناك مجالاً واحداً لعبقريتهم الابتكارية لابدَّ من الإتيان على ذكره بإيجاز، ألا وهو الرياضيات. فقد كان لديهم نظام في التقاويم ونظام اشتهر بتميزه في الرياضيات، وقاموا بكثير من ملاحظات الرصد الفلكية الدقيقة. وما تدين به الحضارة الغربية للسومريين واسع، وينبغي ألا نحذف من قائمتنا التعداد الموقعي والنظام الستيني الذي ما زلنا حتى اليوم نقسم وفقه الساعات والدورات. والمثير حقاً أن هناك عدداً من الكلمات السومرية ما زلنا نستخدمها في اللغة الإنجليزية مثل: (cane) [قناة]، (alcohol) [الكحول]، (dragoman) [الترجمان]، (gypsum) [الجص]، (myrrh) [المر]، (saffron) [الزعفران]، (naphtha) [النفط][ب].

كل هذه الأمور وأخرى غيرها تضيف بالتأكيد إلى حضارة، هي فضلاً عن ذلك، كانت الحضارة الأولى. فقد بدأت أشياء كثيرة جداً في مدن جنوب بلاد الرافدين، حتى لم يعد من المدهش أن نجد كريمر يقول إن السومريين كانوا «الأوائل» في أشياء لا حصر لها تقريباً. وبالتأكيد فإن المساهمة الحيوية التي قام بها السومريون في تطوير الحياة المتحضرة لا بد أن تُعدَّ واحداً من أعظم الإنجازات المبكرة التي قام بها الإنسان.

(ب) [تنبغي الإشارة إلى أن أغلب الكلمات المذكورة سامية، وليست سومرية، ويرى كثير من الباحثين الآن أن اللغة الأكدية أثّرت بدورها في السومرية منذ أقدم عصورها، ولا شك أن كلمة (الكحول) التي ينقلها المؤلف هنا هي كلمة عربية، بدلالة (ال) التعريف فيها – المترجم].

ولدينا بعض المعرفة بالكيفية التي كان يظهر بها السومريون وحياتهم الاعتيادية. كانوا قصار القامة ذوي أنوف معقوفة كبيرة[ج]. وهم يصورون أنفسهم في تماثيلهم باعتبارهم أناساً مدوري الرؤوس، ذوي رؤوس سوداء كبيرة، ولحى طويلة، ولكن من دون شوارب. كانوا يلبسون جلود الأغنام أو أكسية الصوف المنسوج، ويرتدون التنانير ذوات الحواشي. وفي مآدبهم كانوا يجلسون على شكل مجاميع ويشربون نوعاً من الجعة: كانت توضع جرة من هذه الجعة على الأرض فيشربون منها من خلال أنابيب معدنية طويلة. وكانوا يعزفون الموسيقى على قيثارات من مختلف الأنواع والأشكال. ومن باب التسلية، كانوا يتصارعون، ويتلاكمون، ويصطادون، ويتسابقون في عربات خفيفة ثنائية العجلات تُشد إليها أربعة حمر أو حمر وحشية.

من كان هؤلاء السومريون ومن أين جاءوا؟ لم يكن بالأمر غير الطبيعي أن يظهر قدر كبير جداً من النقاش حول هذه المشكلة، وبالطبع لا تتعلق المشكلة بالمكان الذي جاء منه السومريون وحسب، بل أيضاً بمشكلة من أجل ماذا جاء الشعب الذي خلق حضارة الإنسان الأولى. وقد استشهدت في بداية الفصل السابق بالكلمات الواردة في «سفر التكوين»: «وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار، وسكنوا هناك» (١١: ٢). ووصف بيروسس، الذي كتب

(ج) [ربما كانت الصور الفنية عند السومريين تشير إلى تقليد فني أكثر مما تشير إلى الحقيقة الفعلية لهم – المترجم].

كتابه في القرنين الرابع والثالث ق م، نسل عمالقة، أنصاف بشر وأنصاف أسماك، خرجوا، يقودهم «وانيس»، من الخليج العربي، واستوطنوا في مدن سومر الساحلية، وقدموا فنون الكتابة والزراعة وأشغال المعادن. «كل الأشياء التي صُنعت من أجل تحسين الحياة أورثها وانيس للبشر، ومنذ ذلك الحين لم يجر ابتكار آخر بعد».

لا بد لنا مباشرة أن نتذكر ثلاثة أشياء عند نقاش هذه المشكلة عن الأصول السومرية: الأول، أن طرز المباني الأولى لدى السومريين كانت تقوم على تقليد بالعمل في الأخشاب؛ ثانياً، أن الآلهة السومرية كانت دائماً تصوَّر وكأنها تقف على جبال – والزقورة هي جبل اصطناعي. ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا في الدرجة الثالثة أن علم الآثار يستطيع الآن أن يخبرنا أن أقدم المستوطنات في جنوب بلاد الرافدين ربما لا تعود إلى أبعد من الألفية الخامسة ق م في الأغلب وأن الزراعيين الأوائل والحياة القروية الأولى هي أقدم من ذلك في مناطق خارج بلاد النهرين التوأمين، على سبيل المثال: في شمال بلاد الرافدين، وفي إيران والأردن وتركيا. واستوطنت جماعات من هؤلاء الزراعيين السابقين والأسبق منهم في سهل فيضان دجلة والفرات، وإذا استخدمنا عبارة روبرت برايدوود المثيرة، فقد «شقوا طريقهم بأصابعهم» على طول أسفل النهرين حتى الخليج العربي. وأعتقد أنه ليس بوسع أحد

الآن أن يتحدى الصيغة العامة التالية، وهي أن شعب حقبة العبيد جاءوا إلى جنوب بلاد الرافدين من الخارج، وإن كان الباحثون يختلفون حول المنطقة التي جاء منها هذا الشعب، وربما يريدون الاستمرار في النقاش حول تأثيرات خارجية جديدة بين القرى الأولى وحقبة العبيد الرابعة. ومن الطبيعي أن من غير الممكن أن نكون متزمتين وثوقيين في هذه القضية فنقول إن الشعب الذي عاش في جنوب بلاد الرافدين قبل ٣٥٠٠ ق م كان بالتحديد هم السومريون. فنحن لا نستطيع أن نسمي شعباً باسم تاريخي دون أن يرد ذلك الاسم في نص مكتوب. ولكن دعوني أعبر عن هذا بطريقة أخرى: فالسومريون هم الشعب الذي عاش في جنوب بلاد الرافدين ربما منذ ٥٠٠٠ ق م فصاعداً. وحين سطع عليهم نور التاريخ، أي نور التاريخ المكتوب كما توفره السجلات المكتوبة بالكتابة المسمارية التي اخترعوها هم أنفسهم، كانوا يسمون أنفسهم بـ«السومريين».

ولنعد مرة أخرى إلى «سفر التكوين»، وهذه المرة إلى قصة الخليقة المروية في (التكوين: ١):

«في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية؛ وعلى وجه الغمر ظلمة. وروح الله يرفُّ على وجه المياه. وقال الله: ليكن نور: فكان نور...وقال الله ليكن جَلَدٌ في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد

وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد: وكان كذلك... وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة: وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً؛ ومجتمع المياه دعاه بحاراً... وقال الله: لتنبتِ الأرض عشباً، وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر كجنسه....»

نحن معنيون هنا بشؤون هذا اليوم الثالث – المتفق على أنه يوم نظري تجريدي، أي مرحلة في رقي الإنسان والعالم، إذا شئت التعبير عنه بهذه الطريقة. بالطبع، بقي اللاهوتيون وغيرهم، لقرون مديدة، يعتقدون أن هذه كانت رواية صحيحة عن أصول ما قبل التاريخ وأن لها مرجعيتها الغيبية. ولا أعتقد أن أحداً في الوقت الحاضر باستثناء الأصوليين المتطرفين ما زال يتمسك بهذه النظرة التي يتعذر الدفاع عنها. فبدءاً من عام ١٨٧٦ فصاعداً صارت تُنشر الروايات البابلية عن الخليقة، وقد كشفت عن أصل نبذة «التكوين». وتُعرف أطول هذه الروايات باسم «إنوما إيليش» اشتقاقاً من أول كلمتين فيها تعنيان «حينما في الأعالي»، وقد كُتبت في الجزء الأول من الألفية الثانية ق م. وقد وصلتنا شبه كاملة تقريباً على سبعة ألواح مسمارية(د). وهناك رواية أخرى مكتوبة باللغتين البابلية والسومرية على لوح اكتشف في سبّار يعود تاريخه إلى القرن السادس ق م. أقتبس هنا بعض الجمل منها:

(د) [انظر: ألكسندر هايدل: سفر التكوين البابلي: ملحمة الخليقة البابلية، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا، ٢٠٠٧]

كانت الأرض كلها بحراً
وكانت هناك حركة بين البحر؛
حين خُلقت «أريدو»...
وضع «مردوك» قصبة على وجه المياه،
كوّن التراب وصبّه إلى جانب القصبة
حتى يجعل الآلهة يسكنون في المسكن الذي تشتهيه رغبات قلوبهم
كوّن البشر
ومعه الإلهة «أرورو» خلقت بذرة البشر.
كوّن وحوش الحقل والأشياء الحية في الحقل
خلق دجلة والفرات وأقامهما في مكانهما:
أعلن عن اسميهما بطريقة إلهية
خلق العشب، وفورة الهور، والقصبة والغابة،
الأرض والأهوار والمستنقعات؛
البقرة الوحشية وصغيرها، وخروف الحظيرة،
البساتين والغابات؛
المعزى ومعزى الجبل...
بنى المولى «مردوك» سداً إلى جانب البحر...
كوّن القصب، وخلق الأشجار؛
وضع الآجر، وأقام المباني؛
بنى البيوت، وأسس المدن...
بنى «أوروك»....

هناك تعليق واحد أودُّ أن أضيفه هنا إلى ملحمة الخليقة الرافدانية الرائعة هذه التي تشكل المصدر الذي استقت منه أسطورة الخليقة في «سفر التكوين»، وهي ملاحظة أبداها غوردن كايلد. فلقد قال كايلد إن من أخرج اليابسة من المياه، وأقام دجلة والفرات في مكانيهما، وخلق الحقول والبساتين والغابات لم يكن كائناً إلهياً: بل هؤلاء هم السومريون الأوائل الذين اجتهدوا وكدحوا بمشقة.

إذاً، لا بد لنا أن نضع اسم السومريين الأوائل بدل اسم «يهوه» أو «مردوك»؛ ونحن نعرف ما قاموا به ومتى قاموا به، فتحديداً في جنوب بلاد الرافدين خلقوا للمرة الأولى في التاريخ الإنساني حضارة لم يوجد قبلها سوى قرى متناثرة. خلقوا مجتمعاً حضرياً يعرف الكتابة؛ خلقوا الحضارة الأولى. نعرف الأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بماذا ومتى وأين؛ لكننا نريد أن نعرف أيضاً كيف ولماذا خُلقت الحضارة في بلاد الرافدين.

لن يتعجب أحد إذا قيل له إن عدداً كبيراً من النظريات قد وضعت لتفسير كيفية الحضارة السومرية وسببها. وقد يمكن تسمية المجموعة الأولى من النظريات بالتفسيرات الجغرافية، وقد ندرج بينها ما يسمى بنظرية القرابة عند «بروكس». ترى هذه النظرية أن كل شيء كان يطغى عليه الحب في الجنة – وإذا شئنا أن نعبر تعبيراً مباشراً وعرضياً، فأعتقد أن بروكس

قصد من الجنة «جنة عدن»- بحيث كان من المحتوم على كل شيء أن يقع. وهنا في بلاد الرافدين كانت تتوفر الحنطة البرية والشعير البري، والأغنام والماشية البرية، ودلتا النهرين الخصبة؛ وحين توفرت كل هذه الأشياء معاً، كان من المحتوم أن تنهض الحضارة. لكن بروكس كان يطوي آلاف السنين من التاريخ الإنساني: كان يطوي أصول الزراعة في الشرق الأدنى ككل وأصول الحضارة في سومر. وقام عدد من الباحثين بالطي نفسه، كما فعل أرنولد توينبي، الذي أراد أن يقدم تفسيراً بسيطاً مشابهاً يفسر فيه أصول الحضارة المصرية والرافدانية، فصوَّرهما باعتبارهما نهاية «للعصر الجليدي».

غالباً ما كانت توصف النبذة المبسطة عن الأصول الجغرافية للحضارة في الشرق الأدنى القديم على النحو التالي: حين تراجعت ألواح الجليد عبر أوروبا وانتقل حزام المطر الذي كان فوق إقليم الصحاري إلى الشمال، اضطر الصيادون وجمّاعو الأغذية الذين كانوا سعداء في العيش في مروج الصحاري إلى الهجرة جنوباً إلى أفريقيا، وشمالاً متابعين تراجع الجليد إلى أوروبا؛ أو الاستقرار في وديان الأنهار في النيل ودجلة والفرات، ليتحولوا إلى مزارعين، وأن يزدهروا، حين شجعتهم خصوبة هذه الوديان النهرية، فيقيموا أساس الحضارة. حين يجري التعبير عن هذه القصة بهذه الطريقة الساذجة تبدو غير محتملة ومفرطة في التبسيط إلى حد كبير؛ وعلى أية حال، فإن

الزراعة الابتدائية وبدايات الحياة القروية، كما نعرفها الآن، لم تحدث في وديان الأنهار في مصر وبلاد الرافدين.

لكننا، حتى في هذه الحالة، سنوافق على أن وديان الأنهار والفيضانات كان لها علاقة بتطور الثقافة البربرية العليا إلى ما نسميه بالحضارة. وليس من المصادفة أبداً أن تقوم الحضارات القديمة الأربع في العالم القديم على دجلة والفرات، والنيل، والسند، والنهر الأصفر. غير أن قول هذا لا يعني التلميح إلى أي شكل من أشكال الحتمية الجغرافية، بل يعني أن البيئة الجغرافية لوديان هذه الأنهار والسهول الغرينية كانت تشكل عاملاً مهماً في تكوين الحضارات: فقد وفرّت إمكانات: وبترديد مقولة هيرودوت الشهيرة عن كون «مصر هي هبة النيل»، يعلن جورج رو أنه «في كثير من النواحي يمكن القول أيضاً عن بلاد الرافدين إنها هبة النهرين التوأمين»[٥٦].

والباحث الذي انشغل وكتب أكثر من سواه في اللغة الإنجليزية عن المشكلة المتعلقة بأصول الحضارة وعلم الآثار هو فير غوردن كايلد، وبالتأكيد كان واحداً من أكثر الأعلام أهمية وتأسيساً في التطور التاريخي للتفكير بالوقائع الأثرية والضوء الذي تسلطه على بدايات المجتمعات المتحضرة. ففي عام ١٩٣٦ كتب كايلد كتاباً صغيراً بعنوان: «الإنسان يصنع ذاته»، ثم أتبعه بعد ست سنوات بكتاب «ما حدث في التاريخ»، وهو عنوان يثير عن عمد أمام المؤرخ الاعتيادي منظوراً مقيداً

بالماضي لأنه ينتهي ببيزنطة – والحقيقة أن الفصل الأخير فيه بعنوان «انحلال العالم القديم وسقوطه».

رأى كايلد أن هناك ثلاث ثورات كبرى في التاريخ الإنساني، وهو يسمي أولى الثورتين بالثورتين الحجرية الجديدة والحضرية، في حين أن الثالثة هي الثورة الصناعية. وفي كثير من النواحي ما زال ما اقترحه في الثلاثينيات وبواكير الأربعينيات من هذا القرن [العشرين] صحيحاً، لكننا نريد الآن تعديله بطرق كثيرة، ويعود ذلك إلى حد كبير إلى ازدياد معرفتنا الأثرية منذ وفاته: ولقد مر ربع قرن منذ كتب كايلد «ما حدث في التاريخ». وأول تعديل هو أن هذه العمليات لم تكن ثورية: إذ توحي الثورة بشيء حدث بسرعة ولتحقيق غرض معين. والحال أن التغيرات من جني الأطعمة إلى إنتاج الأطعمة، ومن الحياة القروية المكتفية ذاتياً إلى المدن التي تعرف الكتابة، كانت تغيرات تطورية وليست ثورية: فقد استغرقت مدداً طويلة من الزمن ولم تكن تنطوي على غرض بقدر ما انطوت على الاستعمال العملي للاكتشافات والاختراعات التي حصلت بالمصادفة. وبالطبع فإن قول هذا لا يعني بأية حال التقليل من أهمية هذه التغيرات. ثانياً، لا أحب استعمال كلمتي «الحجري الجديد» و«الحضري» لوصف هذه التغيرات الكبرى. وقد ابتكر مصطلح «العصر الحجري الجديد» السير جون لوبوك لما تصوره، قبل مائة سنة، النصف

الثاني من العصر الحجري، وبقي يوصف في كتب المناهج الأثرية في الربع الأول من هذا القرن [العشرين] بأنه مرحلة من الثقافة الإنسانية تتميز بالفؤوس الحجرية الصقيلة، والفخاريات، والحيوانات المدجنة، وزراعة الحنطة – وتلك هي رباعية العصر الحجري[٥٧]. ونحن نعرف الآن أكثر بكثير عن الحقبة الممتدة من ١٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ق م في الشرق الأدنى، ومن ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق م في أمريكا، وقد عثرنا على مجتمعات ارتقت من جماعات جني الأطعمة وصيادي الأسماك إلى تكوين مجتمعات، دون المرور بواحد أو اثنين أو ثلاثة من هذه الملامح التشخيصية الأربعة. وبناءً على ذلك، كانت النتيجة خلق عبارات غريبة وغير ضرورية مثل «العصر الحجري الجديد ما قبل الفخاري» و«العصر الحجري الجديد بلا خزفيات». والحقيقة أن كلمة العصر الحجري الجديد لم يعد بالإمكان تحديدها بطريقة محسوسة وذات معنى.

تكمن الصعوبة مع كلمة «حضري»، بالإحالة إلى ما أشار إليه كايلد عن «الصورة الحضرية»، في أن الكلمة عند أكثر الناس محملة بأفكار عن بناء المدن وناطحات السحاب والمصانع والقطارات تحت الأرض والحافلات ذات الطابقين والرحلات والأعمال الكبرى. وأنا أفضِّل استخدام الصيغة الإنجليزية من الكلمة الإغريقية (synoecismus) التي استخدمها ثيوسيديد وقصد بها اتحاد مدن وقرى متعددة في

ظل عاصمة واحدة. وقد تحدث غاردنر عام ١٩٠٢ عن الزمن «حين تشكلت البلدة لأول مرة عن طريق اتحاد (synoecism) القرى المتجاورة»[٥٨].

ويكمن اعتراضي الثالث على أطروحة كايلد العامة في نموذج ما قبل التاريخ الذي كان يغذي فكره وكتابته. وفي حين يتحاشى هذا النموذج النزعة الانتشارية المفرطة المبالغ فيها عند المتمركزين حول مصر مثل إليوت سمث وبيري، والمتمركزين حول سومر مثل راغلان، فإنه لا ينطوي أبداً كأساس داعم له على فكرة أن هناك ثورة حجرية جديدة واحدة فقط، وثورة حضرية واحدة فقط، وأن كلتيهما حدثت في الشرق الأدنى الأقدم. وسنعود إلى مناقشة أخرى لهذه القضايا في الفصل الأخير.

وبالإضافة إلى أطروحته العامة، أعطى كايلد أسبابه الخاصة حول العلة التي تحققت بها حضارة سومر في الوجود، ونحن نستطيع أن نتأمل بمعزل عن أية فكرة عامة في عدد المرات التي حدث فيها التحضر أو عملية «الاتحاد» في التاريخ الإنساني. لم يقترح كايلد حتمية جغرافية، بل حتمية مادية. وكان واثقاً تماماً أن أصل الحضارة السومرية يعود إلى سلسلة من الاكتشافات التقنية. كتب يقول: «التعدين، والعجلة، والعربة التي تجرها الثيران، واستخدام الحمير في النقل، والسفينة الشراعية قدمت كلها الأسس لتنظيم جديد. ومن دونه

تظل المواد الجديدة مجرد كماليات، وتظل الصنائع الجديدة بلا وظيفة، وتظل الوسائل الجديدة مجرد وسائل راحة». مع ذلك لم يكن واثقاً حول السماح لعملية مولد الحضارة الأولى برمتها لأن تفسَّر عن طريق مسرد للابتكارات والاكتشافات التقنية، وبقي مقتنعاً أن «وديان الغرين للأنهار الكبرى قدمت بيئة تتطلب عناية فائقة».

يبدو لي أن سهل الغرين في دجلة والفرات قدم بيئة محفزة كما قدم بيئة تتطلب عناية. وقد أقامت جماعات الناس الذين شقوا طريقهم بأصابعهم جنوباً من الأراضي العليا حيث تطورت الزراعة الابتدائية والقرى الأولى التي تحققت في الوجود في بيئة صغرى غنية بالغة الغنى كانت عرضة للفيضانات وتحتاج إلى الري بوساطة القنوات، والأعمال التعاونية. ونتيجة هذه الخصوبة وهذا التعاون ازدهرت القرى ونمت، فحدثت معجزة الحضارة الأولى: أي حصل الاتحاد السومري في مدن. لكن لم تكن البيئة هي التي أحدثت الحضارة الأولى في تاريخ الإنسانية، بل هم السومريون أنفسهم. في عام ١٩٣٢، أصدر لوسيان فيفر كتابه «مقدمة جغرافية إلى التاريخ»، وهو ينتقد في ذلك الكتاب المهم بظرافة وفكاهة جيدة إسراف الحتميين الجغرافيين. وقد رأى أن البيئة المادية توفر الإمكانات، وفي ضوء هذه الإمكانية يجب أن نتصور انبثاق الحضارة السومرية. فقد استوطن السومريون،

أو إذا شئت السومريون الأوائل، في البيئة التي وفرها سهل دلتا دجلة والفرات واستفادوا من إمكانات البيئة في النمو والازدهار. ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا بالتفكير بأن كل ما على المرء أن يفعله هو أن يقدم الإمكانات وسرعان ما تُقبَل تلقائياً وتُستعمل. وسنرى حين نتقدم في نقاشنا أنه توفرت إمكانات في مناطق كثيرة وجدت في العالم لكنها لم تنتج حضارات في الواقع.

لا بد من رؤية عبقرية الشعب على خلفية الإمكانات التي تتوفر في البيئة الجغرافية. وكما قال كايلد، فلم يكن إلهٌ ما بل السومريون الذين عملوا بمشقة هم الذين خلقوا أراضي ما بين النهرين. فعبقرية السومريين هي التي اخترعت العجلة، والزجاج، والبرونز، والكتابة، والتقويم، والمدينة. وربما كان هناك شيء خاص في تكوينهم، لكني لا أجد أفضل من أن أُنهيَ هذا الفصل بجملة من كريمر: «إن العامل النفسي المسؤول إلى حد ليس بقليل عن كل من الإنجازات المادية والثقافية لدى السومريين كان دافعاً يتخلل كل شيء ويتأصل في الأعماق من أجل البروز والتميز والنصر والنجاح».

الفصل الرابع

مصر ووادي السند

لقد كان موضوع الفصلين السابقين هم السومريون، أول شعب متحضر في قصة تطور المجتمع الإنساني. والآن ننتقل إلى المصريين والشعب الذي خلق حضارة السند. وقد يبدو من الغريب أن نجمع معاً في فصل واحد هاتين الحضارتين المبكرتين والمهمتين، لكن هذا الكتاب لا يرمي إلى تقديم وصف وتحليل لتطور حضارات الإنسان الأولى. يقتصر هدفنا على الضوء الذي يسلطه علم الآثار على ظواهر أصول حضارات الإنسان الأولى. وإنه لمن السهل أن نقرأ في عدد كبير من الكتب أوصاف طبيعة الحضارة المصرية القديمة وحضارة السند القديمة[٥٩]؛ لكن اهتمامنا ينحصر في كيف، ولماذا، ومتى حدثت هاتان الحضارتان. وهل كانتا تجليات مستقلة للروح الإنسانية مثلما كانت سومر؟ هل كانتا نتاج عبقرية الشعب الذي عاش في وادي النيل ووادي السند؟ أم هما تستمدان شيئاً ما – كالاستيحاء والقادة والشعب– من سومر؟ عند معاينة هذه المشكلة، سنقضي وقتاً مع الهند أطول من مصر، لأن مصر، من بين جميع الحضارات السبع المبكرة التي نناقشها في هذا الكتاب، هي الحضارة التي اطلع عليها القارئ العادي خير اطلاع أكثر من سواها. فهو في الأقل رأى صور الأهرامات

وأبي الهول، وسمع عن «توت عنخ آمون» و«أخناتون».

وتكمن الصعوبة الفعلية في أن الكثيرين يعتقدون أنهم يعرفون شيئاً ما عن المصريين القدماء، تماماً مثلما يعرفون «البريطون» القدماء، بينما هم في حقيقة الأمر يجهلون جهلاً مخيفاً. لكن كثيراً من الناس سمع بأن مصر قد وُصِفت – وإن لم يعلموا أن هيرودوت هو من صاغ هذه العبارة– بكونها «هبة النيل»، وقد يكون هذا الوصف المفتاح الفعلي لأصل الحضارة المصرية. وفي هذه القضية قد يكون وجود الأنهار المفتاح الفعلي لأصول الحضارات الأربع العالمية القديمة: الحضارات التي ربما ظهرت عن الاستفادة البارعة لشعب موهوب من إمكانات النجاح والفشل التي تقدمها وديان الأنهار الخصبة في النيل، ودجلة والفرات، والسند، والنهر الأصفر. لكن لنعدْ إلى موضوعتنا المباشرة: مصر. يتكون وادي النيل من سهل يغمره الفيضان الموسمي، مع رمال خفيضة وصحراء مفروشة بالحصى متاخمة للسهل، ثم هناك جروف جبلية على طول الحواشي[٦٠]. يرتفع فيضان النيل في يوليو / تموز مع تساقط الأمطار المدارية على المرتفعات الحبشية، وينحسر في نوفمبر / تشرين الثاني، بعد أن تنبت البذور وتنضج المحاصيل في دفء الشتاء والربيع في مصر.

في بلاد الرافدين، كما رأينا، كانت مراكز الحضارة الأولى في جنوب البلاد، في أور وأريدو وأرك؛ ثم انتقلت بعد ذلك إلى

الشمال. وقد قيل لنا إن السبب في هذا هو الملوحة، أي ارتفاع نسبة الملح في سهل الفيضان الجنوبي. وقد بدأت حضارة وادي الرافدين في الجنوب ثم انتقلت شمالاً تاركة وراءها مساحة فارغة. ولم تكن الحال كذلك في مصر. إذ توصف مصر جغرافياً بأنها تقع في جزئين: مصر السفلى، التي تضم الدلتا، ومصر العليا، الجنوب. ما حدث للحضارة المصرية هو أنها ظلت تنمو وتنمو، لكنها لم تنتقل: فلا توجد في مصر أبداً منطقة مهجورة بسبب الملوحة. كان الجزء الأكبر من مصر العليا منطقة صالحة عاش فيها الناس منذ النصف الثاني من الألفية الرابعة ق م، ومنذ السلالة الثالثة، إن لم يكن قبلها، كانت مصر مقسمة إلى «نومات» أو ولايات إدارية. أما مصر السفلى، أو الدلتا، فظلت موضع غزو واحتلال بالتدريج – وربما لم يقع الغزو الكامل لها حتى أزمنة البطالمة– ولكن لم يحدث فيها أي تغير جذري. فظلت مصر تنمو وحسب.

لقد خلق كلٌّ من السومريين والمصريين حضارات قائمة على الري، غير أن من الخطأ تصيير الري حالة مثالية، والاعتقاد بأنه شيء واحد متماثل في جميع الأماكن. فالواقع أنه شيء يختلف تماماً في بلاد الرافدين عنه في مصر. ففي بلاد ما بين النهرين التوأمين، كانت تجري عملية تسيير القنوات؛ إذ كانت هناك ضفاف قنوات فوق الحقول، ويتم تفريغ المياه إلى الحقول، فيترسب الملح في التربة، وهذا هو السبب في أن

حقول جنوب بلاد الرافدين كان لا بد من التخلي عنها، في أوقات معينة، بسبب الملوحة. وهذا ما لم يحصل في مصر أبداً: إذ كانت مصر هبة النيل، بمعنى أن النيل كان يقوم بالعمل كله، فكل ما يقع يقع بفيضان النيل. في مصر يجف الوحل غير أن الملح يبقى في أعماق الشقوق ثم ينسرب من الحقول إلى النهر.

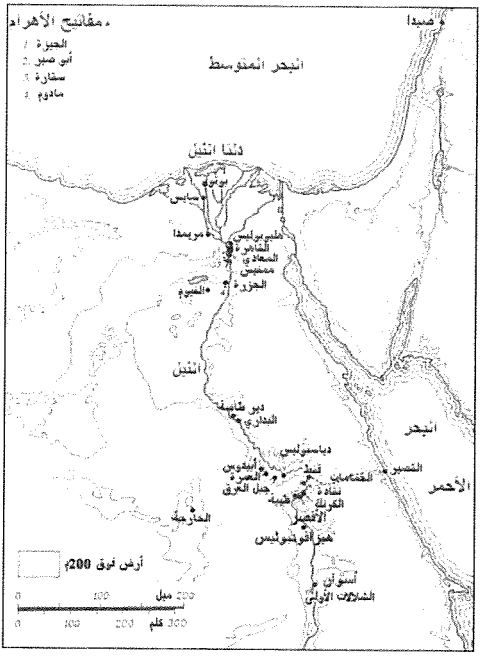

الشكل ٦: بيان مواقع وادي النيل

حين غزا نابليون مصر أخذ معه طاقماً علمياً مختصاً، ومن بين كثير من الأشياء التي أُسندت إلى هذا الطاقم كان أن

يدون ماضي البلاد. كان نابليون نفسه مهتماً بالآثار المرئية لماضي مصر البعيد، لكننا لا نعرف عما إذا كان، عشية المعركة الكبيرة على النيل، قد خاطب قواته حقاً في ظل الهرم الكبير قائلاً: «أيها الجنود، إن أربعين قرناً من التاريخ تنظر إليكم». ربما فعل ذلك، وربما لم يفعله، وأنا أعتقد أنه فعله، ولا شك أن هذا أول مثال على استخدام علم الآثار لأغراض سياسية[٦١].

كان طاقم نابليون العلمي المصري – أو «الحمير» كما كان يدعوهم الطاقم العسكري– يضم «دولوميو»، عالم المعادن الذي بقي اسمه في رخام «الدولومايت»، ودينون الفنان. وصلوا إلى مصر عام ١٧٩٨، وبرغم تدمير نيلسون للأسطول الفرنسي في معركة «أبو قير»، فقد تأسس «المعهد الفرنسي» في القاهرة. كان طاقم هذا المعهد يقوم بعمله بحماس وعمق كبيرين: لم ينقبوا، لكنهم وصفوا ورسموا، وجمعوا ما يمكن نقله من آثار ولقى قديمة. وحين اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر عام ١٨٠١ فقد تم التخلي عن مجموعة الأعمال الفنية المصرية إلى إنجلترا، ولذلك وجدت طريقها إلى «المتحف البريطاني» وليس إلى «اللوفر» كما أُريد لها في الأصل. وبقي المعهد الفرنسي في القاهرة في أيدي الفرنسيين فأنتج حينئذ عمله المميز «وصف مصر» (١٧٩٩–١٨١٣). وأهم شيء جاء إلى المتحف البريطاني بدلاً من أن يذهب إلى اللوفر هو «حجر رشيد» الشهير، الذي عُثِرَ عليه مصادفة عند الحفر في أسس قلعة بالقرب من الإسكندرية. وهو حجر بازلت أسود يحمل

نقوشاً مكتوبة بالإغريقية والديموطيقية والهيروغليفية. وتم فك شفرة النقوش الديموطيقية والهيروغليفية في حجر رشيد وغيره من الأنصاب في العقد الأول من القرن التاسع عشر: واشترك أناس كثيرون في ذلك، غير أن أهم اسمين كانا الإنجليزي توماس يونغ، الذي نشرت نتائج أبحاثه في مقالة عن مصر في طبعة عام ١٨١٨ من «الموسوعة البريطانية»، وجان فرانسوا شامبليون، الذي نشر عمله عام ١٨٢٢[٦٢].

وكان فك الشفرة هذا مفتاحاً لمصر القديمة، في الأقل فيما يتعلق بماضيها الكتابي. غير أن الكتابة، من حيث التعريف والواقع معاً، تلازم الحضارة. وأصول الحضارة المصرية دفينة في ماضيها ما قبل الكتابة وما قبل السلالات. في فترة حكم بطليموس فيلادلفوس، كتب كاهن مصري كبير اسمه «مانيثو» تاريخ مصر بالإغريقية، ولم يصلنا إلا على شكل خلاصات مغربلة، ومقتطفات في أعمال مؤلفين متأخرين عنه. هناك أيضاً قوائم بأسماء الفراعنة وآثارهم كالقائمة على حجر «باليرمو». وقد أُعِدَّت من هذه المصادر وغيرها قوائم ملوك مفصلة، ويبدو أن مصر العليا ومصر السفلى اتحدتا في ظل حكم ملك واحد منذ زهاء ٣٢٠٠ ق م، وأن هذه كانت بداية الحقبة التاريخية في مصر مع مواقع أساسية في ممفيس، وسقارة، والجيزة، وأبيدوس. وتُقسَّم بدايات الحضارة التاريخية القديمة في مصر الآن على نحو مناسب وتقليدي إلى

5075

الحقبة القديمة التي تمتد من ٣٢٠٠ إلى ٢٧٠٠ ق م (وتضم السلالتين الأولى والثانية) والمملكة القديمة من ٢٧٠٠ إلى ٢١٦٠ ق م (وتضم السلالات من الثالثة إلى الثامنة).

كان نارمر أول ملك لمصر، وربما كان أيضاً مينيس شبه الخرافي، أول فرعون، والرجل الذي نقل أدلاء المعابد لهيرودوت أنه كان أول ملك لمصر. وتصوره لوحة نارمر باعتباره يرتدي الـ«دسبرت»، أي التاج الأحمر لمصر السفلى، من جانب، والـ«هجت»، أي التاج الأبيض لمصر العليا، على الجانب الآخر. وتقول الكلمة المرقومة: «الفرعون، تجسد الإله – الصقر حورس، بذراعه اليمنى القوية يسوق سكان المستنقعات أسرى»، وهذه في العادة الطريقة التي يجري بها تصوير الاحتفال بانتصار ملك جنوبي على الشمال. وفي حقيقة الأمر، ربما كان لنارمر – مينيس سلف سابق، هو الملك العقرب، الذي يعود تاريخ رأس صولجانه في «هيراقونبوليس» إلى ما يقارب ٣٢٢٥ ق م[٦٣].

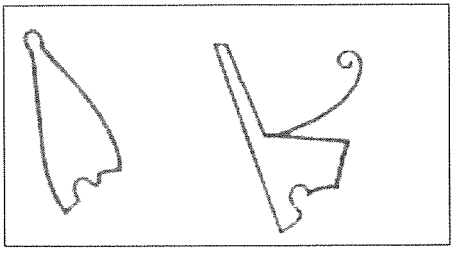

الشكل ٧: التاجان الأبيض والأحمر عند الفراعنة، يمثلان مصر السفلى والعليا

لكننا نسأل ما الذي جرى في مصر قبل توحيد الشمال والجنوب عند بدء التاريخ المكتوب؟ لقد انقضت سنين الوصف والتنقيب بعد الحقبة النابليونية في الآثار المصرية: لم يكن يزيد بعضها عن سرقة صريحة ونهب عادي للقبور، لكن بعضها الآخر كان زاخراً بالعمل. تم تأسيس «صندوق استكشاف مصر» (وفيما بعد: «جمعية استكشاف مصر») في لندن عام ١٨٨٣، وكان عملها الميداني بإشراف السير فلندرز بيتري، كما صار يطلق عليه فيما بعد. عام ١٨٨٣، كتب بيتري إلى الآنسة إميليا إدواردز، سكرتيرة الصندوق: «إن احتمال التنقيب في مصر هو الاحتمال الأكثر فتنة عندي، وإني لأتمنى التوصل إلى نتائج تسوِّغ مباشرتي بهذا العمل». وبالتأكيد كانت النتائج كذلك. عمل بيتري أولاً على مواقع السلالات، وبعد ذلك من عام ١٨٩٤ فصاعداً، على مواقع أقدم كان أشهرها نقادة. وقد كشف عن مقبرة تضم ألفي قبر. رفض المتحف البريطاني عرض بيتري من نوع الدفعات لهذه المقبرة على أساس أنهم أُخبِروا أنها «غير تاريخية وليست سابقة على التاريخ». وفي هذا كانت معلوماتهم مغلوطة، لكن المجموعة ذهبت إلى «متحف الأشموليان» في أوكسفورد، بدلاً منهم. وفي عام ١٩٠١، في مذكراته حول موقع آخر، هو «ديوسبوليس بارفا»، رتب بيتري المادة ما قبل السلالات (أو ما قبل التاريخ) من مصر ترتيباً نسقياً للمرة الأولى[٦٤].

نحن في غنى هنا عن الخوض في تفاصيل تصنيفات

بيتري والتعديلات التي أُدخلت عليها. ولنوجز ما يبدو أنه حصل بألفاظ عامة جداً. حتى السنوات العشر الأخيرة، كانت الأطروحة العامة في كتب المناهج والمحاضرات تذهب إلى أن «الثورة الحجرية الجديدة»، أي أصول الزراعة وتدجين الحيوانات، بدأت في مصر وجنوب بلاد الرافدين، وأن هذه الجماعات من العصر الحجري الجديد تطورت إلى مدن كتابية. كان الخلاف الوحيد يتعلق في أيٍّ من البلدين حصلت الثورة الحجرية الجديدة والثورة الحضرية أولاً. والآن يخبرنا البحث الأثري أن الأدلة الأولى على الزراعة وتدجين الحيوانات في العالم القديم لا تأتي من مصر ولا من جنوب بلاد الرافدين، بل من فلسطين، وجنوب تركيا، وشمال بلاد الرافدين، وغرب إيران. فلم يعد يوجد الآن احتمال للمناقشة بأسبقية مصر في هذه القضية. فالجماعات الزراعية الأولى في مصر متأخرة في تاريخها، وكذلك الحال لم يكن نوعا الحنطة والشعير وتربية الأغنام أو الماعز بالأصيلة في مصر في حالتها البرية. وربما يكون قد ظهر المزارعون القرويون الفلاحون الأوائل في مصر والسودان مع بواكير الألفية الخامسة ق م، وربما كانت الفنون والصنائع العليا قد انتشرت إلى مصر من جنوب غرب أفريقيا. لكن المجتمعات الأولى في مصر سرعان ما أخذت طابعاً أفريقياً، وما من أحد ينظر إلى البقايا المادية للجماعات المصرية الأولى التي وجدت بين ٥٠٠٠ مثلاً و ٣٠٠٠ ق م ويخطئ فيها أثر المجتمعات الآسيوية الغربية[٦٥].

والسؤال الذي نثيره على أنفسنا الآن هو التالي: ما الذي حدث ليحول هذه القرى المصرية إلى الحضارة الحضرية الكتابية لدى مصر السلالات؟ هل كان مجرد نمو في الازدهار، ومجرد تكرار لما رأيناه يحدث في دلتا دجلة والفرات؟ هل كانت عملية مستقلة من اتحاد المدن؟ الجواب أنه يبدو الآن من المؤكد على نحو معقول أن هذه العملية في مصر لم تحصل خلواً من بعض التأثير المباشر من بلاد الرافدين. ومؤخراً قال البروفيسور إيجرتن من شيكاغو: «يبدو لي أن من الثابت ثبات أية واقعة في التاريخ المصري المبكر أن تأثيرات مهمة من أنواع مختلفة قد وصلت مصر من بلاد الرافدين قبل بدء السلالة الأولى بقليل»[٦٦].

فلننظر في بعض الأدلة الأثرية. لقد عُثِرَ في مصر على ثلاثة أختام أسطوانية عراقية من حقبة أوروك الأخيرة أو الكتابية الأولى: أحدها جاء من نقادة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً استخدم المصريون الأختام الأسطوانية – وهي اختراع بلاد الرافدين– وصاروا ينقشون هذه الأختام الأسطوانية بتصميماتهم التقليدية الخاصة؛ لم يكن لديهم ألواح طينية فصارت الأختام تعويذات عندهم. ثانياً، تظهر موضوعات عراقية في الفن المصري: وتشمل هذه مشاهد الصيد، والأسود التي تلتهم الماشية، والوحوش برقاب طويلة متضافرة، والوحوش الأفعوانية، والحيوانات المجنحة، والأفاعي المتسافدة. وعلى المقبض العاجي للسكين الفولاذية من جبل العرق، بالقرب من

أبيدوس، نقش تصوير لبطل من النمط العراقي، يشبه جلجامش، «رب الوحوش»، وهو يخضع أسدين، وتوجد الموضوعة نفسها على رسم جداري من هيراقونبوليس، ينتمي إلى واحد من أقدم الأبنية المبنية بالآجر في جنوب مصر. وعلى ظهر السكين من جبل العرق يُصوَّر موكب معركة بحرية: في الصف الأعلى للزوارق قياديم وكواثل عمودية تجعلها شبيهة بـ«أبلام» دجلة، وفي الصف الأسفل توجد الزوارق المصرية العادية من تلك الحقبة[٦٧].

في المقام الثالث، هناك المعمار. فقد ظهر في مصر أسلوب نصبي في البناء يقوم على آجر اللبن، ونحن نجد المصريين القدماء يتخلون عن القصب والبردي وجذوع النخيل وجدْل الحصران، ويستخدمون الآجر المجفف بالشمس المصنوع في قوالب خشبية مستطيلة. وباستخدام الآجر في مبانيهم صاروا يبنون واجهات وأعمدة مجوفة كالتي تستخدم في المباني الأولى في بلاد الرافدين. وأخيراً، هناك الكتابة. فالكتابة الهيروغليفية عُثِرَ عليها أولاً على الصفائح الصخرية من أزمنة ما قبل السلالات الأخيرة؛ وهي أصلاً كتابة متطورة تستخدم الرموز الصورية والرموز الصوتية. ولا بد أن هذه الكتابة المصرية الأولى قد استُمدَّت بالتأكيد من الكتابة الأقدم في بلاد الرافدين، لكنها صارت تختلف مباشرة حالما صارت الحضارة حضارة السلالات في مصر.

ما الذي حدث إذاً؟ هناك عدة تفسيرات. لقد رأى فلندرز بيتري وصول شعب جديد من خارج مصر، ورأى بومغارتل وجود «تغير جذري ومفاجئ». لكن هذه لم تعد وجهة نظر أغلب الباحثين. دعا فرانكفورت إلى وجود مؤثر تحفيزي من بلاد الرافدين في مصر، مؤثر من طبيعة انتقائية مشروطة انتقالية استحثَّ اتحاد المدن الذي كان على وشك الحدوث، وحفّز العملية التي كانت ستقع بالتأكيد بطريقة ما[٦٨]. وفي صياغة حديثة للمشكلة يقول سيرل ألدرد إن من الصعب أن ننكر كون القرى المصرية الفلاحية الأولى قد تلقت شيئاً جديراً جداً بالاعتبار من الخارج، لكن ذلك لم يكن نتيجة غزو. وهو يشير إلى عملية «تغلغل أفكار وتقنيات جديدة»، ويقول: «ما صار يخترق الثقافات الأصلية هو المبادئ والأفكار... وسرعان ما جرى اغتنام «خبرة» أجنبية وتم تطويعها بحماس مع الظروف المصرية من لدن شعب ناضج للتغير»[٦٩].

أود أن أعبِّرَ عن هذا على النحو التالي. كانت الإمكانات متوفرة في وادي نهر خصيب يضم عدداً كبيراً من السكان، وقد قُدِّرَ عدد السكان في مصر ما قبل السلالات بأنه يتراوح بين ١٠٠,٠٠٠ و٢٠٠,٠٠٠ نسمة؛ علاوة على ذلك، كان على السكان أن ينظموا أنفسهم للاهتمام بمشكلات الري في فيضان النيل السنوي. كان المصريون ما قبل السلالات الأخيرة يتحكمون بهذه الإمكانات، لكنهم كانوا على اتصال مع سكان

وادي نهر آخر، هم السومريون، حققوا قبلهم إمكانات اتحاد المدن. وتوضح بعض الاتصالات المباشرة التي ذكرناها أن هذه الاتصالات السومرية سرَّعت من تطوُّر المصريين وأثَّرت فيهم. إذاً فأنا أقترح أن أصول الحضارة المصرية ينبغي أن تُفسَّر من خلال انتشار مثير معين من بلاد سومر إلى مجتمع أفريقي في الجوهر في وادي النيل – مجتمع كان يسلك طريقه إلى الحضارة أصلاً، وكان بالإمكان أن يحرزها على نحو مستقل من دون الاستفادة من سومر.

بالطبع لا نستطيع أن نقطع تماماً في هذه الأمور وما زال كثير من علماء المصريات لا يرتاح لفرضية فرانكفورت عن التأثير التحفيزي لسومر في مصر، ولا يميلون إلى التفكير بأن الكتابة المصرية تدين بأي شكل إلى الكتابة السومرية المسمارية. على أن ما نستطيع أن نقطع بحدوثه هو أن التطور مهما كان النحو الذي حدث به من مجتمعات ما قبل السلالات الأخيرة إلى مصر السلالات، فإن الحضارة المصرية – أي خلق أناس وادي النيل، مهما يكن المثير الذي استقبلوه– كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن الحضارة السومرية. فقد كانت مصرية وأفريقية أيضاً. في سومر، كان الحاكم نائباً عن الآلهة، لكنه هو نفسه لم يكن إلهياً. أما في مصر، فكان يتمتع شخصه بصفة الألوهية: إذ لم يكن ممثلاً إنسانياً للإله – والفرعون هو المثال الكلاسيكي على تجسد الإله كملك.

يمكن للمرء أن يقول إنه كان شيخ القبيلة الأفريقي السابق على التاريخ الذي يستنزل المطر وقد صار إلهاً. وكانت علاقة الدولة بالقانون والإله – الملك تختلف في مصر اختلافاً جذرياً عن الموقف في سومر. فبلاد الرافدين كان عندها، منذ مرحلة مبكرة جداً، قوانينها المكتوبة الكافية والفاعلة. أما في مصر، فلم تكن الحال كذلك: إذ بقي الحكم شخصياً، ولأكثر من ألفين وخمسمائة سنة في الأقل، بقيت مصر يحكمها قانون العادات – أي الكلمات الإلهية التي تصدر عن الإله – الملك.

يكمن اختلاف كبير آخر فيما يأتي: إذ سرعان ما تحولت مصر إلى دولة – أمة دون المرور بحقبة دويلات المدن. حين دخلت مصر التاريخ وتحضرت، كانت البلاد بأسرها من البحر المتوسط حتى «الشلال الأول» واحدة، في ظل حاكم واحد يحكم دولة تمتد لستمائة ميل اتساعاً. وكانت هذه أول دولة في التاريخ، وهي تختلف اختلافاً جلياً عن مدن سومر، التي تحولت إلى دولة، في نهاية الأمر، في ظل حكم «أكد». ويساعد هذا الاختلاف على إبراز أن ما نسميه بالحضارة هو نموذج، ولكن تفاصيل هذا النموذج تتنوع من مجتمع متحضر إلى آخر، وتتنوع النتيجة النهائية دائماً. مدن سومر واضحة وجلية لكل من يرى، ولكن أين هي مدن مصر القديمة؟ حين جاء الآشوريون إلى مصر تحدثوا عن مئات المدن، ولكن أين هي الآن؟ لقد سمى البروفيسور ولسن مصر «حضارة بلا مدن»:

يقول: «من المشروع القول إنه على مدى ثلاثة آلاف سنة، حتى تأسيس الإسكندرية، كانت مصر حضارة كبرى من دون مدينة كبرى واحدة»[٧٠].

يصح هذا بقدر ما لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نشير إلى مدينة مصرية كبيرة مما قبل التاريخ أو تاريخية أولى ونتمشى في شوارعها مثلما نتمشى في شوارع «موهينجو-دارو» و«هرابا»، على سبيل المثال. لكني لا أعتقد أن من المشروع أو الصحيح القول إن مصر القديمة كانت حضارة بلا مدن. ويخلط البروفيسور ولسن بين ما يبقى من الماضي وما وُجد في الماضي. ولا يستتبع عدم بقاء أية مدينة أنه لم توجد مدن مصرية قديمة، وليس من الصحيح أن نصف الحضارة المصرية القديمة باعتبارها كانت مجرد أرض زراعية مليئة بالقرى. فقد وُجدت عواصم - ممفيس من ٣٠٠٠ ق م وطيبة من ٢٠٠٠ ق م تقريباً- وكانت هناك بلدات صغرى مثل هيليوبوليس وأبيدوس. وقد دُمِّرَ كثير من البلدات المصرية القديمة لبناء مدن أخرى أحدث: فمدينة القاهرة العربية بنيت بأحجار من ممفيس، مع ذلك ما زالت ممفيس «تلاً» لا بد أنه يخفي بقايا مدينة من المملكة القديمة ينبغي أن يجري التنقيب فيها يوماً ما. ومرة أخرى يقع كثير من بلدات المملكة القديمة دفيناً تحت المدن الحديثة أو تحت وحل النيل. لقد سلّط البروفيسور بوتزر الانتباه على الارتفاع المتواصل في مستوى

سهل فيضان النيل، وهو يقترح بأن كثيراً من المواقع القديمة المهمة ربما كانت مكسوة بأمتار من الغرين. وهناك المئات من المقابر من عصور ما قبل السلالات في المناطق البعيدة عن وادي النيل، لكن ما يقابلها من مواقع مستوطنات لا يكاد يُعرف عنه شيء[٧١].

الشيء المؤكد أنه تم إنجاز أعمال عظيمة جداً في أزمنة السلالات لا بد أنها كانت تدل على حياة حضرية معقدة ومنظمة بالتأكيد. وكانت مقابر السلالتين الأولى والثانية أبنية ذات طابق واحد. وتولى الحكم ملك مبكر من السلالة الثالثة اسمه جوسر: كان مستشاره إمحوتب، وهو شخصية مميزة ومتعددة اشتهر فيما بعد بوصفه بناءً، وفلكياً، وكاهناً، وكاتباً، وحكيماً، وفوق ذلك كله طبيباً – صار لاحقاً إله الطب المصري. صمم إمحوتب قبراً لجوسر في سقارة: فكان بذلك أول هرم – «هرم العتبة» أو «مصطبة العتبة» كما يسمى. وقد بُنيَ هذا عام ٢٦٨٠ ق م، فكان أعجوبة عصره: إذ لم يحصل مثله شيء من قبل. وعن هذا الابتكار تطور هرم الجيزة الضخم. بُنيَ الهرم الكبير للملك خوفو في القرن الخامس والعشرين ق م؛ وقد استُخدم مليونا قطعة كبيرة من الحجر في بناء هذا القبر، كان بعضها يزن خمسة عشر طناً. وهذا يمثل قطعة رائعة من العمل والتنظيم: نقل لنا هيرودوت أن عدد العمال الذي استجلبوا له كان مائة ألف رجل، غير أن آخرين صاروا

مؤخراً يقدرون أن العدد الصحيح ربما لا يزيد عن ٢٥٠٠ رجل. ولكن مهما يكن العدد الذي نظنه، فإن روعة المعمار المصري القديم وأهميته تظل قائمة. وحتى لو كان السومريون بناة أول حضارة، وحتى لو كانت حضارتهم المثير والمثال الذي حفّز اتحاد المدن المنبثق أو الوليد في مصر، فإن أهرامات وادي النيل تظل تقدم شاهداً صامتاً وكبيراً على تنظيم الحضارة الثانية وقوتها التي تطورت في التاريخ الإنساني.

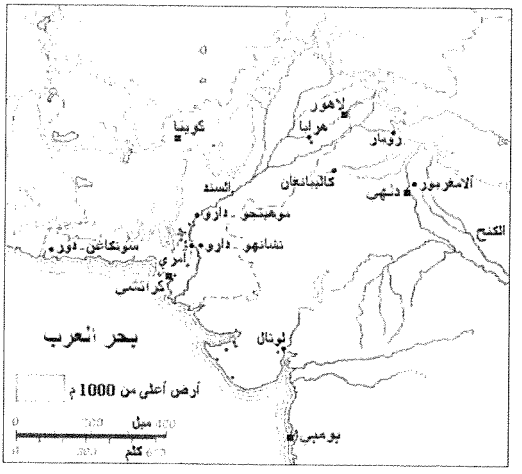

الشكل ٨: بيان مواقع وادي السند

لننتقل الآن من وادي النيل إلى وادي السند والحضارة التي نمت وازدهرت هناك في الألفيتين الثالثة والثانية ق م. قبل تجزئة الهند عام ١٩٤٧ كان من السهل الإشارة إلى هذه الحضارة بأنها حضارة ما قبل التاريخ في الهند أو في شبه

القارة الهندية. أما الآن فتنقسم مواقع هذه الحضارة في حدود دولتي أمة، هما الباكستان والهند: وتقع مدينتان كبريان، هما «موهينجو–دارو» و«هرابا»، الآن في باكستان. ويفضل بعض الكتاب أن يسموا الحضارة باسم «هرابا» على اسم واحدة من هاتين المدينتين، لكنني أعتقد أن التسمية الأولى والقديمة هي الأفضل والأكثر يسراً، ولذلك سأشير إليها هنا باسم «حضارة السند».

حتى بواكير العشرينات، كانت هناك وجهة نظر تقليدية ومقبولة عموماً عن الماضي الهندي البعيد. كان من المعتقد أن المدن الأولى بناها في الألفية الأولى ق م أعقاب البدو الرعاة – الآريين، الذين جاءوا إلى الهند عن طريق ممر خيبر من الشمال الغربي في العصر البرونزي، وقدموا لها اللغة التي تطورت إلى اللغة السنسكريتية. كان يُعتقد أنهم فيما بين عامي ١٥٠٠ و ١٠٠٠ ق م قد تقاتلوا فيما بينهم، ومع السكان الأصليين في البنجاب. ثم يُفترض أنهم استوطنوا وخلقوا أقدم الحضارات الهندية في حوض نهر «الكنج»، حيث وجدت «باتنا» أول وبالتالي أقدس مدينة في الهند.

ومن الضروري في هذه المرحلة قول كلمة عن مصطلح «الآريين» – وهي كلمة حظيت بقدر من سوء السمعة بسبب تجاوزات العنصريين النازيين قبل حرب ١٩٣٩–٤٥ وفي أثنائها. وكان السير وليم جونز، وهو ويلزي درس في

أوكسفورد، وترأس فيما بعد المحكمة العليا في كلكتا عام ١٧٨٣، أول باحث بريطاني يتمكن من السنسكريتية. أدرك من فرط تعجبه أن هناك رابطة خفية بين الإغريقية واللاتينية والكلتية والفارسية والسنسكريتية. وتوسع فقهاء لغة لاحقون في تفاصيل هذه الرابطة الخفية، فاتضح وجود عائلة من اللغات الكبيرة كانت تضم في حناياها الكلتية والإيطالية والهيلينية والسلافية والتيوتونية والهندو-فارسية. وقد أُعطيَ لهذه العائلة اللغوية اسم اللغات «الهندو - أوروبية» أو «الهندو - جرمانية»؛ بينما سمى آخرون هذه العائلة باسم «الآرية». وفي الوقت الحاضر يشار عادة إلى العائلة اللغوية بأسرها تحت اسم «الهندو - أوروبية»، لكن الفرع الذي أحدث منها اللغات القديمة في فارس والهند يشار إليه على نحو سليم باسم «الهندو - آري» أو «الآري». وقد أشار غزاة الهند الناطقون بالسنسكريتية إلى أنفسهم بوصفهم «الآريين» أو النبلاء. وهكذا فإن «الآري» هو مصطلح لغوي، وبالاتساع يدل على الشعب الذي كان يتكلم هذه اللغة القديمة[٧٢].

هناك قضية أخرى لا بد من توضيحها هي الإيحاء الخاص في الكتابات حول الآثار والأنثروبولوجيا وتاريخ كلمات وألفاظ قديمة مثل العرق. يعني الأنثروبولوجي المادي بالعرق مجموعة من الناس يشتركون في خصائص جسدية موروثة قابلة للتوريث: وهو مصطلح بيولوجي في جوهره،

إذ إن أعراق الناس تشبه سلالات القطط والكلاب – والكلمة الفرنسية التي تستخدم للسلالات الحيوانية هي «عرق» (race) بالطبع مع مراعاة الفرق في أن السلالات المتنوعة للقطط والكلاب وحيوانات أخرى تعيش حالة الأسر ينظمها التوالد الانتقائي، في حين أن التنوعات الجسدية للإنسان قد حصلت في الجزء الأكبر منها على نحو طبيعي. ولعل القول بأن العرق هو مجموعة من الناس ذات خصائص جسدية مشتركة يبتعث الفكرة القائلة إنه مجموعة تعيش في مكان واحد بعينه. والحال ليس كذلك، ولكن لا بد أنه كان صحيحاً في الفترات التي تبلورت فيها هذه السلالات الجسدية للإنسان وتم تثبيتها كأنماط. غير أنه ما إن تصبح تنوعات إنسانية ثابتة ومعترفاً بها، فإن تطور الاتصالات وزيادة الحركة مع الحضارة الحديثة يُحدث تداخلاً كبيراً في هذه الأنماط، وهكذا تختلط الموروثات العرقية، ويصبح من الصعب جداً فرز وجود الأعراق «النقية» أو «الخالصة». مع ذلك تظل تلك الموروثات العرقية موجودة، وتظل التنوعات الجسدية للأجناس البشرية – لأن عبارة «العرق أو العنصر البشري» هي مصطلح مغلوط– ملازمة لنا. ولن يجد حتى أشد المناوئين للأعراق عنفاً، أعني الشخص الذي يصر بعناد على أن الأعراق لم تعد توجد، أدنى صعوبة في تمييز شخص من «الأسكيمو» عن شخص من «البوشمان»، تماماً مثلما نميز الكلب الكورجي القصير الذيل عن الكلب الجبلي البيريني. اطلب من أي رسام

أن يرسم الموفدين في مؤتمر دولي ولن يجد أية صعوبة في تمييز الصيني عن المتوسطي، وهذين عن الأفريقي الجنوبي والنرويجي[٧٣].

من الواضح إذاً أن العرق - مفهوماً بمعنى الاختلافات الجسدية التي توجد بين سلالات الناس المختلفة- لا علاقة له بأصول الحضارة. ويتباين السومريون والمصريون من الناحية الجسدية، وكان شعب حضارة السند يختلف عن كلٍّ من السومريين والمصريين. وسوف نرى في الفصول القليلة التالية أن من خلقوا الحضارات المبكرة في الصين وأمريكا الوسطى كانوا يختلفون في نمطهم الجسدي عمن خلقوا حضارات «العالم القديم» الثلاث الأولى. ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أن الآريين لم يكونوا مجموعة عرقية. لقد أحدثت الدعاية النازية وغيرها قبلها وبعدها إرباكاً في الذهن لدى الكثيرين بأن الآريين كانوا «نورديين»، والحال أنهم لم يكونوا كذلك قطعاً. لهذا يجب ألا نتخيل حشوداً ذات شعر أشقر وعيون زرقاء من النورديين الطوال القامة كالذين نجدهم في الوقت الحاضر في إسكندنافيا في العادة أكثر من بقية أجزاء أوروبا، وهم يندفعون إلى الهند عن طريق ممر خيبر بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق م، ويقدمون لغة أصبحت لاحقاً اللغة السنسكريتية؛ وإن كانت قد وجدت عناصر من هؤلاء السكان الجدد ولا ريب. المهم أنهم كانوا يسمون أنفسهم «آريين»، ولذلك صار مصطلح «الآري» يطلق على نحو خاص على هذا الشعب ككل.

ظلت التراتيل المقدسة للآريين تُنقَل شفاهاً، ولم تُدوَّن حتى القرن الثامن عشر ب م. وهي تنطوي على إشارات إلى السكان الأصليين أو الأصلاء في الهند الذين واجهوهم كغزاة: وهم يسمونهم «الداسوس» أو «الداسيين» ويصفونهم بأنهم صغار القامة وسود الجلود ومسطحو الوجوه. لم يكن «الداسوس» يتكلمون لغة آرية، وقد وصفهم غزاتهم بأنهم «يتكلمون لغة الأعداء» وعاملوهم بمزيج من الاحتقار والخوف – أي كمخلوقات إما أن تباد أو تُستعبَد. والحقيقة أن كلمة (داسي) أصبحت تدل على الجارية العبدة. ومن المتوقع أن يُعد كل هذا وصفاً معيارياً لشعب يغزو سكاناً أصلاء فيخضعهم ويستعبدهم، لكن هناك أمراً أو أمرين استثنائيين جداً في وصف «الداسوس»: إذ يقال إنهم كانوا يعيشون في مدن كبيرة وثرية بالإضافة إلى أنهم كانوا مهرة في فنون متنوعة.

كانت هذه أقوالاً مثيرة لم يولها الثقة إلا قلة من الناس؛ ومن هؤلاء كان «الأسقف كالدويل»، الذي رأى أن «الدرافيديين» ما قبل الآريين كانوا يمتلكون معابد، ومدناً، وأدوات معدنية، وكتباً مكتوبة – والحقيقة أنهم كانوا متحضرين[٧٤]. وقد أُعيد اكتشاف هذه المدن ما قبل الآريين في عشرينات القرن العشرين. عام ١٩١٣، كان باريت وهو يبدأ كتابه عن «آثار الهند القديمة» بالترتيلة السنسكريتية من «الريكفيدا»، يقول: «في الهند لم يظهر الشفق قبل الظلمة». وكان الجزء الأول من

«تاريخ كامبرج حول الهند» قد نشر عام ١٩٢٢ وقد كتب فيه السير جون مارشال، الذي كان حينئذ «المدير العام للآثار في الهند»، قائلاً: «من سوء حظ التاريخ الهندي أن الصفحات الأولى والأكثر عتمة منه تستمد نوراً قليلاً من الآثار المعاصرة لها». لكنه أعلن بعد سنتين في «أخبار لندن المصورة» عن التنقيبات لعام ١٩٢١ في «هرابا» و «موهينجو- دارو» واكتشاف حضارة السند ما قبل التاريخ(٧٥).

وتوصلت سنوات من العمل في العشرينيات والثلاثينيات إلى بناء صورة عن حضارة السند. ومع نهاية حرب الأعوام ١٩٣٩-٤٥، أصبح السير مورتيمر ويلر «المدير العام للآثار في الهند»، فاستأنف العمل في مدن السند والمواقع التي تتصل بها، مما غيّر تغييراً كبيراً من وجهات نظرنا عنها. ومنذ الانقسام، استمر العمل في الباكستان وفي الهند، وما برحت معرفتنا بحضارة السند تنمو وتزداد سنة في إثر أخرى(٧٦).

نحن ندرك الآن أنها كانت حضارة واسعة جداً من الناحية الجغرافية وتمتد في منطقة أوسع بكثير من مصر السلالات الأولى أو سومر. فمن الشمال حتى الجنوب تمتد حضارة السند ألف ميل، وهي أوسع جغرافياً من الحضارات القديمة الأربع المعروفة لدينا في العالم القديم. وتُعرف معرفة أفضل في مدينتين رئيستين، هما «موهينجو-دارو» على ضفاف نهر السند على مسافة ١٤٠ ميلاً شمال شرق كراتشي، و«هرابا»

إلى جانب المجرى القديم لنهر «رافي» على مسافة ما يقارب ٤٠٠ ميلاً في الشمال الشرقي. ومن بين المواقع الأخرى المثيرة والمهمة تبرز «آمري»، التي نُقِّبَ فيها عام ١٩٢٩، و«تشانهودارو» و«كوت ديجي»، على مسافة خمسة وعشرين ميلاً إلى الشرق من «موهينجو – دارو»، والمواقع الجديدة في «كاليبانغان» في «راجاستان» و«لوثال» في كجرات – وهذا الموقع الأخير ميناء. وكلٌّ من «موهينجو – دارو» و«هرابا» هما مدينتان تزيد مساحتهما عن ثلاثة أميال. فيهما معاقل ومراكز احتفالات – بالصيغة نفسها كما في المدن السومرية، وإن كانت التفاصيل تختلف تماماً لاختلاف طبيعة المدينتين. ففي هاتين المدينتين السنديتين شوارعهما الرئيسة القائمة على خطة شبكية: وهذا التخطيط المستطيل للمدينة هو «الأول» في التاريخ الإنساني الذي لا تستطيع ادعاءه سومر. وكثير من البيوت منظم كشقق، ومزود بمستودعات للزبالة، وفي الشوارع مزاريب (أقنية) حجرية لتصريف المياه.

كانت حضارة السند، شأنها شأن حضارتي سومر ومصر، تعتمد على الزراعة – الحنطة والشعير ذي الصفوف الستة، والبازلاء، والبطيخ والسمسم والتمور والقطن – وهو أقدم قطن في العالم؛ وتشمل الحيوانات المدجنة الماشية والجمال والجاموس والحمير والخيول. وبالطبع كان هناك تخصص لدى العمال في المدن، كان يشمل كثيراً من الصنائعيين

المهرة، ولا سيما المتخصصين منهم بصنع الأختام. وعلى الأختام عُثِرَ على الكتابة الصورية السندية، وهي كتابة لم تفكَّ مغالقها بعد. وعقد شعب حضارة السند علاقات تجارية واسعة مع أفغانستان وإيران وبلاد الرافدين وجنوب الهند. والعلاقات مع بلاد الرافدين موثقة جيداً وواضحة تماماً. ففي عصر سرجون الأكدي، الذي يُتفق الآن عموماً على أن تاريخه بحدود ٢٣٥٠ ق م، وصلت أشياء متنوعة إلى مدن بلاد الرافدين من وادي السند ربما عن طريق البحرين والخليج العربي – حيث توجد «دلمون» القدماء. وشملت هذه الأشياء الفخار، والأختام، والخرز والموضوعات الصغيرة، ومن الضروري التأكيد على أن هذه الأشياء كانت صغيرة. وكما قال ويلر: «توفر حضارة السند مثالاً واضحاً، وإن لم يكن الوحيد، على تبادل الزينات والرقى المقترنة باستقلال تقني أساسي»[٧٧].

والآن دعونا نتصدى لمشكلة أصول حضارة السند. فماذا كان أصلها، هذه الحضارة التي تختلف جداً عن حضارة السومريين والمصريين ومع ذلك تشبههما في الجوهر – الحضارة التي تعتمد على زراعة مزدهرة في وادي نهر خصيب مفعم بالإمكانات ومفعم بالمخاطر والأرزاء، الحضارة ذات المدن الكبيرة المنظمة لإسكان الصنائعيين المتخصصين والخبراء، وذات المراكز الاحتفالية المركزية والعلاقات التجارية الواسعة؟

بطبيعة الحال، قُدِّمت مقترحات كثيرة. كان الأول منها أن حضارة السند هي فرع استعماري من دوحة إحدى الحضارتين السابقتين – سومر ومصر– وكلتاهما تسبقها تأريخاً بالتأكيد. وهذه النظرية ممكنة من ناحية الترتيب الزمني التاريخي؛ فبالتأكيد تسبق سومر الأولى ومصر السلالات الأولى مدن السند بما لا يقل عن خمسمائة سنة، وربما ألف سنة في حالة سومر. وقد اعتبر إليوت سمث وباري حضارة السند فرعاً من مصر، واعتبرها راجلان، كما اعتبر جميع الحضارات، فرعاً من سومر. وفي الوقت الحاضر تبدو كلتا الفرضيتين غير ممكنة. قال السير مورتيمر ويلر: «تحول اختلافات أساسية بين حضارة السند وحضارات بلاد الرافدين دون احتمال أي استعمار مباشر للأخيرة»[٧٨]. أعتقد أن هذا صحيح جداً، لكننا عند الموافقة على هذا، يجب أن نتذكر أن الاختلافات بين حضارة السند والحضارة السومرية هي اختلافات في تفاصيل أداء التطابقات الأساسية. وهناك تناظرات وتوازيات كثيرة ذات أهمية كبرى – خصائص المدينة نفسها، والتجارة الواسعة، والزراعة المزدهرة المنظمة تنظيماً متقناً، والحِرَف التخصصية، والمراكز الاحتفالية. وما من شك في أن هناك شبهاً كبيراً بين نماذج الحضارة التي انبثقت في أزمنة التاريخ الأولى على ضفاف دجلة والفرات والنيل والسند. والأسئلة التي ينبغي أن نسأل أنفسنا بها هي: لماذا يختلف النموذج في التفاصيل؟ وما هي التفاعلات بين النماذج الثلاثة؟

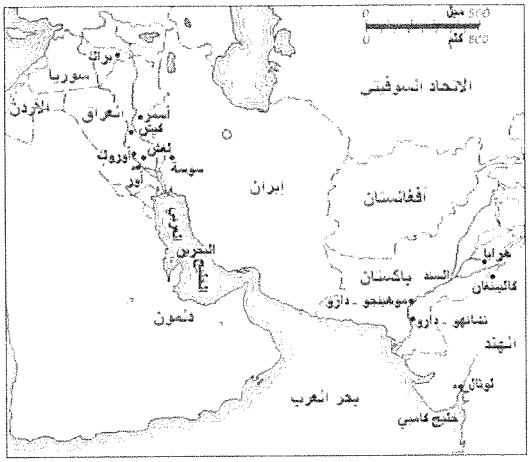

الشكل ٩: وادي السند والخليج العربي مع بيان مناطق الاتصال البحري

ترى وجهة النظر الثانية حول أصل حضارة السند أنها ظهرت على نحو مستقل شمال غرب الهند من الثقافات القروية التي وجدت هناك منذ بواكير الألفية الثالثة. تعتقد هذه النظرة أن الاقتصادات القروية الفلاحية المزدهرة في أرض غنية تفضي، ولعلها لا تفضي بالضرورة، غير أنها تنطوي على احتمال أن تفضي، إلى اقتصادات حضرية غنية ومتنوعة. وللتعبير عنها بطريقة أخرى يمكن القول إن اتحاد المدن يمكن أن يحدث كعملية طبيعية ممكنة للارتقاء الاجتماعي الإنساني في وادي السند كما حدث في وادي الرافدين والنيل، وكما سيحدث بعدها في اليونان: وهذا يعني القول إن الثورة الحضرية لدى كايلد كرّرت نفسها في أماكن متعددة وأزمان مختلفة متعددة.

يقترح السير مورتيمر ويلر، الذي قام أكثر من سواه بإعادة دراسة حضارة السند في ربع القرن الأخير، وواجه بأمانة، وبمعرفة كاملة وتقدير بالغ للوقائع الأثرية، مشكلات الأصول في هذه الحضارة، وجهة نظر أخرى ثالثة منفصلة عن سواها. وهو يوافق على أن حضارة السند ربما لم تكن قاعدة استعمارية لسومر، كما أنه لا يستطيع أن يعدها ناشئة باستقلال مطلق في شمال غرب الهند. ودعوني أقتبس نظراته:

المجتمع الذي يصمم على الاستفادة من فرص السهل المترامية لا بدَّ بالضرورة أن يمتلك أيضاً العبقرية والمهارة للسيطرة على بيئة مثيرة مهدِّدة، ويجب أن يمتلكها منذ البدء. ولا يمكن تصور حضارة مثل حضارة السند بوصفها نمواً بطيئاً متأنياً. لا بد أن تكون انتصاراتها، مثل مشكلاتها، من الصنف الفجائي: ولهذا لا بد أن يكون بحثنا عن سلف مادي نسقي لحضارة السند بحثاً طويلاً ودؤوباً كذلك، ولعله لا يكون مهماً في الأساس. من الناحية العقلية، تمتع مؤسسو تلك الحضارة بسمة تتويجية. فقد سبقتهم بقليل حضارتان نهريتان عظيمتان، في بلاد الرافدين ومصر. وبالمعنى المادي المباشر، لم تكن أيٌّ من الحضارتين الوالد المنجب لها: إذ لم تكن حضارة السند، بتقنيتها الفريدة وخطها وشخصيتها الأجنبية، مجرد مستعمرة للغرب. غير أن للأفكار أجنحة، وفي الألفية الثالثة كانت فكرة الحضارة تحلق في هواء غرب

آسيا. وكان نموذج حضارة، مهما يكن مجرداً، حاضراً في أذهان مؤسسي السند. وفي معركتهم المتواصلة ضد مشكلات أكثر اتساعاً من المشكلات التي ووجهت في بلاد الرافدين أو مصر، تحصنوا بالشعور أنها أمر تم إنجازه من قبل. وفي ذلك الشعور، بعد إخفاق أو آخر (وليست آمري وكوت ديجي سوى مجرد أمثلة)، تمكنوا من إحراز النصر. في بعضها ربما مثّل هذا الأسلوب إعادة بناء للمرحلة الأولية من حضارة السند، بوصفه الانتصار النهائي لجماعة قروية أو سكان بلدة صغيرة مصممة تحدوها وتدفعها فكرة عظيمة وناضجة. ولم يكن شعب السند أول ولا آخر من يحققون أنفسهم بهذه الطريقة المثيرة؛ وهي طريقة ليس من السهل إعادة بنائها على الأساس المحدود للأدلة الأثرية التقليدية. ولا يعني هذا العجز بالضرورة الانتقاص من موضوعية هذه الطريقة بسبب العنصر التجريدي في تكوينها[٧٩].

هذا ما كتبه السير مورتيمر ويلر، والعبارات المكتوبة بحروف مائلة منه. وقد اقتبست هذه الفقرة بطولها لأنها أهم نبذة فكرية لمشكلات الفهم الصعبة في الخوض في أصول حضارة. ويمكننا بحق أن نسمي هذه النظرة الثالثة عن حضارة السند بفكرة الانتشار: فقد حصل أناس كانوا قرويين فلاحين على فكرة الحضارة من سومر، من منطقة أنجزتها قبلهم، فصمموا على القيام بالشيء نفسه في سهل السند.

أعتقد أنني على مقربة من ويلر في نظراته، لكنني على مسافة تكفي لدفع نظرة رابعة، وإن كان يُظن في النهاية أنها قد لا تكون أكثر من تعديل لنظرة ويلر عن فكرة الانتشار. من الواضح تماماً عندي أن حضارة السند لم تكن مستعمرة لسومر أو مصر، وواضح تماماً أيضاً أنها لم تتطور بمعزل تام. فأصلها، مثل أصل الحضارة المصرية، يدين إلى انتشار مثير من السومريين. وأرى أن العملية قد حصلت على النحو التالي: كانت جماعات قروية أحرزت درجة من التطور في شمال غرب الهند على اتصال بسومر من خلال الخليج العربي في منتصف الألفية الثالثة ق م. كانت تلك القرى تحتوي أصلاً على إمكان اتحاد المدن، ولعل هذه الإمكانات استُغلت مؤقتاً وبلا نجاح في أماكن مثل آمري وكوت ديجي. على أنها أُفلح استغلالها في المنطقة من موهينجو – دارو إلى هرابا من لدن أناس استوحوا إنجازات السومريين في بيئة جغرافية واجتماعية – ثقافية مشابهة. وقد تكون للأفكار أجنحة، لكن ليس سوى معركة الفؤوس أو تقنية صياغة «القالب الشمعي» هي التي تسافر دون الناس. والرجال الذين ينتمون إلى قرى شمال غرب الهند الذين عادوا من رحلاتهم إلى سومر، وألقت سفنهم مراسيها في دلمون في الطريق إلى لوثال، هم الذين عادوا بفكرة، وهي في تقديري ليست فكرة حضارة، بل هي تخيل بلاد الرافدين، والمعرفة بأن القرى يمكن أن تتجمع معاً وتنمو إلى بلدات ومدن، وأن الحياة الحضرية الكتابية يمكن خلقها

إذا ما عملت بجهد وخططت بجهد وعرفت ما الذي ينبغي أن يحدث[أ].

إن تحقيق الإمكانات المتوفرة لاتحاد المدن، بالإضافة إلى المثير من سومر، هو الذي أنتج حضارة في الهند، كانت، كما قلنا، متطابقة مع حضارتي سومر ومصر في عناصرها الأساسية، لكنها في مظاهرها التفصيلية تختلف عنهما تماماً. فالنموذج هو نفسه، لأنه نموذج الحضارة، لكن النسيج الذي يحوكه ذلك النموذج تتنوع ألوانه في كل وادٍ من الوديان النهرية الثلاثة القديمة التي كنا نناقشها. وسنجد في الفصل التالي، حين نناقش رابعة الحضارات الأولى في العالم القديم، أن النموذج نفسه حاضر في الصين، وإن كانت ألوانه هناك مختلفة أيضاً.

(أ) [لست أدري كيف لم يفطن المؤلف إلى الدور في كلامه، فهو يفترض أنهم كانوا مزارعين يعيشون حالة ما قبل الحضارة، لكنه يفترض قيامهم بقطع البحار. وبالطبع تحتاج البحار إلى سفن كبيرة لا يمكن أن تنتجها سوى الحضارات المتقدمة المستقرة. ولعل للاتصال التجاري مع سومر دوره التحفيزي في عملية تحويل أهل وادي السند من مجتمع زراعي إلى مجتمع متمدن. وتولي النصوص القانونية السومرية والبابلية معاً أهمية بالغة للتجار، ولا سيما الأشخاص الذين ينوبون عن الدولة، وتطلق عليهم لقب (وكلو)، وهو مصطلح ما زال مستعملاً في العربية بصيغة (الوكلاء) – المترجم].

الفصل الخامس

الصين: حضارة النهر الأصفر

في الفصول الثلاثة السابقة كنا معنيين بالحضارات النهرية الثلاث القديمة في بلاد الرافدين، ومصر، ووادي السند. وننتقل الآن إلى رابعة الحضارات النهرية القديمة في العالم القديم، إلى حضارة النهر الأصفر في الصين.

قلتُ سابقاً إن كثيرين منا يتصورون، منذ أيام الدراسة الأولى، بأننا نعرف شيئاً ما عن المصريين القدماء، برغم أن ما نعرفه فعلياً عنهم قليل، وما نعرفه عن أصولهم أقل. وقد ورث الكائن الأسطوري، أعني القارئ العام، هالات الأسرار التي تحيط بمصر القديمة؛ وعلى النحو نفسه ورثنا جميعاً نوعاً من هالات الأسرار التي تحيط بالصين. إذ يظن أكثر الناس أن الصين كانت حقاً حضارة عظيمة اخترعت البارود وصناعة الورق؛ حضارة كانت قديمة حين زارها ماركو بولو وفرير روبروك في القرن الثالث عشر ب م. وقبل اكتشافات علم الآثار، لم يكن أحد مستعداً لتأمل وجود حضارات قديمة في بلاد الرافدين وشبه القارة الهندية، والشيء نفسه، في كريت. ولكن وجدت، حتى قبل أن يبدأ علم الآثار بإضاءة ماضي الصين، فكرة ترى أن الثقافة – أعني الثقافة العالية والصورة المعقدة من الثقافة العالية التي نسميها بالحضارة– تتمتع

بقدم كبير في الصين، كما تحظى بالقدم في مصر. وقد نقلتْ بعثات الجزويت التبشيرية إلى أوروبا في القرن الثامن عشر صورة عن صين قديمة جداً ترجع في تاريخها إلى الألفية الثالثة ق م.

هذه الفكرة عن قدم الصين المفرط هي الصورة الوحيدة من المواقف الكثيرة التي تبناها العالم الغربي عن الصين في السنين الألف الأخيرة. وقد أوجز هذا الموقف مؤخراً ببصيرة نافذة وفطانة وحكمة رايموند داوسن في مقالة بعنوان «المفاهيم الغربية عن الحضارة الصينية». وداوسن أستاذ محاضر في اللغة الصينية في جامعة أوكسفورد، ويشكل مقاله الفصل الأول من كتاب «تراث الصين»، الذي حرره داوسن نفسه[٨٠]. وفي هذه المقالة يدرج مختلف المفاهيم الغربية، أو ربما جاز للمرء القول المفاهيم الغربية المغلوطة، عن الصين التي ازدهرت في مختلف الأزمنة. وقد ذكرت سابقاً «الصين القديمة». وتتمثل النظرة الأخرى في كون الصين أرضاً تتمتع برخاء مادي كبير، وهي نظرة تدين بالجزء الأكبر منها إلى ماركو بولو والرحالة الآخرين من القرن الثالث عشر. وكان ماركو بولو يحب المبالغات – ولم يلقب بـ«المليون» اعتباطاً– ويتذكر المرء وصفه الشهير لـ«هانغ تشو» «بجسورها الحجرية الإثني عشر ألفاً، التي يرتفع أكثرها بحيث يمكن لأسطول جرار أن يعبر من تحتها»، وقوله إن الخان الكبير، في السنة

الجديدة، يتلقى في العادة «مائة ألف حصان أبيض مسرجة بغنى فاحش».

هذا الموقف المحب للصينيين، وهذه الأسطورة عن الصين الغنية بمناخها الصحي وفلاحيها السعداء المجتهدين وازدهارها الخرافي، بقيت موجودة حتى أواخر القرن الثامن عشر. في كتاب «مقال أول عن السكان»، المنشور عام ١٧٩٨، أعلن مالثوس أن الصين هي أغنى بلد في العالم، وفي السنة السابقة عليها كان السير جورج ستاونتن قد كتب: «فيما يتعلق بمنتجاتها الطبيعية والاصطناعية، وسياسة الحكومة واتساقها، واللغة، وأساليب الشعب وآرائه، وقواعدهم الأخلاقية ومؤسساتهم المدنية، وفي الاقتصاد العام واستقرار الدولة، تمثل الصين أعظم رعية جمعية يمكن أن يقدمها المرء للتأمل والبحث الإنسانيين»[٨١]. والمفارقة أنه حين ذهبت السفارة التي تزعمها إيرل مكارتني مع نهاية القرن الثامن عشر في محاولة إقامة إجراءات تجارية أكثر كفاية مع الصينيين، لم يستطيعوا العثور على إنجليزي واحد يحسن اللغة الصينية على الإطلاق، ولذلك اضطروا، على حد تعبير جون فرانسيس دافيس، «مكرهين وقد ألجأتهم الضرورة إلى الاستعانة بخدمات راهبين روميين لتوضيح الأهداف المهمة للبعثة كمترجمين»[٨٢]. ومن الواضح أن حب الصين والإعجاب بها لم يكن يمتد إلى قراءة الصينية والتكلم بها.

تغيرت صورة الصين كجزء من شرق ثري في ربع القرن التالي لمقالة مالثوس ونبذة ستاونتن عن سفارة مكارتني. كونت البعثات البروتستانتية نظرة متحاملة عن الصين: إذ كانت لديها «بلداً من الدرجة الثانية لا يسكنه إلا من يجب اعتبارهم بالضرورة، وقد فقدوا نور الإيمان، كائنات ناقصة»[٨٣]. غير أن هذه الصورة كانت قد وجدت سابقاً. ففي عام ١٧١٩ جعل ديفو روبنسن كروزو يقول: «يجب أن أعترف بأنه بدا لي غريباً حين عدت إلى الوطن، وسمعت ما يقوله أناسنا عن أمور السلطة الجميلة، ومجد الصينيين وبهائهم والتجارة عندهم؛ إذ بقدر ما رأيت بعيني، لم يظهروا لي سوى حشد وضيع من الوحوش الجهلة، القذرة، تتسلط عليهم حكومة لا تليق إلا بمثل هذا الشعب».

هذه المفاهيم المغلوطة الساحرة عن الحضارة الصينية أذاعها المبشرون والرحالة، وكثيراً ما يذيع المبشرون والرحالة، شعورياً أو لاشعورياً، المفاهيم المغلوطة. وأشاع المؤرخون المحترفون والآثاريون أيضاً من زمن لآخر، شعورياً أو لاشعورياً، بدورهم مفاهيم مغلوطة أخرى. من هذه المفاهيم أن الصين كانت في منجى من التغير، وظلت دائماً لا تتغير. قال ليوبولد فون تانكه، في كتابه «تاريخ العالم» (لايبزغ، ١٨٨١) إن الصين كانت دولة في «سكون أبدي»، ووصف أوليفر غولدسمث في كتابه «مواطن العالم» (لندن،

١٧٦٢)، الصين بأنها «إمبراطورية استمرت كما هي بلا تغيير على مدى تعاقب العصور الطوال». وكتب هيغل: «أمامنا أقدم دولة، وليس أمامنا ماضٍ، لكن الدولة التي توجد اليوم كما نعرفها لا بد أن تكون قد وجدت في الأزمنة القديمة. وإلى هذا الحد فإن الصين لا تاريخ لها». واعتقد كوندرسيه بالشيء نفسه لكنه لم يبرهن عليه: إذ تحدث عن «الركود المخجل في تلك الإمبراطوريات المترامية التي أخزى وجودها المتواصل آسيا أمداً طويلاً»[٨٤].

يتمثل المفهوم الدراسي المغلوط الثاني في أن الصين ذات قدم كبير، ويوفر دي كوينسي مثالاً جيداً على هذه النظرة. كتب يقول: «إن القدم المجرد في الأشياء الآسيوية في مؤسساتهم، وتواريخهم، وأنماط الإيمان لديهم..إلخ، هو من الإثارة عندي بحيث إن عمر العرق واسمه يستبد بحس الشباب لدى الفرد. فالشاب الصيني يبدو لي إنسان ما قبل الطوفان وقد تجدد». وأظن أن كثيرين من الناس ما زالوا يشتركون بفكرة قدم الصين الموغل وقدامة الحضارة الصينية الكبيرة، وقد أنحى رايموند داوسن باللائمة على كثيرين ممن يعتقدون أن اسم الصين «ما زال يقترن في الأساس بتوافه الأمور الصغيرة، مثل الضفيرة، والعينين المائلتين، والفوانيس، والمصابغ، والرطانة بالإنجليزية، وعيدان الطعام ومرق عش الطائر... حضارة عجيبة تشبه التصميم على صفحة وسادة»[٨٥].

لننتقل الآن إلى وجهة النظر التي يتبناها الصينيون أنفسهم عن ماضيهم. استُخلصت الصورة التاريخية عن الصين في عصور ما قبل البحث الأثري من الأساطير والخرافات والتواريخ الزائفة. وأول تاريخ هو بالطبع خلق العالم، الذي غالباً ما يُعزى إلى «بان – كو»، ودماره الكارثي عن طريق طوفان عظيم، ثم إعادة بنائه على يد «نو–وا»، الذي يُنسب له أحياناً خلق البشر. وفيما بعد جاء ملوك أسطوريون وأبطال ثقافيون، يُنظَّمون في مخطط يسمي ثلاثة سادة وخمسة أباطرة، ابتكروا السكنى والنار والزراعة والكتابة والمؤسسات الاجتماعية والسياسية. وأتبعت ذلك ثلاث سلالات تسمى «هْسيا» و«شانغ» و«تشاو» اعتبرت فاتحة الحقبة التاريخية. وكانت فلسفة كونفشيوس، الذي مات عام ٤٧٩ ق م، تصرّ على أن الصين كان يحكمها دائماً أباطرة وكانت دائماً خاضعة لحاكم مفرد. ووجد حكام قبل هسيا بدءاً بـ«تاي هاو»، الذي يقال إنه احتل العرش من عام ٢٨٥٢ ق م. ومن الممكن تفنيد كل هذا أو الكثير منه، غير أن بعضه خرافات واضحة وليست أساطير، وبعضه يقرب من التاريخ[٨٦].

ما لا يمكن تفنيده أنه في عام ٥٢ م نشر «يوانغ كانغ» كتاباً عنوانه «يويه تشويه شو»، وفي الفصل المخصص للسيوف يقتبس من فيلسوف تشاوي شرقي، اسمه «فينغ هو تزو»، قولاً للملك يويه إنه:

في عصر «هوان - يوان» و«شنغ- نون» و«هي - هسو»، كانت الأسلحة من الأحجار لقطع الأشجار وبناء البيوت، وكانت تُدفن مع الموتى.. وفي عصر «هوانغ - تي» كانت الأسلحة تصنع من اليشم، لقطع الأشجار وبناء البيوت وحفر الأرض... وكانت تدفن مع الموتى. وفي عصر «يو»، كانت الأسلحة تصنع من البرونز لبناء القنوات والبيوت. وفي الوقت الحاضر تُصنع الأسلحة من الحديد.

هذه الفقرة المميزة تشكل بحق استباقاً لنظام العصور الثلاثة عند تومبسن، أو نظام العصور الأربعة عند لوبوك في العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الجديد، وعصر البرونز، وعصر الحديد[٨٧].

وهكذا كان لدى الصينيين أنفسهم، بصورة نوع خرافي من التاريخ القديم، إدراك للتطور التقني الذي مرَّ به أسلافهم. ولننتقل الآن إلى ما يقوله علم الآثار عن أصولهم، لأن علم الآثار وحده هو الذي كشف لنا في نصف القرن الماضي حضارة الصين الأولى. بالطبع وصل الإغريق والرومان إلى الصين لكنهم لم يجلبوا معهم إلى العالم الغربي معرفة ببدايات الحضارة الصينية بأكثر مما فعل الإغريق في «تكسيلا» وعادوا إلى الغرب بمعرفة بدايات حضارة الهند وباكستان في وادي السند. كانت «آنيانغ»، مثل «موهينجو-دارو» و«هرابا» دفينة تحت الأرض، وقد انتظر الكشف عن شهادتها، مثلهن

أيضاً، فؤوس الآثاريين. وجرت أولى الاتصالات الغربية بالهند والصين مع الأباطرة التاريخيين وما قبل التاريخيين، وليس مع الحضارات الأولى[٨٨].

في القرون التالية للإسكندر الكبير تكونت إمبراطورية مترامية في الهند: فحكم «تشاندراغوبتا» من كابل إلى البنغال، وحكم حفيده «أسوكا»، الذي تملك من عام ٢٦٩ إلى ٢٣٢ ق م، ما يقرب من شبه القارة بأسرها. في الصين، كانت سلالة «تشن»، التي تأسست عام ٢٢١ ق م، تحكم كامل المنطقة من السور العظيم وصولاً حتى «تونغكنغ»؛ ويجب ألا ننسى مساحة الصين. فهي، مثل الهند، شبه قارة، تغطي منطقة تمتد مسافة ٣,٧ مليون ميل مربع، أي أنها أوسع من الولايات المتحدة بما يقارب ربع المساحة. وكانت مواطن هاتين الحضارتين المبكرتين خبيئة في جزء صغير من هذه الإمبراطوريات الآسيوية الكبيرة. في الهند، كان موطنها يقع في حوض نهر السند، وفي الصين يقع في حوض «النهر الأصفر». وقد ظهر الزراعيون الأوائل في الصين والحضارة الأولى فيما بعد في المنطقة التي تمتد إلى الغرب من الساحل تقريباً بين خط العرض الخامس والثلاثين والأربعين؛ وهذا يعني المجاري السفلى والوسطى للنهر الأصفر ما دام ينعطف انعطافة مفاجئة غرباً عند حدود إقليم «شانسي».

حتى عام ١٩٢٠، وبرغم وجود تقدير غامض وعام لدى

بعض الأوساط لقدم الحضارة الصينية القديمة، كان هناك الكثير من المفاهيم المغلوطة عن الصين، كما رأينا، وكان من المعتقد أن الصين ليس لديها ما قبل التاريخ. فقد أعلن الآثاري الفرنسي جاك دي مورغان، في كتابه «إنسان ما قبل التاريخ»، الذي نشر عام ١٩٢٥، أن «الحضارة الصينية يعود تاريخها إلى القرنين السابع أو الثامن ق م؛ ونحن نجهل تماماً ما قبل تاريخها». وفي عام ١٩٢٠، حين أصدر هـ. ج. ويلز كتابه «موجز تاريخ العالم»، وهو عمل من أكثر الأعمال تميزاً وأهمية، لم يكن فيه أي شيء عن الحضارة الصينية الأولى، وقال برتولد لوفر، في كتابه «اليشم: دراسة في الآثار والدين في الصين» (١٩٢٢)، إن الحضارة الصينية لم يكن لديها ما قبل تاريخ.

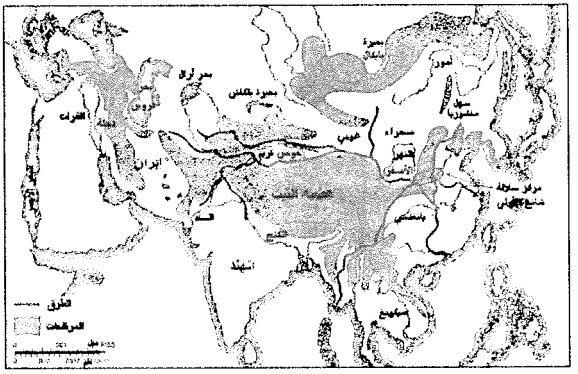

الشكل ١٠: آسيا، مع بيان مركز حضارة شانغ والطرق المؤدية من وإلى الغرب

في عام ١٩٢١، حدد السويدي، جون غونار أندرسن، موضع جماعة قروية فلاحية أولى من العصر الحجري الحديث في الصين من موقع نقّب فيه عند «يانغ شاو» في «هونان»، ومنذ ذلك الحين فصاعداً تم العثور على كثير من القرى من ثقافة «يانغ شاو». ينتشر توزيع هذه المواقع في الصين، وتعادل المنطقة الكلية لثقافة «يانغ شاو» منطقة الثقافتين في مصر القديمة أو بلاد الرافدين. كان لدى القرويين الصينيين الأوائل حنطة، لكن الحبوب الأساسية عندهم هي الدخن. ولا نعرف إلى أي حد دخل الرز في اقتصاد شعب يانغ شاو: لكن هناك آثاراً لحبوب الرز على كسرة خزف استخرجها أندرسن. كان قرويو «يانغ شاو» يربون الخنازير، والماشية، والأغنام، والكلاب، والدجاج، وربما الخيول. كانت قراهم غير محصنة أو ربما محصنة تحصيناً قليلاً، وكانت مبنية فوق مستوى الفيضان بقليل لتجنب الفيضان الموسمي. بقوا يدجنون دودة الحرير وكانت لديهم أنوال للنسج: إذ إن ملابسهم منسوجة من الحرير أو من القنب. وكانوا يصنعون القوارير، بعضها من النوع الرديء، وبعضها من النوع الجيد، وبعض القوارير الجيدة مزينة برسوم[٨٩].

يبدو أن أقدم تاريخ لقرى «يانغ شاو» يعود إلى الحقبة فيما بين أواسط أو نهاية الألفية الثالثة ق م. وهذا بالطبع متأخر في تاريخه كثيراً عن الزراعة الأولية وتاريخ أوائل المزارعين

الفلاحين الذين توطنوا في الشرق الأدنى القديم، أعني في شمال غرب آسيا؛ حيث وُجد المزارعون والفخاريون هنا قبل «يانغ شاو» بستة آلاف سنة. ونحن لا نستطيع أن نستبعد إمكان أن يكون مزارعو يانغ شاو قاعدة آسيوية بعيدة للاقتصاد القروي الفلاحي المبكر في شمال غرب آسيا. فمزارعو العصر الحجري الجديد يمكن أن يكونوا قد سافروا على طول الطرق الآسيوية المركزية التي استخدمها فيما بعد الإغريق ورحالة العصور الوسطى. ويمكن أن تكون قد حصلت ريادة في طريق الحرير في الألفية الثالثة ق م[٩٠].

من وقت لآخر، بقيت تسجل بعض التناظرات والتوازيات في بعض مظاهر العصر الحجري الجديد الصيني والعصر الحجري الجديد في الغرب. فهناك تناظرات بين التصاميم على بعض فخاريات يانغ شاو وفخاريات من سوسة في إيران؛ وتنطوي الأواني الكبيرة في «بان شان» في «كانسو»، دون ريب، على تشابه عام مع الجرار المرسومة من «تريبولي»، من «تريباليتي» خلال العصر القوقازي البرونزي، و«أناو» في تركستان. وحينئذ ذهب بعضهم إلى أن الحنطة والماشية والأغنام لدى جماعات العصر الحجري الجديد الصينية لا بد أنها جاءت من الشرق الأدنى. ولقوة هذا الأثر، ولأن نموذج الفكر ما قبل التاريخي في العشرينيات والثلاثينيات كان يقوم في الأساس على الفكر الانتشاري، فقد تم بناء فرضية غزو حمل

معه المزارعين الفلاحين الصينيين الأوائل من الشرق الأدنى. وقد ناصر كايلد هذا الرأي، لكن أندرسن لم يعبأ به[٩١].

حينئذ تغير الرأي في هذه القضية تغيراً ملحوظاً. يقول واطسن بصريح العبارة إنه «لا وجود لقضية انتقال كامل لأية ثقافة إلى الصين من الغرب البعيد». ويعبر ك. س. تشانغ عن وجهة نظر أكثر تصلباً حين يقول: «من الناحية العملية يستبعد الآثاريون جميعاً بدون تردد وجود بديل أول على أساس المواد المتوفرة»، والبديل الأول هنا هو الأصل الغربي للزراعة القروية الصينية. يدعو تشانغ بقوة إلى الأصل المحلي للزراعة الأولية في شمال الصين، وتطورها المحلي التدريجي إلى قرى يانغ شاو، وحين يصور مشكلة الأصول الزراعية في العالم القديم بأسره، يرى مركزين أصليين للزراعة، الأول في منطقة العراق – إيران – تركيا، والثاني في «هوانغ هو». يرى تشانغ أن انتشار الزراعة حدث من هذين المركزين على امتداد منطقة السهوب المتداخلة، ومن اتجاهات متقابلة بالطبع، ويستخلص وجود اتصالات متفرقة بطبيعة الحال. وهو يرى أن هذا يفسر المشابهات في الفخاريات المرسومة، وإليه أيضاً يعود انتشار الحنطة والأغنام والماشية من الغرب إلى الشرق. وهذا أيضاً مثال على انتشار المثير، وانتشار الأفكار، والمعرفة الفعلية، وبعض السمات الثقافية، من دون هجرة جماعية للناس. ويبدو لي أن هذه النظرة التي أطلقها تشانغ صحيحة،

وأن النظرة التي ما برحت تحظى بالقبول عن الأصل المستقل للزراعة الصينية هي أيضاً صحيحة.

لكننا كنا حتى الآن نناقش القرى الفلاحية التي كانت تقف، كما هو الحال في بلاد الرافدين ومصر والهند، وراء الحضارة الصينية الأولى. ولننتقل الآن إلى آثار هذه المدن الصينية الأولى. خلال العقود القليلة الماضية من القرن التاسع عشر، عثر مزارعون يحرثون في الحقول بالقرب من قرية صفيح في «هسياو تون» قرب «آنيانغ» في شمال هونان – في أقصى الطرف الشمالي من هذا الإقليم – على كسر عظام غريبة، كان بعضها مزخرفاً بعلامات. محلياً كانت تُدعى تقليدياً «ين هسو» أو «خرابة ين»: و«ين» هو صيغة أخرى من اسم «شانغ». أخرج العطارون الصينيون هذه الكسر الغريبة من العظام بعلاماتها المنقوشة عليها لاستعمالها كدواء. فقد كان معروفاً لديهم أنها عظام تنبؤية من سلالة شانغ أو ين. ولا بد من كلمة عن العظام التنبؤية. كانت تستعمل، كما يوحي الاسم، لأغراض العرافة، وهذا المنهج باستخدام العظام بقي حتى وقت متأخر لدى القبائل المنغولية. يُمرَّر رأس معدن محمي على أحد جانبي عظم كتف حيوان، أو أحياناً درع سلحفاة. فيحدث هذا شقوقاً على الجانب الآخر، غالباً ما تحصل تقريباً عند الزوايا القائمة حيث يلتقيان ببعضهما. وتأويل أشكال هذه الشقوق هو الذي يقرر أجوبة الأسئلة المطروحة على النبوءة، وهي

في العادة أسئلة تتطلب جواباً بسيطاً من نوع «نعم» أو «لا». واستخدام عظام النبوءة سمة مميزة لحضارة شانغ، وهي سمة ما زالت مستمرة. وقد ثبت أن تقنية قراءة الفأل، خلال حقبة شانغ كانت قائمة. في «آنيانغ» نفسها، كانت البقعة التي يوضع فيها المعدن المحمي لملامسة العظم تعد في الغالب بقطع كسرة دائرية تداخلها واحدة بيضوية. وكما قيل، «فإن مجرى الشقوق والأجوبة التي يفترض أن تقدمها كانت إلى حد ما تقرر سلفاً»[٩٢].

كان من الطبيعي أن يسعى الآثاريون والمؤرخون الصينيون إلى معرفة من أين جاءت عظام النبوءة هذه. هل جاءت من موقع ينتمي إلى شانغ؟ هل من الممكن أن تعطى سلالة شانغ شبه الأثرية مضموناً أثرياً؟ قاد البحث عن عظام النبوءة التي استخدمها العطارون الصينيون إلى «هسياو تون» بالقرب من «آنيانغ»، فبدأ التنقيب في «هسياو تون» عام ١٩٢٨ على يد «تونغ تسو- بن». ثم تولى العمل «لي تشي» كأول مدير ميداني من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٧ لحملة كبيرة نظمها «معهد البحث الوطني للتاريخ والفيلولوجيا في الأكاديمية الصينية»، بالاشتراك مع «صالة الفنون في معهد سمثسونيان». ثم جاءت الحرب، وبعد الحرب استُؤنف العمل. تأسس «المعهد الآثاري لأكاديمية العلوم الصينية» عام ١٩٤٩. فاستأنف د. هساي ناي العمل في «آنيانغ» عام ١٩٥٠، وفي عام ١٩٥٩ صار

بالإمكان الإعلان عن أن ما مجموعه ١٢٥ موقعاً شانغياً جرى التنقيب فيه.

تقع المواقع المهمة، مثل «آنيانغ» نفسها، بالقرب من المدن الحديثة. تلك هي بإيجاز قصة اكتشاف الحضارة الصينية الأولى: فهي أمر حديث جداً. وكما يقول د. تشينغ تي-كون في الجملة الافتتاحية من الجزء الثاني من كتابه «آثار الصين»: فإن «آثار الصين الشانغية لا يزيد تاريخها عن ثلاثين سنة فقط».

ليس من أهداف هذا الكتاب أن يصف الحضارات الأولى في العالمين القديم والجديد؛ بل يقتصر اهتمامنا على أصول هذه الحضارات كما يُنظَر إليها من دراسة المادة الأثرية؛ لكننا يجب أن نقول بعض الكلمات عن سكان آنيانغ ومدن شانغ الأخرى، التي ربما كان القارئ العادي يعرف عنها أقل مما يعرف عن السومريين أو المصريين القدماء أو سكان مدن السند. كان شعب شانغ مزارعين، وفي زمنهم كان سهل الصين الشمالي يعج بالحياة المزدحمة، ففي المدن والقرى عدد كبير يتزايد من السكان. كانوا يزرعون الشعير والحنطة والدخن (على نوعين - أصفر وأسود) والسرغوم [ذرة المكانس]. وقد ربّوا الخنازير والكلاب والأغنام والثيران. بنيت مدنهم على ضفاف الأنهار، ولا شك أن كثيراً من نقلهم جرى عن طريق المياه - على أطواف تصنع من الخشب أو البامبو. وشملت صنائع

المتخصصين والفنانين في مدن شانغ نحت الأحجار واليشم (بما فيه صنع أعواد اليشم لتنظيف الآذان)، والعاج والعظام والأصداف، وصنع الفخاريات، وتطعيم الأخشاب، والعظام والطلاء وصنع الزينات الذهبية وسبك النحاس والقصدير والبرونز. وكثير من هذا كان يؤدى ببراعة. يقول تشينغ تي-كون عن صنائعي شانغ: «كانت قدرته، ولا سيما في الحقب الأخيرة، تتخطى الحدود المجردة للمهارة التقنية». وبالطبع كانت كل هذه الحرفية والصنائعية تتركز في المدن والبلدات. وليس هناك ما يدل على وجود تجارة خارجية وإن كان قدرٌ منها لا بد أن يقع ما دامت بعض المواد المستخدمة قد جاءت من خارج حدود الصين.

كانت حضارة شانغ مجتمعاً يستخدم المعادن. فبرونزيات شانغ تضم أواني الأكل والشرب ومواعين الطبخ وقدوره، والأدوات والأسلحة، والعربات، وسلاسل الخيول، وزينات أخرى. وربما كانت أكثر الأواني تميزاً هي الأواني التي تستخدم للتضحيات للآلهة والأسلاف. وقد وُصفت صنعة إتقان البرونز بأنها «واحد من أبرز الفنون في العالم القديم، ضيقة في مساحة التعبير، ولكنها قوية بصورة مذهلة».

وكثير من برونزيات شانغ منقوش. يمكن العثور على هذه النقوش في أي جزء من الإناء – عند الطوق، على الكتف، على المتن، في القاعدة، في الداخل، على الغطاء، تحت العروة،

وغالباً ما يُدمج بنموذج تزييني. وهي نقوش قصيرة، إما أن تسجّلَ حدثاً (حرب، مكافأة..إلخ)، أو اسم قبيلة أو جداً أعلى، أو صانع الإناء، أو اسم نموذج الإناء نفسه. ودراسة كتابة شانغ هي فرع خاص جداً من الآثار والنقوش الصينية. ويستعمل الجزء الأكبر منها على الأصداف والعظام لنبوءات العرافة، ويُعرف باسم «شيا-كو-هسويه»، أو دراسة كتابة الصدف أو العظم.

يُقدَّر عدد الأصداف والعظام من أزمنة شانغ التي عُثر عليها حتى الآن في المنطقة بمائة ألف. وهناك ثلاثمائة باحث صيني منهمكون على فك شفرتها وترجمتها. تبين تسجيلات النبوءات هذه أن ملوك شانغ لجأوا إلى قراءة الفأل في جميع أنواع القضايا مثل احتفالات الأضاحي، والظواهر الطبيعية (كالجو والحصاد)، والمحاصيل والاستفسارات الزراعية العامة والحروب والحملات العسكرية والشؤون الخاصة بالملك (كالرحلات والأسفار والمرض والأحلام والميلاد.. إلخ)، والرفاهية العامة في المستقبل. ولسوء الحظ، ولأن نقوش النبوءة هي في الأساس عبارة عن استفسارات وأجوبة عنها تقدم لملوك شانغ، فإنها لا تعطينا فكرة كاملة وواضحة عن حضارة شانغ. بل تنحصر قيمتها في كون بعض ملوك شانغ لم يكونوا مخلصين لقراءة الفأل. أما من يمثلهم الملك «وو-تنغ»، فقد كان يستشير النبوءة من الناحية العملية في كل ما

يتعلق بحياته، وحتى حين يتعرض لألم أسنان كان يلجأ إلى العرافة ليعرف أيٌّ من أسلافه مسؤول عنه.

تفرع خط العرافة في شانغ مباشرة عن صيغة أقدم كانت كتابة صورية. ويرى تونغ تسو-بن أن الكتابة الصينية الأقدم تطورت تطوراً مستقلاً بين القرى الفلاحية في العصر الحجري الجديد في الألفية الثالثة ق م. وحسَّنَ صعود بيت شانغ الملكي وتطور مركز المدينة السياسي هذا الخط وطوَّره. وما جعل هذا يحدث هو ضرورة تمييز المُلْكية الخاصة وكذلك الاحتفاظ بالسجلات التاريخية وتسجيلات النبوءات.

والأصداف أو الودعات الصفراء كانت هي وسيلة التجارة والتبادل. فقد أعطى الملك «وو-تنغ»، الذي ذكرناه سابقاً، بناته خيطين من الودعات الصفراء لكل واحدة: كانت منظومة خمسة في كل خيط، ويشكل زوج منها «بينغ» - عشرة أرقام هي وحدة شانغ في الحساب- النظام العشري. وكان شعب شانغ يحسبون الزمان في وحدات من عشرة أيام ومائة يوم.

انتظم مجتمع شانغ في طبقتين - نبالة المحاربين الحاكمين والمزارعين القرويين: فقد كان، كما يقول «تشينغ تي-كون»: «مجتمعاً ينقسم إلى طبقتين وهو ما ظل سمة رئيسة تميز المجتمع الصيني منذ ذلك الحين». ومارس شعب شانغ عبادة أسلافهم وكثيرٍ من الآلهة السماوية والمعبودات

الأرضية. وكان لديهم عدد كبير من الطقوس التي يؤديها الكهنة والشامانات مصحوبة بالموسيقى والرقصات. وما من سبيل لاستعادة بناء هذه الموسيقى، لكن عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية عُثِرَ عليه بما فيها الطبول، والأُكرينات، وأحجار «تشنغ» الجرسية من اليشم والرخام، والأجراس.

يعود تأسيس عاصمة شانغ في «آنيانغ» على يد الملك «بان كينغ»، الذي انتقل إلى هناك من أقصى الشرق، إلى عام ١٣٨٤ ق م، ونهاية سلالة شانغ إلى عام ١١٢٢ ق م. لكننا نعرف الآن أن آنيانغ كانت عاصمة متأخرة لشانغ. وفيما يأتي الثبت الزمني التاريخي المقبول حالياً:

شانغ الأوائل، وهي ما زالت في الطور الحجري الجديد	٢٥٠٠ إلى ٢١٠٠ ق م
شانغ الأولى	٢١٠٠ إلى ١٧٥٠ ق م
شانغ الوسطى «حقبة السلالة الأولى»	١٧٥٠ إلى ١٤٠٠ ق م
شانغ الأخيرة	١٤٠٠ إلى ١١٠٠ ق م

ينحصر اهتمامنا هنا في الكيفية التي تحققت بها حضارة شانغ في الوجود. ويبدو الانتقال من القرويين الفلاحين في العصر الحجري الجديد إلى سكان المدن في عصر البرونز

غامضاً ومفاجئاً وحاداً. في غضون قرون قليلة صار القرويون يخضعون إلى سيطرة مدن مسوَّرة لدى حكامها أسلحة برونزية، ومركبات، وعبيد. ما الذي حدث؟ هل جاءت ثقافة شانغ من الغرب؟ أم أنها تطورت في شرق آسيا – في الصين نفسها؟ هل حصل اتحاد مدن محلي؟ وهل نحن نلاحظ في الصين حالة اختبار في دراستنا التجريبية لأصول الحضارة؟ هل وُجد، إذا جاز لنا استخدام هذه العبارة، اتحاد مدن صيني، كما وجد اتحاد مدن سومري، واتحاد مدن مصري، واتحاد مدن وادي السند؟ لقد ميزنا عمليتين حول اتحاد المدن في غرب آسيا ومصر: ورأينا أن اتحاد المدن السومرية كان أصلياً لم نجد فيه أثراً خارجياً، وهل كان بوسعه إلا أن يكون كذلك؟ ذلك أنها لم تسبقها حضارة قط. غير أننا اقترحنا أن العملية كانت مختلفة في مصر ووادي السند: ففي هاتين المنطقتين كان تطوير اتحاد المدن قد أثاره انتشار فكرة من بلاد الرافدين. كان السومريون مسؤولين إلى حد ما، وربما إلى حد صغير جداً، عن الانبثاق النهائي لحضارتي مصر والسند. ولكن ماذا عن صين شانغ؟ هل كانت قاعدة للسومريين، إن لم يكن عن طريق هجرة فعلية، فعن طريق عملية انتشار فكرة أو مثير؟ هل كانت، مثل حضارة السند، تطويراً محلياً استحثته وأثارته الاتصالات بالغرب الأقدم؟ أم أنها الجواب الذي تمثِّلُ فيه صين شانغ عملية مستقلة تماماً من اتحاد المدن؟

دعونا لا نخطئ في شيء واحد: من الواضح بعد أربعين عاماً من البحث الأثري في الصين أن حضارة شانغ متأخرة كثيراً عن حضارتي سومر ومصر، وربما متأخرة، أو لعلها معاصرة لحضارة السند. ولذلك لا يوجد سبب زماني تاريخي يحول دون أن تكون الصين مستعمرة للغرب. وقد تحدثنا سابقاً عن طرق الاتصال بين الشرق والغرب، وإذا كانت هذه الطرق قد سلكها الإغريق وماركو بولو، وكانت سالكة في أزمنة الفلاحين المزارعين في العصر الحجري الجديد، فمن الواضح أنه لا يوجد سبب يحول دون إمكان وجودها في الألفية الثالثة ق م.

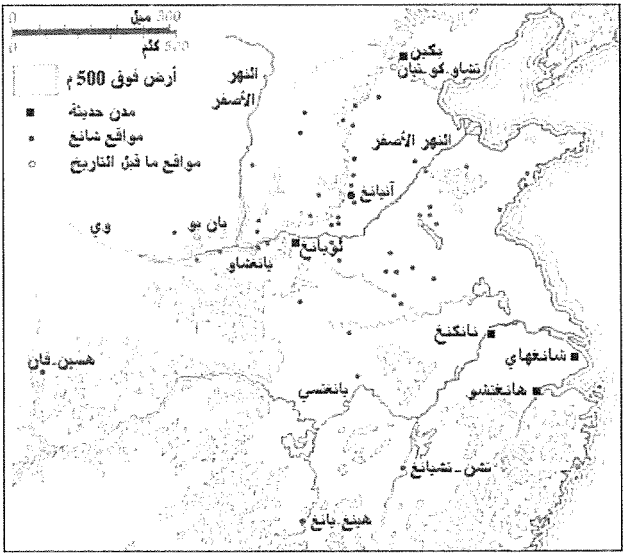

الشكل ١١: منطقة حضارة شانغ، مع بيان المواقع الرئيسة

لا ريب أن مجتمع شانغ يشبه بطرق كثيرة شبهاً كبيراً دويلات المدن في الشرق الأدنى في العصر الحجري. ويعبر واطسن خير تعبير عن المقارنة حين يقول: «ملك يجري تأليهه بعد موته، حاكم في نوع من الثيوقراطية؛ مذابح من الأضحيات البشرية عند مدافن الملوك، قصور ذات أعمدة، أسوار مبنية من التراب المسحوق، نقش أحجار صلبة (كاليشم)، نحت ابتدائي، تسليح يعتمد على المركبة والقوس، بعض أشكال العبودية (ربما بتجنيد أسرى الحروب مجاناً)، نظام من الكتابة التي تجمع بين المبادئ الصورية والصوتية».

لكن هل يعود التناظر إلى تطور متناظر أم إلى الانتشار؟ من القضايا المفتاحية في ذلك هو طريقة عمل البرونز، ومعرفة تعدين البرونز هي في الحقيقة لبّ المشكلة. في شمال غرب آسيا وأوروبا كانت هناك مرحلة ابتدائية من تعدين البرونز بقوالب مفتوحة تستخدم لسبك الفؤوس المسطحة البسيطة، والخناجر والمسامير. في الصين، لم يحدث هذا: إذ بدأ الحدادون، مباشرة، بتعدين معقد. فهم في البداية الأولى يصنعون أواني طقسية مزينة مزخرفة بعناية. وقد درس «لي تشي» برونزيات شانغ بالتفصيل وهو يوضح أن أكثرها يمكن إرجاعه إلى نماذج أولية غير معدنية.

وهناك حلول متعددة لهذه المشكلة عن أصول تعدين البرونز في الصين. يرى الأول وجود غزو على نطاق واسع لشعب

من الغرب، استوطنوا كأرستقراطيين قساة بين أبناء البلاد الأصليين في العصر الحجري الجديد وتنمروا عليهم. والثاني هو «التأثير التقني»، وهذه هي وجهة نظر واطسن. فهو يقول: «لا بد أن تكون المعرفة بسبك البرونز قد سافرت باتجاه الشرق من الشرق الأدنى كنواة لثورة تقنية واجتماعية...ويبدو مما لا يقبل النكران أن المعرفة بسبك البرونز جاءت إلى الصين من الغرب». لكن هذه النظرة لا يتبناها الآثاريون الصينيون الذين يكتبون في السنوات القليلة الماضية. إذ يعتقد «تشينغ لي-كون» أن عمل البرونز قد اختُرِعَ على نحو مستقل في الصين، وهو يقول إنه «لم يكن هبة من السماء، ولا نقله غزاة من غرب آسيا»[٩٣].

غير أن هناك أشكالاً غريبة في الصين، مثل صورة خاصة من نصل الرمح، والفأس ذي التجويف، وسكاكين على شكل رؤوس حيوانات شبيهة بسكاكين جنوب سيبريا، وربما بعض أجزاء المركبات - بل ربما فكرة المركبة وتصميمها أيضاً. والشيء المؤكد أنه، حتى لو كانت فكرة تقنية البرونز قد جاءت من الغرب، فإن تلك التقنية سرعان ما تم تطبيعها وتبيئتها في الصين تماماً. فصناعة البرونز في شانغ صناعة صينية في أسلوبها وطرازها منذ البدء المبكر. ويعبر واطسن عن هذا تعبيراً جيداً حين يقول، وهو يصر على كون تقنية السبك لا بد أن تكون قد جاءت من الغرب، «إن ثقافة دويلات

المدن الصينية ككل، في الأشكال التي استعمل فيها البرونز في الإنتاج وفي الفن، هي نمو فردي».

يبدو الآن لأكثر الناس أن مدن شانغ نفسها هي نتيجة نمو فردي. وهنا، كما في جنوب بلاد الرافدين، نحن نلاحظ عملية مستقلة من اتحاد المدن، وما برح تطور الآثار الصينية يكشف بالتدريج وباستمرار عن تعاقب ثقافات ما قبل التاريخ منذ العصر الحجري الحديث في «يانغ شاو» المبكرة حتى مدن شانغ الكاملة. إذاً فقد ولدت الحضارة الصينية في النهر الأصفر وعن طريق نمو محلي هناك: ويبدو أنها لم يعمها انتشار مثير من سومر كالذي دعونا إليه في مصر ووادي السند؛ ولكن يبدو أنها استعارت بعض السمات الثقافية من الغرب – وربما شملت الاستعارات، والأرجح أنها شملت بالتأكيد، تقنية عمل البرونز.

الفصل السادس

اكتشاف الحضارات الأمريكية

في عام ١٤٩٣، انساق «مركب شراعي» يقوده السيد الكبير «الدون كرستوبال كولون.. وكان يبحر في المحيط الغربي... إلى أرض مجهولة، لا وصف لها على خارطة أو دليل للبحر». لقد اكتشف الأدميرال كرستوفر كولومبس، وهو يبحث عن الأندين، أمريكا. وفي السنوات الأخيرة الماضية أصبح اكتشاف أمريكا من لدن عالم الغرب وأوروبا المتوسطية مرة أخرى قضية استطلاع عام واهتمام ساخن. فقد جعل نشر خارطة «فنلاند»[أ] الناس يتساءلون مرة أخرى كم أوغل الفايكنغ في أمريكا، وهل كان كولومبس وقباطنة البحر المتوسطيون في القرن الخامس عشر يعرفون بالفايكنغ أو الرحلات السابقة إلى أمريكا، إذا وُجدت حقاً. خرجت الأرانب القديمة من أوكارها، واستيقظت الحماقات السابقة جميعاً. أُعيد تصوير رحلات «داموك» المحتملة إلى أمريكا من ويلز في القرن الثاني عشر الميلادي، وأعلن أستاذ إيطالي في محاضرة عامة في فلورنسا أن «الأتروسكانيين» وصلوا إلى ما يسمى الآن غويانا في القرن الثاني عشر ق م[٩٤].

(أ) [فنلاند: Vinland أو Vineland: منطقة في أقصى الشمال الأمريكي يعتقد أن النرويجيين زاروها في الألفية الأولى. ويُرجح أن معنى اسمها هو «أرض الكروم» – المترجم]

يجب أن نميز هنا بوضوح جداً بين وقائع اكتشاف أمريكا، إذا صحت، من لدن القرون الوسطى الأخيرة والعالم الحديث قبل عام ١٤٩٢، وبين إمكان أو استحالة وصول الأوروبيين إلى أمريكا قبل كولومبس. وسواء أُوجد الفايكنغ، أو الويلزيون، أو الأتروسكانيون في أمريكا قبل كولومبس (وبالتأكيد وجد الفايكنغ والأرجح أنه لم يوجد الويلزيون أو الأتروسكانيون)، بالنسبة إلى العالم الحديث، العالم الذي بدأنا نعنى بأصوله البعيدة فيما قبل التاريخ، وأصوله التاريخية الأولية الأقل بعداً، فقد بدأت أمريكا مع كولومبس.

لكنه لم يكتشف ما نشير إليه الآن عموماً بأنه الحضارات ما قبل كولومبس. فهو لم يجد في الكاريبي أناساً متمدنين، بل متوحشين، وهو يصفهم في «يومياته» بأنهم ذوو أجساد وسيمة ووجوه جميلة، ملاحظاً أنهم يرسلون شعورهم فوق حواجبهم، وأن بعضهم كان مصبوغاً بالأسود أو الأبيض أو الأحمر، وأن عدداً منهم يحملون «رماحاً أسنَّتُها عظام الأسماك». وقدموا له هدايا من الببغاوات، ولبحارته كرات من خيوط القطن. صعدوا إلى سفينته في زوارق مصنوعة من جذوع الأشجار، المحفورة بعناية، تدفعها المجاذيف التي لا تختلف عن مجارف الأفران أو الخبازين.

أقام رجال كولومبس أول مستوطنة دائمة لهم في أمريكا الإسبانية عام ١٤٩٣. ودفعت شحة الأعمال في الوطن وأمل

العثور على الذهب بالإسبان إلى هناك. وأظهرت استكشافات بالبوا عام ١٥١٣ أنه لم يكن هناك سوى شريط ضيق من الأرض بين المحيطين الكبيرين – الأطلسي والهادئ. ذاعت شائعات في كل مكان عن مدن غنية وقوية، وحضارات مجهولة، وسر يتخفى وراء الجبال. في عام ١٥١٩، انطلقت حملة من كوبا يقودها كورتيس ونزلت عند «فيرا كروز»، وسلكت طريقها عبر الجبال إلى المدينة الكبيرة الأم «تينوكتتلان»، التي سقطت أخيراً في عام ١٥٢١. اختطف كورتيس «موكتيزوما»، كبير زعماء الحرب، ووضع نهاية مفاجئة لحضارة، هي حضارة الأزتيك، التي كان هو أول أوروبي يستكشف وجودها.

ذهب واحد من أكفأ ضباط كورتيس، واسمه بيدرو دي ألفارادو، إلى غزو منطقة مرتفعات غواتيمالا، وأسس هناك مدينة إسبانية عام ١٥٢٤. تم إخضاع مدن «ياكوتان» الرئيسية جميعاً بوحشية كبرى على أيدي الإسبان، رجال مكسيكو، كما كان يُطلق عليهم. وبعد خمس سنوات من استكشاف الساحل إلى الجنوب من بنما، نزل فرانسيسكو بيزارو مع ١٨٠ من رجاله فقط، على الساحل الشمالي من بيرو عام ١٥٣٠. وبعد ثلاث سنوات، استولى هو ورجاله، الذين صار عددهم الآن ٦٠٠ رجل، وحاصروا مدينة «كوزكو»، عاصمة الإنكا. وضع بيزارو حداً لإمبراطورية الإنكا في ظهيرة واحدة من تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٥٣٣[٩٥].

وهكذا في غضون خمس عشرة سنة، بين عامي ١٥١٩ و ١٥٣٣، كان العالم الغربي، عالم أوروبا الغربية والمتوسطية، الذي فكر حينئذ تفكيراً لا يتجافى مع طبيعته، بأنه كان الحضارة، وأنه لم توجد حضارات سواه، قد اكتشف وغزا – وربما كانت العبارة الأنسب أنه دمَّر بوحشية– ثلاث حضارات: حضارة الأزتيك في مكسيكو، والمايا في يوكاتان وغواتيمالا، والإنكا في بيرو.

وهنا في أمريكا نحن نهتم بظاهرة تاريخية وأثرية تختلف تماماً عن اكتشاف سومر القديمة، أو مصر القديمة، أو المدن القديمة في وادي السند، أو الاكتشاف الأثري لحضارة شانغ في الصين. فقد اكتشفت هذه الحضارات بالفأس والمجرفة، ولم يستغرق فك شفرة حجر رشيد أو نقش بهستون سوى مرحلة أو مرحلتين للعودة وراء التاريخ القديم المعروف. فكانت المجرفة في نقادة أو ميرادا، وفي أور أو أرك، وفي آنيانغ وهرابا، هي التي أعادتنا بالفعل إلى الماضي. أما الحضارات القديمة – أعني حضارات ما قبل التاريخ والتاريخية الأولية القديمة– في أمريكا الوسطى والجنوبية، فقد كانت حية تنبض، بالرغم من أن حياتها لم تكن تكفي، ونبضها لم يكن يقوى بما يكفي للتعرض للإسبان، في بواكير القرن السادس عشر الميلادي. وخلال سنوات قليلة، عاد الفاتحون ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف إلى الوراء، فقابلت أوروبا، في أمريكا القرن

السادس عشر، أن لم يكن ماضيها الخاص، فعلى الأقل صورة من ماضيها الخاص، وبعثتها حية.

لابد من قول كلمات قليلة عن الحضارات القديمة التي صادفها الأوروبيون في أمريكا. كان الأزتيك الذين أسسوا مدينة «تينوكتتلان»، التي صارت فيما بعد مدينة مكسيكو، شعباً محارباً إلى حد كبير: كانوا يعملون على الذهب والنحاس، ولديهم نظام في الحساب يقوم على العشرين، وتقويم وكتابة هيروغليفية. وفي أوجها، بلغ عدد سكان المدينة ما يقارب ثلاثمائة ألف نسمة. كانت تنقسم إلى ما يمكن أن نسميه بالأحياء، أو «الأقضية»، يقطن في كلٍّ منها مجموعة من الصنائعيين بصنعة معينة مع عوائلهم. تقع مدينة مكسيكو بالقرب من مقلع زجاج بركاني كبير، فكان الزجاجون الأزتيك يصنعون منه الأنصال لأمواسهم والسيوف والأدوات الأخرى، التي كانت تصدَّر بكثافة. وعمل الصنائعيون الأزتيك أيضاً باليشم، فكانوا صاغة مهرة، يصوغون الذهب بقوالب بسيطة وأيضاً بالقوالب «الشمعية». كانوا جواهريين رائعين، لكن جزءاً ضئيلاً من جواهرهم وصلنا: إذ أخذها الإسبان غنيمة، صهروها وأعادوا صياغتها. وبين الحين والآخر يتم العثور على قبر لم يُنهب كالذي كشف عنه ألفونسو كاسو في مونت ألبان عام ١٩٢٣.

ربما كان عمر العمل بالمعادن في المكسيك ثلاثمائة سنة

قبل زمن الغزو الإسباني. إذ صهر المعدِّنون النحاس وسبكوه، في الأساس على شكل أجراس. وكان النحاس المهيأ لأدوات مثل السكاكين يُطرَق بارداً. وفي زمن الغزو لم يكن النحاس قد بدأ بالحلول محل الأحجار البركانية والصقيلة: وإذا استخدمنا المصطلحات التقنية لنموذج العالم القديم فيما قبل التاريخ، فقد كان الأزتيك ما زالوا يعيشون في مرحلة العصر النحاسي. وكان لدى الأزتيك أهرامات، لكنها لم تكن قبوراً كالأهرامات المصرية. بل هي أقرب إلى الزقورات السومرية، إذ كانت مسارحَ بالمقلوب، إذا جاز التعبير. ففي قمة الهرم يوجد مذبح وأصنام الآلهة، ومن هذا الموقع العالي يتدبر الكهنة أضحياتهم البشرية: يفتحون أحشاء الضحايا الذين يتم اختيارهم بسكاكين زجاجية ويعرضون القلوب التي ما زالت تخفق على الملأ المحتشد حولهم. وأهرامات الأزتيك مبنية من الحجارة لكنها مبنية بأدوات حجرية، إذ لا يحتاجون إلى استعمال الأدوات المعدنية في بنائها.

وعند الأزتيك والمايا، وكذلك عند بعض المجموعات الأخرى في مكسيكو، كتب من جلود الغزلان يكتبون عليها بالأصباغ. وكانت الكتابة تصويرية مثل الهيروغليفية المصرية. وكان لدى موكتيزوما بيت مليء بهذه الكتب من جلود الغزلان، لكنها لم تكن أدباً، بل حسابات مطابخه. وهنا نتذكر طبيعة المدونات السومرية الأولى، وكذلك القوائم والمجارد.

وكان نظام العد بالعشرينات – النظام «العشروني»– عند الأزتيك يختلف تماماً عن أنظمة العالم القديم التي تستخدم العشرات والإثني عشر. وكانت حساباتهم تشتمل على الصفر والنظام الموضعي، وقد بقي كلاهما مجهولين في أوروبا الغربية حتى نقلهما لها العرب من الهند.

اكتشف الغزاة الإسبان المايا في غواتيمالا، وهندوراس، وجنوب المكسيك، الذين يعيشون في غابات وجبال مدارية. ولا يساور أكثر الناس أدنى شك في أن المايا أنتجت أرقى حضارة تم تطويرها في أمريكا في أزمنة ما قبل الغزو. وينقسم تاريخ المايا إلى فترتين رئيستين: الإمبراطورية القديمة، التي ازدهرت لمدة خمسمائة سنة بين القرن الثاني والقرن السابع الميلادي، والإمبراطورية الجديدة، التي تأسست زهاء عام ١٠٠٠ م وبقيت حتى وصول الإسبان في القرن السادس عشر.

كان المايا بنائين ممتازين وقد خلفوا منحوتات رائعة. وكان في المدينة النموذجية لدى المايا مركز ديني فسيح ذو صروح وأرصفة هرمية. وقد انهارت إمبراطورية المايا القديمة لأسباب غير معروفة بعد عام ٦٠٠ م بقليل. حينئذ ترك الناس مدنهم وهاجروا بالتدريج باتجاه الشمال وأخيراً استقروا زهاء عام ١٠٠٠ م في جزء من دولة يوكاتان المكسيكية الجنوبية. وقد بنت الإمبراطورية الجديدة صروحاً واسعة للعبة الثيران

شبه الدينية، التي ما زال بالإمكان رؤية أجمل ما فيها في مدينة «تشيتشن إتزا» في يوكاتان. وللعبة الثيران هذه نسخة مبسطة ما زالت تمارس اليوم في أجزاء من المكسيك، حيث يستخدم ثور مطاطي كبير، ومن أهم أهداف اللعبة ضرب الثور بحلقات مثبتة عالياً على جوانب الصرح.

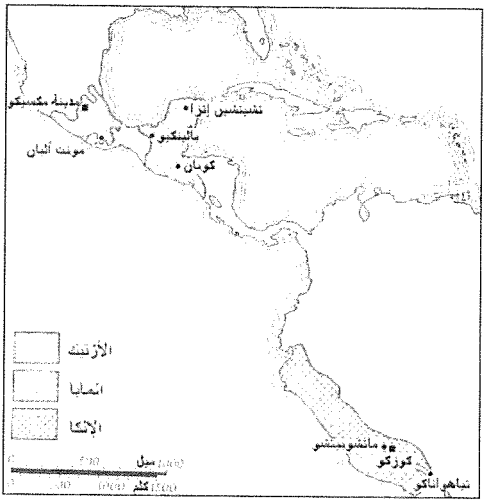

الشكل ١٢: مناطق حضارات الإنكا والمايا والأزتيك

لم تكن لدى المايا في غابات يوكاتان وغواتيمالا وهندوراس معادن على الإطلاق باستثناء شيء قليل جداً من الزينات الذهبية والنحاسية. بل من الأدوات الحجرية، والأدوات الحجرية وحدها، كانوا يعدون معابدهم وأهراماتهم ومسلاتهم الطويلة التي يغطيها النحت البارز والكتابات الهيروغليفية. ولم يستخدم المايا ولا حضارة الأزتيك الحيوانات القادرة

على احتمال الأعباء. إذ كانت تؤدى تجارة الأزتيك باستخدام ظهور البشر لنقل البضائع، غير أن لدى الأزتيك زوارق فكانوا يقومون ببعض الأسفار القصيرة وهم يجذفون زوارقهم ويدفعونها بالمرادي.

كان أساس حياة المايا، شأنه شأن الحياة في الحضارات الأمريكية الوسطى، يتمثل في زراعة تقوم على ثلاثة محاصيل: الذرة والفاصوليا والقرع. وكانت هذه نباتات حدائق؛ إذ يجري غرسها بالمجرفة، وبطريقة ما، كان كل شيء يدل على بستنة أكثر مما يدل على زراعة[٩٦].

حين غزا الإسبان بيرو عام ١٥٣٣، وجدوا إمبراطورية مترامية الأطراف، إمبراطورية الإنكا، التي تمتد من الإيكوادور في الشمال إلى ما يقارب منتصف تشيلي في الجنوب، وهي مسافة تزيد عن ٢٠٠٠ ميل وتشمل جزءاً كبيراً من مرتفعات بوليفيا والأرجنتين، لكنها تتوقف في الشرق عند الغابات الاستوائية في حوض الأمازون. كان ملك الإنكاويين، الإنكا، هو الذي يطلق عليهم هذا الاسم: والمعتقد أن الإنكا الكبير كان من ذرية الشمس. لبلادهم حضارة مرتفعات، وعاصمتهم هي «كوزكو»، التي ترتفع ١١٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر. وكانت إمبراطوريتهم تتبع إلى درجة كبيرة خطوط جبال الأنديز، لكنها شملت الشريط الضيق للأراضي المنخفضة على ساحل المحيط الهادئ.

كانت دولة الإنكا منظمة غاية التنظيم، يسيطر عليهم الحاكم الأعلى، الإنكا، وعشيرته الملكية. ولم يكن لدى الإنكا صيغة كتابة، ولا نقود، لكنهم احتفظوا بحسابات دقيقة عن طريق استعمال خيوط معقودة وملونة تدعى «كويبوس – quipus» كان لديهم نظام واسع من الزراعة بالأظلة، وقد بنوا قلاعاً كبيرة ذات جدران محصنة من الناحية العملية. وعلى طول امتداد الهضبة والساحل بنى الإنكاويون شبكة من الطرق لا تقل جودة عن الطرق التي بناها الرومان في أوروبا. في الجبال كانت الطرق ضيقة ومبنية من الحجر؛ أما الطريق الساحلي الكبير فكان عرضه ٣٠ قدماً وتنتصب على جانبيه جدران طينية حتى لا يتعرض للرمال. وفوق الصدوع العميقة استخدم مهندسو الإنكا جسور حبال معلقة. وعلى طول هذه الطرق كان موظفو إمبراطورية الإنكا يسافرون مشياً على الأقدام لحفظ النظام في البلاد، وجمع الضرائب، ورؤية تنظيم التجارة. كان لديهم نظام رسل إمبراطوري وبهذا النظام والطرق السالكة تمكنوا بنجاح من حكم عدد من الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة.

من الناحية التقنية، كان الإنكا يعيشون في عصر برونزي كامل حين اكتشفهم الإسبان. عمل صنائعيوهم السكاكين والأزاميل والفؤوس من مزيج من النحاس والقصدير، لكن هذه الأدوات لم تكن صلبة بما يكفي لقطع الصخر المستعمل

في كثير من مبانيهم. كان يتم تشكيل مبانيهم العظيمة، مثل نظائرها عند المايا والأزيتك، بأدوات حجرية.

كان الإنكا على معرفة جيدة بالقضايا الفلكية وقد حسبوا طول السنة الشمسية عن طريق ما لا يمكن وصفه إلا بأنه مراصد. وقد أحرزوا كثيراً من التقدم المتميز في الجراحة وتمكنوا من تأدية عدد من العمليات الصعبة بنجاح. وفي المدن الساحلية كان الإنكا يعملون في صفوف من الأنوال: وليس من شك في أن شعب بيرو القديم كان ينتج أنسجة إنتاجاً جملياً. ويعتقد كثير من الحكام الأكفاء أن بضائع القطن والصوف التي عُثِرَ عليها في مئات متعددة من مقابر الإنكا إنما هي من أروع المنسوجات في أي مكان في العالم.

ولا خلاف في مزايا حضارة الإنكا. فهم قد تعلموا في المرتفعات أن يزرعوا البطاطا والكِنْوا. كما أنهم دجّنوا نوعين صغيرين من فصيلة الجمال هما تحديداً «اللاما» و«الألباكا». وكانت هذه الجمال عندهم حيوانات للحمل في النقل وكذلك للاستفادة من صوفها ووبرها وسمادها ولحمها[٩٧]

حين تغلغل كورتيس وبيزارو في مكسيكو وبيرو، فقد كانا يستكشفان العالم الجديد، عالم الأمريكيتين الجديد، لكنهما أيضاً دخلا إلى الماضي، ووجدا عالم الأمريكيتين القديم. وكما قال كارلتون كون، فإن ما أفلح فاتحو القرن السادس

عشر هؤلاء في القيام به هو ما يحلم كل عالم آثار في القيام به، أي التخطي رجوعاً في الزمان:

حين دخل كورتيس ورجاله وادي المكسيك، فقد كانوا يتمشون في حضارة من العصر المعدني المبكر تضاهي في كثير من نواحيها حضارة مصر في أزمنة ما قبل السلالات الأخيرة وبواكير أزمنة السلالات، كما تشبه حضارة سومر. تخيلوا أن السير ليونارد وولي، وهو يكشف عن المقبرة الملكية في أور، يقابل الملوك والملكات والجنود والجواري، وكأنهم انبعثوا من جديد وقدموا له قدحاً من الشاي[٩٨].

لم يكن الأزتيك والمايا والإنكا ما توقعه الإسبان. كان الإسبان يتوقعون الهند. لكن ما اكتشفوه كان عالماً مفقوداً – أي عالماً متمدناً مفقوداً. وقد أثار اكتشاف هذه الحضارات الضائعة سؤالاً مهماً في أذهان مفكري القرن السادس عشر وما بعده في أوروبا – ألا وهو السؤال عن أصول ثقافة الإنسان وبتحديد أكثر تلك الثقافة العالية التي انقلبت إلى حضارة. وكما نرى اليوم، فقد كان السؤال ينطوي على عدة أسئلة: الأول، كيف وصل الإنسان المتوحش إلى أمريكا؟ والثاني، كيف تحققت في الوجود المجتمعات البربرية، أي المجتمعات الزراعية أو البستنية الأولى، وفي المحل الثالث، كيف حصلت المجتمعات الأمريكية المتحضرة؟[٩٩]

والسؤال الثالث هو الذي يعنينا هنا: كيف تحققت حضارات أمريكا الوسطى وبيرو في الوجود؟ ما أصل حضارات أمريكا الوسطى وأمريكا النووية بشكل عام؟ وليكن استخدام هذه المصطلحات واضحاً في أذهاننا. لقد حدّد بول كيرتشوف أمريكا الوسطى بأنها تضمّ حضارتي المكسيك والمايا. والمقصود بأمريكا النووية الثلثان الجنوبيان من المكسيك، وجميع أمريكا المركزية وكولومبيا الأندية والساحلية، والإيكوادور والبيرو مع بعض أجزاء بوليفيا. كان هذا قلب الزراعة الأمريكية الأصلية وقلب حضارات ما قبل كولومبس الأصلية.

لم تلقَ الحضارات ما قبل التاريخ والتاريخية الأولية حتى وقت قريب سوى اهتمام ضئيل من مدارس علم الآثار الأساسية في أوروبا. ولا يعود السبب في ذلك إلى غياب اهتمام وحسب: بل اعتقد كثيرون لمدة طويلة أن أمريكا ما قبل كولومبس كانت عديمة الأهمية؛ أي أن الأشياء المهمة فعلاً في تاريخ الإنسان المبكر وحضارته تكمن في ثورة العصر الحجري الجديد والثورة الحضرية في الشرق الأدنى. وقام غوردن كايلد بالكثير، شعورياً ولاشعورياً، لتعزيز هذا الموقف. ففي كتابه «ما حدث في التاريخ» – وهو عنوان استفزازي على أية حال باعتبار أن ما يقال فيه توقف قبل ألف وخمسمائة سنة– الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٤٢، أكّد على أن ما درسه

كان «التيار الأساس» في التاريخ. وما زال هذا الكتاب يُطبَعُ، وينبغي أن يظل يطبع، فهو يقدم نبذة جيدة ومقنعة عن أصول الحضارة في الشرق الأدنى القديم. لكنه في الوقت نفسه مقيد بحدوده – فهو لا ينطوي على أية نبذة عن صين شانغ، ويخلو تماماً من أية إشارة إلى الحضارات القديمة في أمريكا: وعبثاً تبحث في فهرسه عن آنيانغ أو الأزتيك أو الإنكا أو المايا أو بيرو. كان كايلد أبرز ممثلي مدرسة أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين من مؤرخي ما قبل التاريخ والتاريخ الأولي الذين رأوا أن مشكلة الماضي تكمن في مشكلة أصول الحضارة الأوروبية – أي مشكلة ما يكمن وراء الإغريق وروما. وكان هذا هو الشرق الأدنى الأقدم – أي سومر والهلال الخصيب ومصر. مرة فاتحتُ كايلد حول إهماله لحضارات أمريكا النووية، فأنكر سؤالي قائلاً: «لم يكن يحيط بذلك شك كبير». وفي كتاب مطبوع مؤخراً بعنوان «المجتمعات البدائية»، يكتب البروفيسور استيوارت بيغوت قائلاً: «لا نستطيع أن نتهرب من الشعور بأن ثقافة أمريكا الوسطى حتى في أرقى أطوارها، لم تكن (إذا ما استعرنا عبارة الكاتب من القرن السابع عشر روجر نورث) سوى ما يفترض أن يبتكره بربري استثنائي مقدام حكيم». وكما قلت في مراجعة هذا الكتاب، في مجلة «المتفرج»، فبالتأكيد كانت الحضارات السبع الأولى جميعاً من ابتكار البرابرة. وبمعزل عن زراعات البرابرة، فلم يكن هناك سواهم من يبتكر الحضارة، ولقد قاموا بذلك لإقدامهم

وسمو نفوسهم. ولا تجري حضارات الصين وأمريكا النووية في التيار الأساس لتطور الحضارة الأوروبية الغربية، لكنها حضارات، والدليل الأثري على تكوينهم ذو قيمة كبيرة في دراسة الدليل الأثري لتكوين الحضارات القديمة على النيل ودجلة والفرات والسند.

لا نستطيع أن نستبعد السؤال الثالث الذي أثرناه على أنفسنا، سؤال أصل الحضارات الأمريكية ما قبل كولومبس بالقول إنها لم تكن حضارات أو إنها تسلك منتصف الطريق إلى الحضارة. فوفق التعريف الذي تبنيناه هنا، كان الأزتيك والمايا والإنكا متحضرين ومتمدنين؛ ويمكن مقارنة مجتمعاتهم، وإن يكن على مستوى خفيض من الإنجاز – وينبغي ألا نكون متمزمتين بهذا الخصوص– بمجتمعات المصريين القدماء والسومريين، وشعب موهينجو – دارو وهرابا وشعب صين شانغ. بل إن أحد الأشخاص فكّر أنهم أكثر تحضراً مما كان عليه العالم الغربي: وكان هذا الشخص هو ألبريخت دورر. عام ١٥٢٠ رأى دورر في أنتويرب الكنز الذي أعطاه زعيم الأزتيك «موكتيزوما» – إذا صحت كلمة «أعطى» هنا– لكورتيس حتى يقدمه إلى شارل الخامس، وجعله شارل الخامس يدور ليعرض في مختلف المدن التابعة له. كانت أنتويرب واحدة من هذه المدن، وهناك كتب دورر: «لم أرَ في حياتي ما يبهج النفس أكثر من هذه الأشياء».

سقطت حضارات العالم الجديد في الجزء الأكبر منها

مرة أخرى في هوة النسيان بعد اكتشافها. لم يكن الإسبان والبرتغاليون يعبأون بها فعلاً، وأهل أمريكا الشمالية، كما قال جاكيتا هوكس، «لم يكن لديهم وقت. كان أكثرهم يشغله بناء حضارة جديدة عن الالتفات إلى الحضارات القديمة»[١٠٠]. لكن العالم القديم شرع فيما بعد بالاهتمام بقدم العالم الجديد؛ في أواخر القرن الثامن عشر أرسل لويس السادس عشر الطبيب وعالم الطبيعة الفرنسي يوجين دومبيه إلى بيرو للوصف والتنقيب، ويمكن العثور على مجموعة دومبيه في مدريد وفي «متحف الإنسان» في باريس. وقد جرى أول مسح جدي للأنصاب الأمريكية المركزية تحت رعاية شارل الرابع ملك إسبانيا الذي أرسل فرنسياً هو القبطان غيوم دوباس، مع الرسام الإسباني كاستينادا لكتابة تقرير عن الأطلال المكسيكية، وقاما بحملتين بين عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٧. لقد بدأت العملية، كان الرحالة الأثري يستكشف في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أي اتصال مباشر شُهِدَ ودُمِّرَ قبل ثلاثمائة سنة فقط.

حينئذ، بعد أن شعر أهل أمريكا ما بعد كولومبس بالأمان في حضارتهم التي خلقوها من جديد، بدأوا بدراسة أزمنة ما قبل كولومبس؛ وفي نصف القرن الأخير صبوا النقود والمبادرات والطاقة على دراسة ماضي العالم الجديد. وحينئذ قدموا، من خلال سلسلة متألقة من الاستطلاعات والتنقيبات المخطط لها، أجوبة عن الأسئلة الثلاثة حول ماضي الأمريكيين الأصليين،

أجوبة تلقي كثيراً من الضوء ليس فقط على ماضي أمريكا، بل هي ذات أهمية كبيرة لأية دراسة عامة حول أصول الحضارة في العالم ككل.

لقد تبنينا في أوروبا النموذج التقني لمساعدتنا على العناية بالمادة الأثرية في بواكير القرن التاسع عشر وأواسطه: وكان نموذجاً صالحاً، ومفيداً، وإن كان استخدامه قد أصبح محدوداً. ولهذا السبب تتحدث الكتب المنهجية عن العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الجديد، وعصر البرونز، وعصر الحديد – وهي عصور لوبوك الأربعة التي طوّرها عن العصور الثلاثة عند تومسن. وفي البداية استخدم الآثاريون الأمريكيون هذا النوع من المصطلحات لأغراض التحليل الوصفي للمواد ما قبل كولومبس، لكنه لم ينفع وسرعان ما بدأوا بتوليد أنظمة جديدة وجهاز اصطلاحي جديد، وهذا ما سنناقشه في الفصل التالي. ولنعد الآن إلى النظرات المتعددة التي وضعت حول أصول الأمريكيين والحضارة الأمريكية، في الغالب دون ذرة واحدة من الدليل الأثري[١٠١].

لم يولِ كثيرٌ من النظريات التي وضعت، في الغالب بانفعال وحماس – أحياناً انفعال ديني وحماس صوفي– أي اعتبار للوقائع أو الطريقة التي تُرتَّب فيها الوقائع وتصرَّفُ في إطار مدرسي وإنساني وعلمي للنقاش. وتوفر مشكلة أصول الإنسان والحضارة في أمريكا مثالاً من الأمثلة الكلاسيكية

على الكيفية التي تنتج بها الدراسة الفعلية جميع الغرائب. وربما كان لهاري غلادون الحق في وصمنا جميعاً ممن بدونا له وكأننا نثبِّتُ خط تأسيس في هذه القضايا باعتبارنا «متدكترين» (Phuddy-Duddies) – وهذا اسم جميل جداً للناس الذين يحملون شهادات الدكتوراه– إذا كان يعني به الباحثين المتخندقين. وبالتأكيد نحن محقون في تسمية كثير من الرجال والنساء الذين سنناقشهم بعد حين بأنهم عجائب زيادات المجاذيب في عالم الآثار والأنثروبولوجيا والتاريخ القديم. وقد وضعت كل نظرية يمكن تخيلها عن أصل الإنسان وحضارته، في أمريكا كما في كل مكان، ولهذا السبب نحن نناقش هنا الضوء الذي يسلطه علم الآثار على هذه المشكلة. فهي تزيل خضراء الدمن عن الأعشاب البرية التي تنمو على زيادات المجاذيب فوق المروج الصعبة، التي إذا أُحسِنت زراعتها، تبدأ الحقيقة بالإثمار. وليست الدراسة الاحترافية لعلم الآثار الأمريكي بالشيء الذي لا يخطئ بالضرورة، بل ما زالت حقلاً شاباً، قياساً بعلم الآثار الخاص بأوروبا والشرق الأدنى؛ غير أن النتائج التي حققتها في فترة قصيرة نسبياً ما زالت لا تحظى بالعناية. وسوف نناقش هذه النتائج في الفصل التالي؛ أما هنا والآن فينحصر اهتمامنا بالنظريات غير الأثرية عن الأصول الأمريكية، أو بتعبير أفضل، نظريات الأصول الأمريكية، التي اعتمدت على وقائع غير موجودة أو أُسيء تقديمها.

أُوجِزت هذه النظريات في كتاب شيق نشرته عام ١٩٦٢ مطبعة جامعة شيكاغو: وكان بعنوان «القبائل الضائعة والقارات الغارقة»، وقد كتبه روبرت ووتشوب، أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة تولن ومدير «معهد البحث الأمريكي الأوسط». يمكن أن يُزعَمَ أن هذا الكتاب، وما سأقوله أيضاً، هو مجرد تقويم للزلات والحماقات الإنسانية التي يحسن مؤرخو علم الآثار والأنثروبولوجيا نسيانها أو تذكرها، والميل المغروس في الإنسانية إلى البحث عن مواساة اللامعقول. غير أن الأمر ليس كذلك: فهذه النظريات تبرز باستمرار، وسيكون قارئ هذا الكتاب محظوظاً على نحو استثنائي ومرفهاً إن لم يواجه في وقت ما بعض غلاة المجاذيب هؤلاء.

كما قلت سابقاً، مع نشر خارطة فنلاند، انطلقت الأرانب القديمة من أوكارها مرة أخرى، وإذا شئنا أن نخلط الاستعارة، فقد تم امتطاء الأحصنة الخشبية القديمة من جديد. ودعونا أولاً نوضح علاقة خارطة فنلاند – التي يرى بعضهم أن كولومبس اطلع عليها– بهذه المشكلة العامة. تظهر أراضٍ شاسعة اسمها «أنتيليا» في جميع خرائط القرن الخامس عشر وبواكير القرن السادس عشر تقريباً. رجع كولومبس إلى مخطط توسكانيلي عام ١٤٧٤؛ وهو يُظهِر أنتيليا مباشرة على الخط الواصل من جزر الكناري إلى اليابان. ويقال إن كولومبس قد شكل مجرى طريقه استناداً إلى هذه الجزيرة، فأبحر غرباً لمسافة

ألف وستمائة ميل بحثاً عنها. وسواء أكان وجود أنتيليا على هذه الخريطة أو غيرها من الخرائط هو من ذاكرة الفايكنغ واكتشافهم لأمريكا، أو هو مجرد ابتكار خالص، فأمر لا بالعير ولا بالنفير.

الأمر المهم في هذه القضية أن الفايكنغ أنفسهم وصلوا بالتأكيد إلى أمريكا. لكننا لا نعرف كم أوغلوا نازلين على ساحل أمريكا الشرقية. ومن المعتاد القول إن أرض فنلاند لا بد أن تعني «أرض الكروم» وإن الفايكنغ لذلك لا بد أن يكونوا قد سلكوا بعيداً إلى الجنوب لكي يحصلوا على الأعناب البرية. لكننا من ناحية أخرى نعرف أن فنلاند لا تعني أرض الكروم والخمور، بل فقط «أرض المروج»[١٠٢].

بالتأكيد هناك دليل أثري ضئيل جداً على وجود الفايكنغ جنوب مستوطناتهم المعروفة في غرينلاند. ويُزعم من وقت لآخر وجود دليل أثري، وأن الأمر لم يعد مجرد صخب، بل له مرجعية من نوع ما، كما هو الحال في الدعاوى التي أحدثها حجر كينسغتن من مينيسوتا. وكثيراً ما تكرر الزعم أن هذا حجر أمريكي قديم جداً، ولكن يبدو أنه من تزييف أواخر القرن التاسع عشر. على أنه مؤخراً، تم العثور على موقع مثير، ربما يعود للفايكنغ، في نيوفاوندلاند في مكان يدعى «غار المروج». وقد أجرى التنقيبات فيه هيلغه إنغستاد من أوسلو الذي وجد مادة أثرية واقترح أن تاريخها يعود إلى القرن العاشر، وقد

تأكد هذا التاريخ بتحليل الكاربون ١٤.

غير أن هذا التاريخ من القرن العاشر لا يعني أكثر من أن الفايكنغ ربما نقلوا الحضارة الأوروبية إلى أمريكا؛ لأن الإنسان وُجد في تلك القارة قبل الفايكنغ بمدة مديدة – والأكثر أهمية– أنه خلق الحضارات هناك قبل زمانهم بقرون.

وتصح المصاعب نفسها على القديس براندن ومادوك: فهذان الرحالتان المسيحيان الإيرلندي والويلزي لا يمكن أن يكونا قد أخذا الحضارة من الغرب الكلتي إلى أمريكا، لأن المجتمعات المتحضرة سبقتهم هناك بحقب مديدة. ويصح الشيء نفسه على الفكرة العجيبة الغريبة جداً لدى هارولد س. غلادون، الذي اقترح كتابه «رجال خرجوا من آسيا»، الصادر عام ١٩٤٧، بين ما اقترحه من أفكار غريبة، أن الناجين من حطام أسطول الإسكندر الكبير وجدوا طريقهم إلى أمريكا في القرن الرابع ق م، وخلقوا هناك بعض الحضارات الأمريكية المبكرة.

تنفتح فرضية قبائل إسرائيل الضائعة على الاعتراضات نفسها. وقد عرض الفيكونت كنغزبورو هذا المذهب في كتابه ذي المجلدات التسعة المعنون «آثار المكسيك»، الذي نشر بين عامي ١٨٣١ و١٨٤٨. كان كنغزبورو مقتنعاً بأن المكسيكيين منحدرون من صلب عشر قبائل (وبعضهم يقول: تسع قبائل ونصف) من قبائل إسرائيل التي أجلاها ملك آشور من السامرة

عام ٤٢٢ ق م[ب]. بالطبع لم يكن كنغزبورو أول شخص يضع هذه النظرية. فقد نوقشت منذ العام ١٥٣٣ فصاعداً، لكن كنغزبورو هو الذي استفاض بها في هذا الاتساع الكبير، ووصل بها لهذا السبب إلى حد الإملال.

يعتقد كثير من الناس على نطاق واسع أن «سفر مورمون» يهتم بمذهب «قبائل إسرائيل الضائعة» وهجرتها إلى أمريكا، لكن هذا شيء غير صحيح.. على أن الصحيح هو أن كنيسة يسوع المسيح لدى القديسين المتأخرين عملت على أن تبرهن – ولعل من الحكمة القول إنها تحاول أن تبرهن– على أن اليهود جاءوا من منطقة البحر المتوسط إلى أمريكا، وهناك أوجدوا أول حضارة ما قبل كولومبية. تضع المادة ٨ من الفصل ١٥ من «مواد الإيمان لسفر مورمون» اعتقادات الكنيسة بأن أمريكا استوطنها «الياريديون» الذين جاءوا مباشرة من برج بابل، ولحقهم الإسرائيليون من أورشليم الذين بنوا المدن العظيمة ما قبل الكولومبية في أمريكا النووية. والياريديون،

(ب) [هكذا يرد التاريخ في الطبعتين. ولست أدري هل ينقله المؤلف عن كنغزبورو أم لا. لكن المعروف أن الآشوريين قاموا بعدة حملات على فلسطين، من أقدمها حملة شيلمنصر الخامس (٧٢٦ – ٧٢٢ق م). ثم تمكن الآشوريون من إخضاع مصر. غير أن الآشوريين اختفت دولتهم من الوجود عام ٦١٢ ق م في تحالف بابلي ميدي تزعمه الملك البابلي نبوبولاصر. وفي عام ٥٠٦ ق م تمكن ابنه نبوخذنصر الثاني من إجلاء اليهود عن فلسطين. وفي عام ٥٣٩ ق م سقطت السلالة البابلية الأخيرة على يد كورش الفارسي، مؤسس السلالة الأخمينية. وفي عهده بدأ اليهود بالعودة إلى فلسطين. والتاريخ الذي يذكره المتن يتزامن مع حكم دارا الثاني. انظر حول هذه الفترة: طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٧٣. وساكز: البابليون، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة – المترجم].

في هذا العرض، هم السومريون. وإلى قائمة أسلاف أمريكا الوسطى من المتوسطيين والقادمين من الشرق الأدنى يجب أن نضيف الفينيقيين والقرطاجيين والإتروسكانيين؛ ولا يكاد يوجد شعب إلا ووضعه الدارسون السطحيون والمنفلتون لمشكلة الأصول الأمريكية في هذه القائمة.

ولكن من بين جميع الشعوب التي ادُّعيَ أنها أسلاف الحضارات الأمريكية القديمة، حظي المصريون القدماء بالشعبية الأكبر، وكان الشخص المسؤول عن ذلك في الأساس هو السير غرافتن إليوت سمث. كان إليوت سمث أسترالياً عمل أستاذاً للتشريح في كل من القاهرة ومانتشستر ولندن. كان تشريحياً عظيماً، وأستاذاً لامعاً، وباحثاً مميزاً في عمله حول الأجناس البشرية القديمة. لكن فيه عيباً: حين درس المومياءات في مصر ووجد تقنية التحنيط معقدة غاية التعقيد – وإن كانت في الواقع الإجراء المعياري للاهتمام بأي حيوان ميت– اعتقد أنه تقنية لا يمكن أن تكون قد ابتُكرت على نحو مستقل في أي مكان آخر. بطبيعة الحال دفع هذا سمث إلى دراسة التحنيط في أجزاء أخرى من العالم، وهناك وجد، أو اعتقد أنه وجد، التقنيات والطقوس نفسها كما وجدت في مصر القديمة. هكذا ذهب هو وتابعه و. ج. بيري إلى أن المصريين نشروا الحضارات التي تعبد الشمس في جميع أرجاء العالم. وبالمناسبة، ما زالت مصر القديمة في أمريكا عبادة شعبية وإن لم يوجد بالطبع أي أساس لها من أي نوع.

لكن دعونا لا نمكث أطول مما مضى مع «القبائل الضائعة»؛ فهناك قبائل وأمم كثيرة ضائعة أخرى يمكن إدراجها في هذا المسرد الحزين: الطرواديون، الرومان، الإغريق، السكيثيون، التتار، الصينيون، الهنود، الماندنغويون، وكثير من القبائل الإفريقية الأخرى، المدغشقريون، الباسكيون، البرتغاليون، الهون – وفي وقت أو آخر أُدرجت جميع الشعوب المعروفة في خدمة أصول أمريكا. غير أن أفضل النظريات هي النظريات التي تجعل أصول الحضارة الأمريكية تنبثق من القارات الضائعة، إما قارة أطلنطس أو قارة ليموريا أو مو. وهنا يستعصي الهجوم على أبطالها: فقد اختفت القارات، وتلاشت حضاراتها المتخيلة العظيمة، ونحن لا نستطيع أن نبرهن بيقين على أنها لم توجد.

لاشك أن هذا هو تقويم للحماقات، وحين ننظر إلى قائمة الأصول الأمريكية المقترحة، نعرف أن المجاذيب ما زالوا بين ظهرانينا. لكن ما الذي يقوله الآثاريون والأنثروبولوجيون المحترفون الحاليون؟ ما هي وجهة نظر الناس الذين وصفوا بغرابة بأنهم «متدكترون»؟ يقولون أربعة أشياء مهمة فيما يتعلق ببحثنا الحالي. الأول هو الذي أوجزه توماس جيفرسون في دراسته «ملاحظة حول ولاية فيرجينيا»: ألا وهو أن أمريكا قطنها غزاة جاءوا من آسيا عبر مضيق بيرنغ إلى ألاسكا قبل ما بين ٥٠,٠٠٠ و٢٥,٠٠٠ سنة. ثانياً، يقال الآن إن الزراعة (أو

البستنة، إذا كنت تؤثر الكلمة) قد ابتكرت على نحو مستقل في أمريكا، وربما تكون ابتكرت على نحو مستقل في ثلاث أو أربع مناطق. وفي المقام الثالث، يقولون إن بعض هذه الاقتصادات الزراعية الأمريكية الأصلية تطورت إلى حضارات متمدنة دون تدخل خارجي: أي أنها كانت عملية أصلية من اتحاد المدن، وإلى اتحاد المدن الصينية يجب أن نضيف اتحاد المدن في أمريكا الوسطى وأمريكا النووية. أما النقطة الرابعة التي أدرجناها، والتي سنعود إليها في الفصل التالي، فكما يأتي: هل وجد بعض التأثير الخارجي، أو وجدت بعض التأثيرات الخارجية، مما تم الإحساس به في أثناء عملية أو عمليات اتحاد المدن الأمريكية؟ أقتبس هنا، حتى لا يتصور القارئ أنني متحيز تماماً في هذه القضية، حكم روبرت ووتشوب حين يقول: «يتزايد عدد الأنثروبولوجيين الذين يعتقدون أن بعض الحضارات الأمريكية العالية، مثل المايا، تلقت بعض المثيرات الإضافية من اتصالات مما وراء المحيط الهادئ مع جنوب شرق آسيا».

ستتم مناقشة البنود الجوهرية الأربعة في هذا الحكم الوجيز والجريء بالتفصيل في الفصل التالي، لكننا يجب ألا ننهي هذا الفصل دون ملاحظة الكيفية التي قلب بها الطاولات واحد أو اثنان من أولئك الباحثين الحاضري البديهة ولكن الطائشين الذين يكتبون عن هذه القضايا. فقد تبنت قلة منهم

الموقف الذي يرى أن الإنسان ظهر في أمريكا ثم نشر نفسه وحضارته من أمريكا النووية إلى العالم الغربي – أي إلى البحر المتوسط ومصر. وهذه نظرية معكوسة عن مصر في أمريكا: أي هذه أمريكا في مصر وسومر. ولعل أفضل تعليق على كل هذا الهراء عن الأصول الفرضية دون أساس أثري يوفره مقطع من عمود في «طريق العالم» نشر في «الديلي تلغراف» في ٢ تشرين الثاني ١٩٦٥. وهو عمود نشر بتوقيع اسم منتحل «بطرس البسيط»، ومفعم بالتعليق المذهل والساخر. فتحت عنوان «تراثنا الأزتيكي» يكتب:

وضع مؤرخ أمريكي، اسمه الدكتور هاوارد ساندستورم، نظرية جديدة ترى أن الأزتيك اكتشفوا أوروبا في القرن السابع. وهو يعتقد أن حملات متعددة عبرت شمال الأطلسي في زوارق حجرية، باستخدام بوصلة حجرية أزتيكية مخترعة حديثاً وأدوات مساعدة في الإبحار. وحين هبطوا على الساحل الغربي لبريطانيا، استغلوا الظروف الزمنية المتقطعة بدفع الجزيرة إلى حيث تقف مدلاند الآن، بحثاً عن أرض تشبه أرضهم في أمريكا الوسطى الأصلية. وبرغم أنهم أصيبوا بالخيبة من جراء ذلك، فقد أسسوا مستعمرات متعددة في منطقة ستريتشفورد، كما يرى د. ساندستورم، قبل الاستسلام للظروف الصماء والشعور العام بالإحباط، لعدم استطاعتهم أن «يتواجدوا جميعاً هناك».

ونظريته تدعمها المكتشفات التي قام بها علماء الآثار الهواة في المنطقة خلال السنوات القليلة المنصرمة. تشمل هذه المكتشفات كسرة حجرية صغيرة من هرم عتبة كشف النقاب عنه أثناء التنقيبات، وقطعة من اليشم يعتقد أنها كانت جزءاً من تقويم حجري كُتب على عجل، عُثر عليها عند مقهى محطة الباصات. ويذكر باحث محلي، هو الموقر ج. س. إنستيب النيردلي، في كتابه «تراثنا الأزتيكي» أن هناك ملمحاً أزتيكياً لا تخطئه العين لدى سكان ستريتشفورد ما زال موجوداً حتى اليوم، وأن العادات الأزتيكية، كتقديم الأضاحي البشرية على نطاق واسع، لم تنقطع تماماً قط.

هذا التعليق الهجائي الساخر هو أفضل جواب يمكن تقديمه عن جميع هذه النظريات العجيبة الغريبة حول أصول الشعوب والحضارات في أمريكا ما قبل كولومبس؛ لكن لا بدَّ من القول، بغية إيجاد العذر لها، أو حتى الدفاع عنها، إن الصورة الصحيحة والمقبولة من حيث الترتيب الزمني عن الأصول الأمريكية لم تتيسر أمام الباحثين إلا في السنوات العشر الماضية. ويأمل المرء دائماً، ولعل أمله لا يذهب عبثاً كما أعتقد، أن تتناقص الزيادات الغريبة على علم الآثار، إن لم تختف تماماً، حين تقلص المعلومات الآثارية الدقيقة والتواريخ المضبوطة التي يقدمها تأريخ الكاربون ١٤ المنطقة التي يمكن التأمل فيها. وكما سنرى في الفصل التالي، لم يعد بالإمكان التأمل في

أصول الأمريكيين ما قبل كولومبس وتقدمهم من الوحشية عبر البربرية إلى الحضارة. فلدينا الآن الوقائع. وينبغي أن يقتصر التأمل على العملية.

الفصل السابع

علم الآثار وتطور الحضارة الأمريكية

قلنا في الفصل السادس إن آراء الآثاريين والأنثروبولوجيين العاملين في حقل أمريكا ما قبل كولومبس أجمعت على أن القارة كان يسكنها في البداية شعب جاء عبر مضيق بيرنغ إلى ألاسكا قبل ما بين ٥٠,٠٠٠ الى ٢٥,٠٠٠ سنة، وإن الزراعة ابتكرت في أمريكا على نحو مستقل، وإن بعض الجماعات الزراعية المبكرة هناك تطورت إلى حضارات عن طريق عملية أصلية من اتحاد المدن، وإن عدداً من الأنثروبولوجيين الأمريكيين يعتقدون الآن أن بعض الثقافات والحضارات المحلية العالية ربما تلقت أفكاراً أو مثيرات من الخارج، برغم أنه ما من باحث جاد يعتقد بوجود أي غزو قام به أيٌّ من شعوب المجرد الطويل المذكور في الفصل السابق. وهذه المسألة الأخيرة، بمعزل عن المثيرات من نوع محدود، هي مسألة خلافية. ودعونا نركز في البداية على القضايا الثلاث التي هي محل اتفاق عام – أول سكنى في أمريكا، والأصل الأمريكي المستقل للزراعة، واتحاد المدن في أمريكا النووية[١٠٣].

في القرن التاسع عشر، ولّد الآثاريون العاملون في مجال ما قبل التاريخ في أوروبا نموذجاً تقنياً: ويشار إلى هذا النموذج بوجه عام باعتباره منظومة العصور الثلاثة عند تومسن ومنظومة العصور الأربعة عند لوبوك. في البداية،

استخدم الآثاريون الأمريكيون منظومة العصور الأربعة في العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الجديد، وعصر البرونز، وعصر الحديد، لكنهم سرعان ما بدأوا بابتكار أنظمة جديدة وجهاز اصطلاحي جديد. وهذا ما ناقشه ويلي وفيلبس في كتابهما «المناهج والأهداف في علم الآثار الأمريكي»، الذي نشر للمرة الأولى في العام ١٩٥٨، حيث أطلقا جهازاً اصطلاحياً صار يُستخدم الآن على نطاق واسع في علم الآثار الأمريكي يتكون من خمس حقب، ألا وهي: الحجرية، والبائدة، والتكوينية، والكلاسيكية، وما بعد الكلاسيكية.

يجب ألا تستوقفنا المرحلتان الحجرية والبائدة طويلاً. فهما تقابلان بطريقة عامة جداً العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الوسيط في أوروبا والشرق الأدنى. وقد شهدت المرحلة الحجرية الإنسان في الجزء الغربي من أمريكا الشمالية في موضع ما يتراوح بين ما قبل ٣٠,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ سنة: وبعدئذ بما يقرب من سبعمائة جيل وربما ١٨,٠٠٠ سنة، وصل الإنسان الى الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية. وبالتأكيد كان هناك بحلول ٧٠٠٠ق.م وقُدِّرت الرحلة التي قطع بها الإنسان مسافة ١١,٠٠٠ ميل من مضيق بيرنغ الى منطقة «رأس هورن» بما معدله ١٨,٣ ميل لكل جيل[أ]. هذه

(أ) [يقوم المؤلف هنا بحساب المدة التي استغرقها وصول الإنسان الأمريكي الهندي من أقصى الشمال في أمريكا الشمالية إلى أقصى الجنوب في أمريكا الجنوبية – المترجم].

التواريخ المبكرة لم يقبلها بعد جميع الآثاريين الأمريكيين: لكن ما لا خلاف عليه أن الإنسان، أي الهندي الأمريكي المبكر، حل فيما يُطلق عليه الولايات المتحدة الأمريكية الآن فيما: ١٢,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ ق.م. كان أناس العصر الحجري صيادين في الأساس: وصيادو المرحلة البائدة كانوا صيادين مترحلين وجماعي أطعمة يعيشون في بيئات تقارب ظروف الوقت الحاضر. وانتقل بعض جماعي الأطعمة في المرحلة البائدة ببطء إلى طور إنتاج الأطعمة. وقد أظهر البحث الآثاري المفصل الذي تواصل مدة أكثر من جيل في أمريكا الوسطى أنه لم يحدث هنا عصر حجري جديد أو لم تحصل «ثورة» إنتاج الأطعمة، بل عملية بطيئة من التجريب والتطوير. واحتل التغير من المرحلة البائدة في جمع الأطعمة إلى الزراعة القروية الفاعلة الفترة من ٦٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق م. فكانت هناك فترة طويلة من الزراعة الابتدائية تعتمد على نباتات قليلة مدجنة، هي في الأساس الذرة الحلوة (maize).

والذرة الحلوة كانت مجهولة في العالم القديم حتى ما بعد كولومبس، في حين أنها كانت النبات الأساسي عند جميع الثقافات والحضارات ما قبل الكولومبية المتقدمة. ويبدو من الواضح، إذاً، أن الذرة الحلوة قد تم تدجينها في أمريكا، برغم أنه لم تكتشف حتى الآن أية صورة برية حية للذرة العادية في الأمريكيتين. بعدئذ، منذ عام ١٩٦١، تم التنقيب في خمسة كهوف في وادي تيهواكان، وهو وادٍ جاف في جنوب المكسيك،

جرى فيها حفظ بقايا أطعمة الشعوب المبكرة بدرجة معقولة، وفي مستودعات متراتبة. يعتقد البروفيسور ماكنيش، الذي أشرف على هذه التنقيبات المهمة، أنه أظهر أن السلف البري للذرة الحلوة تم تدجينه في هذه المنطقة تقريباً مع بداية الألفية الخامسة ق م. وبالتأكيد تحتوي البقايا الأقدم، التي يؤرخها فيما بين ٥٢٠٠ و ٣٤٠٠ ق م، على الذرة الاعتيادية (corn) البرية. وتشمل بقايا لاحقة الذرة المزروعة وتكشف عن متوالية ارتقائية تسببت بظهور أعراق متعددة ما زالت موجودة في المكسيك من الذرة الحلوة.

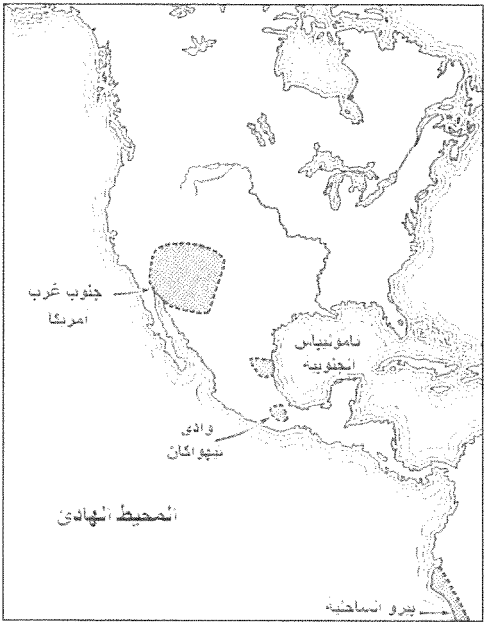

الشكل ١٣: مناطق الابتكار الزراعي المستقلة في أمريكا

وهذا البحث الميداني الآثاري – النباتي المشترك الذي أسفر فعلاً عن الجد الأعلى البري للذرة الحلوة، أي نبات بري اختفى من الوجود، هو واحد من أكثر المكتشفات الآثارية الأخيرة أهمية. وفي مسح متأخر، يصف البروفيسور ماكنيش أربع مناطق في أمريكا النووية تحققت فيها الزراعة في الوجود. الأول هو الذي أشرنا إليه تواً: جنوب وسط المكسيك. وكان الثاني في «تاموليباس» الجنوبية في شمال شرق المكسيك بالقرب من ساحل الخليج؛ والنباتات التي دجنت هنا هي القرع واليقطين والفاصوليا العادية والفلفل الحار، ثم بعد ذلك الذرة. والمنطقة الثالثة هي المنطقة الساحلية القاحلة في شمال بيرو: وقد بدأت الزراعة هنا باليقطين وفاصولية ليما؛ ولاحقاً، القطن والفلفل، كما تمت تربية نوعين من القرع، وفي المرحلة الأخيرة من الزراعة الابتدائية في بيرو (١٢٠٠ إلى ٧٥٠ ق م) كانت هناك الذرة الحلوة. وفي حقبة بيرو التكوينية من ٧٥٠ ق م حتى بداية الحقبة المسيحية، كانت قرى البيرو، التي تعتمد على الزراعة الدائمة التي يوفرها الري، تشتمل في قائمة محاصيلها ليس فقط على ما سبق ذكره، بل الفاصوليا العادية، ونشا المانيهوت والفول السوداني والبطاطا والبطاطا الحلوة والأفوكادو. أما المنطقة الخامسة فكانت في جنوب غرب الولايات المتحدة. وهنا كان موقع في وسط مكسيكو الجديدة، ربما من تاريخ مبكر يعود إلى ٤٠٠٠ ق م، يثمر القرع اليقطين. في المستويات الدنيا من «كهف الخفاش» في

مكسيكو الجديدة، التي يعود تاريخها إلى ما بين ٣٦٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق م، كانت هناك عرانيس ولحاءات قرع، وبذور يقطين ولحاؤه، وأجزاء من عباد الشمس. وبالإضافة إلى هذه المراكز الأربعة التي وصفها ماكنيش، ربما كان هناك مركز خامس للزراعة الأمريكية المبكرة في الغابة الاستوائية الأمريكية الجنوبية، حيث تمت تجربة محاصيل مثل المانيهوت المر والحلو واليام وربما زرعت قبل ١٠٠٠ ق م. ومن المحتمل أن ذلك جرى في وقت أقدم، لعله يعود إلى ٢٠٠٠ ق م في الأجزاء الجنوبية من فنزويلا[١٠٤].

أسفرت الزراعة التي تطورت في هذه المناطق من مثل هذه البدايات عن قرى مستقرة تتنامى من حيث الحجم والتعقيد. في بيرو من عام ٧٥٠ ق م فصاعداً، شهدت الحقبة التكوينية نشأة القرى الدائمة حقاً قرينة في الغالب بمراكز واسعة تضم معابد تقام على أرصفة. وبطبيعة الحال هناك تنوعات في مختلف الجماعات الثقافية المحلية التي شكلت الحقبة التكوينية في بيرو، غير أن هناك نموذجاً واضحاً، شاملاً، عاماً: فالقرى صغيرة وقليلة، وتشمل الزراعة الذرة الحلوة، ولكن الأرجح أنها لم تقم على ري القنوات، وفنون الفخار ونقش الأحجار جيدة، وهناك تطور أسلوبٌ فني جميل بوجه خاص، هو ما يعرف بأسلوب «شافن»، على اسم موقع «شافن دي هوانتار». والأهرامات الترابية أو الحجرية أو من الطوب وبقية المباني

الاحتفالية بوشر بها في هذا الوقت – أي الأرباع الثلاثة الأخيرة من الألفية الأولى ق م.

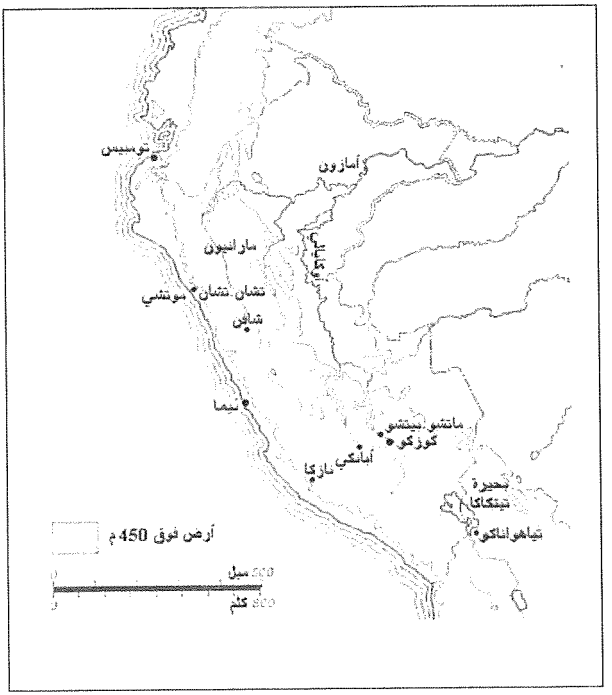

الشكل ١٤: بيرو، مع بيان المواقع الرئيسة

مع نهاية فترة شافن من الحقبة التكوينية في بيرو، يختفي فن شافن، وتظهر نباتات أطعمة جديدة، ويبدأ ري القنوات. ها هي إذاً تتشكل الآن الثقافات الكلاسيكية في بيرو: وللحضارات البيروفية أسماء وتفريعات مختلفة لا نحتاج أن نعنى بها كثيراً هنا – على سبيل المثال: طور «غالينازو

– موتشيكا» الأخير في الساحل الشمالي، و«مارانغا» في الساحل الأوسط، و«نازكا» في الساحل الجنوبي، و«ريكناي» و«كاجاماران» ٢ و٣ في المرتفعات الشمالية، و«تياهواناكو» وربما «بوكارا» في المرتفعات الجنوبية. وكان من المعتاد أن يقال إن هذه الحضارات البيروفية المبكرة – حضارة الطور الكلاسيكي– تنتمي إلى النصف الثاني من الألفية الأولى ب م، غير أن تواريخ الكاربون ١٤ تكشف الآن أنها ترجع إلى بداية الحقبة المسيحية، ويقترح بعضهم أنها أقدم. يعتقد البروفيسور ميكائيل كو أن الحضارة في بيرو ربما تكون قد بدأت مع بواكير القرن الثامن ق م[١٠٥].

يسهل إدراج السمات العامة لحضارة البيرو القديمة. وهي كالتالي: (١) أهرامات كبيرة ذات قمم مسطحة ومجمعات قصور؛ (٢) فن ثلاثي الأبعاد أو مجسَّم – كما يتضح على خير وجه في فخاريات موتشيكا ونازكا؛ (٣) استخدام المعادن، الذي بدأ في أزمنة شافن لكنه تطور الآن ليشمل القولبة والسباكة وتثبيت الألوان ولحام البرونز والنحاس والذهب، والطلاء وتصنيع الأسلحة النحاسية والخوذ؛ (٤) أعمال النسيج؛ (٥) في المرتفعات، ظهر معمار حجري جميل مثل معبد «بوكارا»، وسور «كالاسايا»، وربما يكون أكثرها شهرة، مدخل البوابة الحجرية الكبيرة، والمدرج في «تياهواناكو»؛ (٦) مبانٍ واسعة بغرف وممرات و«أواوين»، غالباً ما تكون متصلة بالأهرامات

الكبيرة القريبة، وفي العادة تُفسَّر هذه المباني الواسعة على أنها قصور أو مبانٍ عامة أو حتى حكومية؛ (٧) وأخيراً، عدد كبير من السكان يتجمعون بالقرب من الهرم أو مراكز المعابد. وما يسمى بطور «غالينازو ٣» يضم روابي هرمية ضخمة، وتتألف البلدة المتأخرة من ثلاثة آلاف غرفة مبنية بالطابوق حول الهرم في وادي فيرو.

قلنا إن بعض الناس ينكرون إطلاق تسمية الحضارة على الطور الكلاسيكي في أمريكا، لكني أتفق مع الباحثين المتأمركين عموماً بأن الطور الكلاسيكي البيروفي هو حضارة. ومن الواضح من خلال المزايا التي أدرجناها كسمات لحضارات العالم القديم، أن إحداها غائبة هنا: فلا وجود للكتابة. وينتمي الإنكاويون، الذين قابلهم الغزاة [الإسبان] إلى المرحلة الأخيرة ما بعد الكلاسيكية في بيرو. وتمتد حقبة الإنكا، وهي حقبة إمبراطورية، وليست حضارة بدائية، من زهاء ١٠٠٠ ب م إلى ١٥٣٢. وكانت مدن الحضارة المبكرة أماكن نمت كمجمعات حول مركز المعبد. وكان يُخطط لمدن الإنكا، أو في الأقل يخطط جزئياً لترتيبها. ولم تتوفر الكتابة لدى الإنكا، كما سبق القول، بأي معنى من المعاني، بل هم استندوا إلى وسيلة استذكار عن طريق استخدام خيوط معقودة –«الكويبو»– وهي وسيلة لا تتناسب، كما قال غيلب، إلا مع «أغراض الحساب الابتدائية»[١٠٦].

لنتحول الآن من بيرو إلى مركز مبكر آخر للحضارة في أمريكا الشمالية، ألا وهو المكسيك. أوجز أرميلاس مراحل التطور الأربع في المكسيك؛ الأولى، بدايات تربية النبات وتدجينه بنباتات مزروعة كمجرد إضافة لاقتصاد ما زال يعتمد في الأساس على جمع النباتات البرية مع الصيد التكميلي؛ ثم كمرحلة ثانية، حصل تحوُّلٌ إلى اقتصاد شكلت فيه الزراعة القائمة أساس المعاش وانتشار الجماعات الزراعية القروية المستقرة؛ ثالثاً، تطوير ثقافة عالية، أو على حد تعبير ردفيلد، نمو تراث كبير، بمعزل عن التراث الصغير أو الشعبي. وهذا النمو هو الذي يَسِمُ بميسمه عتبة الحضارة، ويتم تصوير المرحلة الرابعة بظهور الجماعات المتمدنة.

يبدو أن الحياة القروية وصنع الفخاريات قد بدآ في المكسيك زهاء ٢٠٠٠ ق م. وبحدود منتصف الألفية الأولى ق م صار يحصل اتحاد المدن المكسيكية. ومنذ بداية الألفية صارت تحدث التطورات من القرى الصغيرة: إذ يعود تاريخ مقبرة «تلاتلكو» في الضواحي الغربية لمدينة مكسيكو من ١٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م، لكن استيطانها المقابل غير معروف. وحين كانت تقترب الألفية الأولى من نهايتها، صارت «تيوتهواكان» و«مونت ألبان» المدن الرئيسة في وادي المكسيك و«أوكساكا» المركزية على التوالي. فهما أقدم المراكز الحضرية في مكسيكو، ولكن وراءهما تكمن الحضارة الأولى في أمريكا الوسطى، حضارة الأولميين.

ازدهرت أقدم حضارات المكسيك هذه في سهل ساحل الخليج القائظ في منطقة «فيراكوز» الجنوبية وجارتها «تاباسكو» – على الغرب من منطقة المايا. وقد اشتهرت لمدة من الزمن بسبب منحوتاتها من اليشم، التي يصور كثير منها أطفالاً بشراً مقطبين بملامح تشبه ملامح الفهود. بقي تحديد تاريخ الشعب الأولمي قضية خلافية لمدة من الزمن: إذ ارتأى الآثاريون المكسيكيون زمناً قديماً، بينما يميل آثاريو أمريكا الشمالية إلى تاريخ يتراوح بين ٣٠٠ و٩٠٠ م. ونحن نعرف الآن أن المكسيكيين كانوا على صواب: إذ تكشف تواريخ الكاربون ١٤ في موقع «لافينتا» أن الحضارة الأولمية ازدهرت من ٨٠٠ إلى ٤٠٠ ق م. يقول ميكائيل كو: «لا يوجد أدنى شك الآن بأن جميع الحضارات اللاحقة في أمريكا الوسطى، سواء أكانت مكسيكية أم من المايا، تقوم في النهاية على أساس أولمي»[١٠٧].

يتركز الأولميون في منطقة لا تزيد عن ١٢٥ ميلاً طولاً و ٥٠ ميلاً عرضاً. وهي منطقة تساقط أمطار سنوية عالية جداً، وغابات مدارية كثيفة ممتدة، وقدر كبير من منخفضات المستنقعات. وهذه بيئة غير مضيافة حقاً، وهي تختلف اختلافاً كلياً عن بيئات الحضارات في العالم القديم في مصر وبلاد الرافدين والهند والصين. وكانت لافينتا مركزاً احتفالياً أو للنخبة لا بد أنه كان يدعمه وفق ما يرى هايزر

عدد من السكان لا يقلون عن ثمانية عشر ألف نسمة؛ واستغرق بناء الهرم الرئيس أعمار ثمانمائة ألف رجل. وتقع «تريس زابوتيس» على بعد مائة ميل إلى الشمال الغربي من لافينتا؛ وفيما بينهما يوجد موقع «سان لورينزو»، الشهير برؤوسه الحجرية العملاقة، التي يرتفع أحدها ٩ أمتار و٤ إنشات.

وطراز النحت الأولمي غريب، يعطينا فكرة عن دين مثير. يعتقد الأولميون أن امرأة في الماضي اقترنت بفهد، وكنتيجة لهذا القران ظهر جنس أو نوع من الفهود الممسوخة. وقد استحوذ هؤلاء على الفن الأولمي: وهم سمان لا جنس لهم. وكان الشعب الأولمي نقّاشاً كبيراً للأحجار؛ إذ لم يقتصر الأمر على كونهم ينحتون الرؤوس الضخمة، بل أيضاً الأشياء الصغيرة من اليشم كالفؤوس والدلايات والتماثيل. وتحمل المنحوتات الأولمية خطوطاً هيروغليفية لم تمكن قراءتها في الوقت الحاضر لكن يبدو أنها تمثل إلى حد ما سوابق بعض الأشكال الرمزية عند المايا. هنا، إذاً، لدينا بدايات الكتابة في المكسيك، في منتصف الحقبة التكوينية بين ١٠٠٠ و ٣٠٠ ق م. وقد أنتجت «تريس زابوتين» أقدم نصب مؤرخ في العالم الجديد، وهو المسلة س ، أي نصب متشظٍّ من البازلت أُعيد استخدامه في أزمنة لاحقة. ولم يكن الأولميون شعباً مسالماً. إذ كان لديهم نوادٍ حربية وأفراد يحملون نوعاً من الزنارات والبراجم.

كما رأينا، تقع المنطقة الأولمية، في الشمال على سواحل خليج المكسيك. وهناك حضارة أخرى مماثلة أو ثقافة عالية ظهرت في الزمن نفسه تقريباً في جنوب المكسيك، في وادي «واكساكا» ومونت ألبا هي أهم موقع في هذه المجموعة الجنوبية. وفي مركز هذه البلاد استوطن شعب كان يتكلم لغة «زابوتية»، لذلك بدا من المعقول أن يسمى بالحضارة «الزابوتية». ويعود تاريخ أغلب «مونت ألبان» إلى الأزمنة الكلاسيكية، لكن «مونت ألبان ١» يعود تاريخها إلى ٣٠٠ ق م. وربما كانت هذه الحضارات الزابوتية المبكرة مستمدة مباشرة من الأولميين في الشمال؛ ولكن في حين نادراً ما يوجد دليل على الكتابة والتقويم في المنطقة الأولمية، فهناك كثرة من الأدلة في جنوب المكسيك. بل إن أول النصوص الأدبية في مكسيكو تأتي من «مونت ألبان ١»[١٠٨].

إذاً، لم يكن تطور الحضارة في أمريكا الوسطى يقتصر على منطقة واحدة، فبالإضافة إلى المنطقة الأولمية في تاباسكو، ومنطقة واكساكا الزابوتية، كان هناك وادي المكسيك ومرتفعات منطقة المايا ومنخفضاتها. ومع بداية الحقبة المسيحية، برز في وادي المكسيك موقع «تيوتهواكان» – وهي كلمة تعني «بيت الآلهة». وهو يحتل جيباً جانبياً من وادي المكسيك، في وادٍ جاف يبعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مدينة مكسيكو. وكانت أكبر مدينة في أمريكا ما

قبل كولومبس، لا تقل اتساعاً عن أية مدينة مركزية مكسيكية كبرى، ولها علاقات تجارية واسعة. كانت تغطي منطقة تمتد لأكثر من ثلاثة أميال مربعة، وكانت متحضرة تماماً وذات تخطيط شبكي؛ تضم قصوراً كبيرة ومعابد شهيرة وأهرامات مثل «هرم الشمس»، و«هرم القمر». وقد نما عدد سكان المدينة من عشرة آلاف إلى حد أعلى يقترب من مائة وعشرين ألفاً. وهرم الشمس في «تيوتهواكان» هو واحد من أضخم المباني ما قبل الإسبانية في أمريكا الوسطى. يمتد طوله ٧٠٠ قدم وارتفاعه ٢٠٠ قدم، وكان يتوج قمته ذات يوم سقف عالٍ من القش[١٠٩].

الحقبة الممتدة من ٣٠٠ إلى ٩٠٠ م، وهي الفترة التي تقابل نهاية الحكم الروماني في بريطانيا العظمى ونمو الممالك الأنجلوسكسونية والكلتية، هي في أمريكا الوسطى فترة ازدهار الحضارة المكسيكية الكبرى – وغالباً ما كانت تسمى على نحو له ما يبرره بـ«عصر المكسيك الذهبي». كانت حضارة المكسيك الكلاسيكية هذه تعرف الكتابة: وكان أكثر الناس يمتلكون كتباً، والتواريخ مسجلة. ويقوم الاقتصاد على ثالوث الذرة الحلوة والفاصوليا والقرع؛ لكنه كان اقتصاداً زراعياً بسيطاً، وليس للري وجود فيه. وكانت التقنية، وهي تقنية «العصر الحجري الجديد»، تنطوي على مهارة كبيرة في تقطيع الزجاج البركاني لصناعة أسنة الرماح والنصال

وكميات كبيرة من الأسل. ولم تُعرف المعادن حتى بعد عام ٩٠٠ م، وهكذا تم تزيين مبانٍ شاسعة برسوم الجدران الجميلة والبديعة التي كانت تنقش بكاملها وتقطع بالأحجار. واشتملت الديانة المكسيكية الكلاسيكية على مجمع للآلهة بتنوع جميل ومذهل: كان الإله الرئيس هو «إله المطر»، «تلالوك»، الذي تحول عن الفهود الممسوخين الأولميين، وإلى جانبه قرينته، «إلهة الماء»، ومن الآلهة الكبار الآخرين «إله الشمس»، و«إلهة القمر»، و«الأفعى ذات الريش»، التي عُرفت فيما بعد باسم «كويتزالكوتل».

وصلت حضارة «تيوتهواكان» ومدينتها إلى نهايتها قرابة عام ٦٠٠ م، وربما كانت هذه النهاية نتيجة تدمير الغابات المجاروة، على أيدي غزاة مجهولين. وبالطبع كان حكام مكسيكو في عصر الفاتحين [الإسبان] هم الأزتيك، وحتى في الأزمنة الأزتيكية المتأخرة في عصر موكتيزوما الثاني كثيراً ما كان يحج على القدمين إلى أطلال تيوتهواكان.

وآخر الحضارات التاريخية الأولية الأربع في أمريكا الوسطى هي حضارة المايا في جنوب شرق المكسيك. وقد أُطلق عليهم «إغريق العالم الجديد»، ومن إنجازاتهم أنهم بالتأكيد تقدموا على الثقافات الأمريكية الأخرى العالية ما قبل كولومبس. وقد تأسس أول مراكز المايا بين ٥٠٠ ق م و٣٠٠ م؛ وتمتد حقبة المايا الكلاسيكية من ٣٠٠ إلى ٩٠٠

م – حقبة الإمبراطورية القديمة: أما الإمبراطورية الجديدة فتأسست زهاء ١٠٠٠ م وبقيت حتى وصول الإسبان. ويتوفر أقدم تاريخ للمايا على مسلة من «تيكال» يعود تاريخها إلى عام ٢٩٢ م. وأشهر مواقع المايا هي «تشيتشن إتزا» و«تيكال» و«واكساكتون» و«كوبان» و«بالينكيو».

تتركز زراعة المايا على الذرة الحلوة، التي اعتبروها أكبر هبات الآلهة لهم – بل بالحقيقة اعتبروها إلهاً في ذاته. ويبدو أن حياة المايا كانت تتكون من شعب يعيش في قرى ريفية متفرقة في حين أن نخبة صغيرة من الكهنة والموظفين يقطنون على نحو دائم في المراكز الدينية. وعُثِرَ على معابدهم في منطقة الغابات في منخفضات غواتيمالا والبلدان المجاورة وفي نجود «تشياباس» وهندوراس البريطانية وشبه جزيرة «يوكاتان». وقد وُصِفت المايا بأنها حضارة من دون مدن. ومنذ بدايات الزراعة في بيرو وُجدت جماعات كبيرة الحجم – أرياف يتكون سكانها من بضع مئات عندها مركز معبد ومبان جماعية أخرى، بالإضافة إلى الأكواخ حولها. ولكن يبدو، من خلال الدليل الحاضر، أن مركز السكنى بالتجمع النووي لم يدخل في طريقة حياة المايا. فالأرياف والقرى تظل على مبعدة من المركز بما فيه ملاعب الثيران النصبية والمسلات المنقوشة والكتابة وإظهار المهارات في الفنون. مع ذلك يمكن وصف هذه المراكز الاحتفالية بأنها مدن بالمعنى الأوسع للكلمة. يصفها

بوشنيل بأنها ليست في الواقع مدناً بل هي أقرب إلى البقاع الكاثدرائية، حيث يدعم الفلاحون الذين يعيشون في الأرياف حولها الكهنة والموظفين الذين يعيشون فيها.

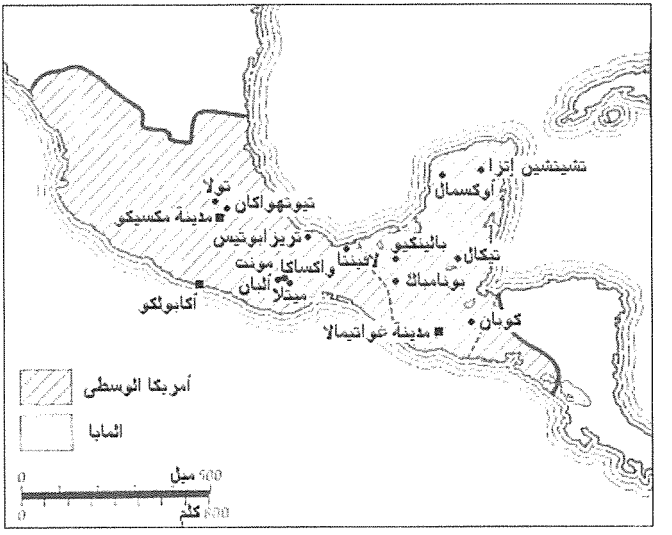

الشكل ١٥: أمريكا الوسطى ومنطقة المايا

لم تتمتع مراكز المايا الاحتفالية بمواقع يحسن الدفاع عنها، ولم تكن محصنة. ويبدو كل مركز، يحكمه كاهن أو أكثر، مسؤولاً عن المحافظة على العلاقات الودية مع حكام بقية المراكز. وتتكون المراكز من «أواوين» وأرصفة وأهرامات. وتشمل احتفالات المايا الدينية الصلاة والرقص والتضحية وتناول الولائم وإشعال البخور. ويقدم الرجال التقديمات من دمائهم التي تستقطر من آذانهم وألسنتهم وأماكن أخرى

باستخدام أشواك الصبر المشدودة أحياناً بحبل. وتصحب الاحتفالات الكبيرة موسيقى تنطلق من الأبواق والأجراس والطبول. وبالقياس إلى ذلك فإن التضحيات بالبشر نادرة، ولكن في الأزمنة ما بعد الكلاسيكية حين وصلت إليهم التأثيرات الجديدة من وسط المكسيك، كانت ألعاب الثيران الاحتفالية عند المايا تقترن بالتضحية البشرية، وربما قُطع رأس أحد أعضاء الفريق الخاسر بأيدي الفائزين.

تمثل الإنجاز الكبير عند المايا في معرفة الرياضيات والفلك؛ فلقد كان لديهم تقويم معقد وعرفوا طول السنة الشمسية بدقة كبيرة.

نقش المايا نقوشاً هيروغليفية ما زال بالإمكان رؤيتها في مراكزهم الاحتفالية؛ فقد كانوا منشغلين تماماً بمرور الزمان تحت رعاية آلهتهم المناسبين. وكانت هذه الكتابة الهيروغليفية نفسها مرسومة على أشرطة من اللحاء المكسو بالدابوق؛ وقد وصلتنا ثلاثة كتب من هذه الأشرطة، هي ما يسمى بالدفاتر. ومما ساعد، ولو جزئياً، على فك شفرة رموز المايا الهيروغليفية بقاء عدة لهجات مايا كلغات منطوقة في الوقت الحاضر والمدونات التي تركها الإسبان مثل الأسقف «دياغو دي لاندا» في منتصف القرن السادس عشر. وما زال كثير من الرموز مستعصياً فك شفرته، لكن كثيراً منها صار يُقرأ. يقول كو: «ما زال الطريق أمامنا طويلاً لـ«فض» شفرة

كتابة المايا، ولكن يبدو أن الطريق قد اتضح»[١١٠].

كان لدى المايا مستوى خفيض في تقنيات الزراعة. فلم يكن لديهم حيوانات سحب كما لم يعرفوا المحراث: إذ كانوا يزرعون الذرة الحلوة بغرسها في المواضع المشقوقة من الغابة. وبعد عدة سنوات تضطرهم الأحراش واستهلاك التربة إلى الانتقال إلى مواضع مشقوقة أخرى، يشقونها بفؤوس حجرية وإشعال النار فيها. وقد أُعطيت أسباب جغرافية كثيرة لتفسير نهاية حضارة المايا: التعرية، وامتلاء مصادر المياه العذبة بالغرين، وحلول السافانا غير القابلة للشق محل الغابات نتيجة استخدام طريقة الشق والإحراق. غير أن أغلب الباحثين يرون أن نهاية المايا تتعلق بأسباب تاريخية. يشير أ. ف. كيدر إلى استئصال مجتمع المايا، ويقول إريك تومبسن إنها تعود إلى انهيار الحياة الاحتفالية الموسعة بألفاظ تاريخية خالصة[١١١]. ولكن كشعب لم يختفِ المايا بالطبع: فما زال مليونان منهم يعيشون في يوكاتان وغواتيمالا وهندوراس البريطانية وأجزاء من الولايات المكسيكية في تاباسكو وتشياباس والأجزاء الغربية من هندوراس والسلفادور.

في العالم الجديد بوجه عام، بمعزل عن المايا، انقطع نمو الحضارة بالاحتلال الإسباني عند نقطة رأى فيها أدامز نظيراً من الناحية الوظيفية للمملكة القديمة في مصر أو سلالة (أكد) في بلاد الرافدين[١١٢].

كما قلنا سابقاً في عدة مناسبات من هذا الكتاب، لسنا معنيين بعملية نمو الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد أو نهايتها: نحن فقط نحاول متابعة أصولها من خلال وساطة علم الآثار، وقد أظهر البحث الآثاري في أمريكا في ربع القرن الأخير أصلاً مستقلاً إلى حد كبير للحضارة في مراكز متعددة في أمريكا النووية – بيرو ووادي الأولميين – الزابوتيين في مناطق مكسيكو في المكسيك ومنطقة المايا. ويتفق أكثر الباحثين المتأمركين الآن مع ويلي حين يقول إن الحضارات الأمريكية تبرز «بمعزل واضح وعلى نحو مستقل في الجوهر عن المحتوى الثقافي المناظر في العالم القديم».

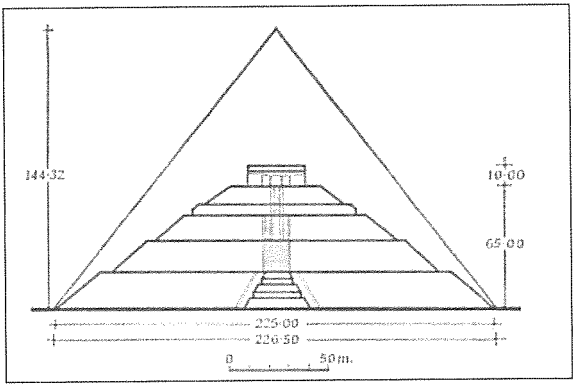

الشكل ١٦: مقارنة ارتفاع هرم خوفو (في مصر) بهرم الشمس المدرج في تيوتيهواكان (في المكسيك)

ما يغري على الخصوص في حضارات أمريكا القديمة هو أن نموذجها يختلف من حيث التفاصيل بطرق كثيرة عن نموذج حضارات العالم القديم. ودعونا، في ختام هذا الفصل،

ندرج بعض الاختلافات المميزة. في المحل الأول كانت أدواتهم وأسلحتهم مصنوعة في الأساس من الخشب أو الحجر، واستعملوا الزجاج البركاني بقدر كبير. وبين الحين والآخر كانوا يستعملون أدوات من النحاس: وقد بدأت أشغال البرونز قبل الغزو الإسباني. ولكنهم فعلياً لم يستعملوا المعادن الصلبة، وبالتأكيد لم يكن لديهم حديد. وفي عصر حجري، أو بعبارة أفضل، في عصر حجري نحاسي، أنجزوا مباني رائعة ومنحوتات مميزة. ثانياً، أنهم لم يعرفوا استخدام العجلات، لا في المركبات ولا في صنع الفخاريات؛ مع ذلك وجدت لديهم بضعة دمى وألعاب صغيرة ذات عجلات. وكان أساس اقتصادهم زراعياً. كانوا يصطادون الطيور ويصيدون الأسماك، برغم أن تقنيات الصيد لديهم محدودة. وتتألف زراعتهم من تنمية نباتات البذور مثل الذرة الحلوة والفاصوليا والقرع، أو زراعة الدرنيات مثل المنيهوت في البرازيل والأنديز الغربية والبطاطا في الأندس. مع ذلك وبرغم أن الزراعة كانت قوام حياتهم، فلم يعرفوا المحاريث: بل استخدموا العصي للحفر والمعازق، ولم يكن عندهم حيوانات سحب. ولم تشتمل زراعة العالم الجديد على تربية القطعان أو استعمال الحليب أو سماد الروث. كان اللاما هو حيوان الحمل الوحيد عندهم، وقد اقتصر استعماله في مرتفعات الأندس، وكان ضئيلاً على أية حال ويقال إنه غير كاف. كان يجري النقل عندهم باستخدام قوارب الكانو، وأطواف القصب، وظهور الرجال. والقائمة الشاملة للحيوانات

المدجنة في حضارات العالم الجديد صغيرة جداً – بمعزل عن اللاما، وهي لا تزيد عن الديك الرومي وما يسمى بالبط «المسكوفي» وكلب صغير صالح للأكل وخنازير غينيا. وكان عند هذه الحضارات، أو عند بعضها في الأقل، كتابة: لكنها لم تتطور عند الأزتيك أبداً إلى ما يتعدى المستوى التصويري البسيط جداً، وكانت تستخدم عند المايا في الأغراض الدينية والسياقات الفلكية حصراً، في حين اكتفى الإنكاويون بحساب الخيوط.

وإنه لمن المغري حقاً أن نرى كيف تطورت الحضارات على نحو مستقل في العالمين القديم والجديد، مع اشتراكهما ببعض العناصر الأساسية، ولكن بتنوع كبير في تفاصيل السمات الثقافية لدى كلٍّ منهما.

الفصل الثامن

علم الآثار وأصول الحضارة

في هذا الفصل الأخير نصل إلى نهاية استقصائنا عن الضوء الذي يسلطه علم الآثار على أصول الحضارة. لقد وصفنا بإيجاز اكتشاف الحضارات السبع الأولى – حضارات سومر ومصر ووادي السند وصين شانغ والمكسيك والمايا وبيرو.

وقد وُصِفت هذه الحضارات السبع بأنها «أولى» لأنها كانت أقدم الحضارات في العالمين القديم والجديد. في الفصول الماضية قدّمتُ نبذة جريئة بالضرورة وموجزة وسطحية عن خصائصها، وسماتها المميزة، وأساليبها، واختلافاتها. على أن هدفنا كان دراسة أصولها، وها نحن نعود في هذا الفصل الأخير إلى مشكلتنا الأساسية، بل إلى سلسلة مشكلاتنا الأساسية. كيف تحققت هذه الحضارات في الوجود؟ ما الذي يقوله لنا علم الآثار، الذي يشكل المصدر الوحيد عن هذه الحقب السابقة على الكتابة والسابقة على التاريخ، أو يدعونا إلى الاعتقاد به، حول أصول هذه الحضارات، وبالتالي حول أصل الحضارة نفسها؟

لقد ناقشنا في الفصل الأول تعريفات الحضارة، وما زلت أعتقد أن التعريف الهش الذي قدمه الراحل كلايد كلوكهون (انظر الفصل الأول) هو أكثر التعريفات فائدة وعملية. يقول

لكي يسمى المجتمع حضارة، فلا بدَّ له أن يمتلك الأشياء الثلاثة التالية: بلدات أو مدناً تضم أكثر من ٥٠٠٠ ساكنٍ، والكتابة، ومراكز احتفالات معقدة. إذا قبلنا بهذا التعريف، إذاً فستكون مجتمعاتنا السبعة متحضرة، وإن كنا ينبغي أن نتذكر أن المايا لم يكن لديهم مدن بالمعنى السومري أو معنى وادي السند للكلمة، وربما لم يمتلك المصريون مدناً حتى السلالة الثامنة عشرة – وإن كنت ما زلت أعتقد أن هذا سيثبت خطأه، وستُكتشف مدن السلالات المصرية الأولى– وأن أهل الإنكا، بمدنهم وتنظيمهم المعقد، كانوا حضارة من دون كتابة.

والسؤال الأول الذي يثيره القارئ اللبيب لهذا الكتاب سيكون كالتالي: هل قام المؤلف عند كتابته، أو عند إلقائه المحاضرات التي تعتمده، بانتقاء شخصي واعتباطي من حضارات الماضي القديمة؟ ولماذا لا يوجد ذكر لكريت والحيثيين وأريحا وميسينا؟ توجد المايا وليس المينوويين: لماذا؟ الجواب عن هذا السؤال ذو شقين. لقد كشفتْ أريحا عن ثقافة متطورة، بل في بعض الأزمان، عن ثقافة عالية، بالمعنى الأمريكي لكلمة «تكويني»؛ وكذلك فعلت «تشطل هويوك». ولكن لا أريحا ولا تشطل هويوك كانتا حضارتين: كانتا مستوطنتين كبيرتين يمكن تسميتهما بلدات أو بلدات أولى. ولم تلبيا المتطلبات الأخرى في صيغة تعريف كلوكهون. ربما كانتا تجربتين أخفقتا نحو تكوين حضارة، أي اتحاد مدن لم يفلح؛ أو ربما نسميهما قرى فلاحية أفرطت في نموها جداً.[١١٣]

هذا ما يتعلق بأريحا وتشطل هويوك. أما كنوسوس وميسينا والحيثيون فيتطلبون إجابة مختلفة جداً. وهي أنهم جميعاً متأخرون من حيث الزمان. وكما نعرف جميعاً، فقد كانت كنوسوس أقدم من آنيانغ والأولميين والزابوتيين والمايا، لكنها لاحقة على مصر وسومر بين حضارات العالم القديم. ربما كانت تجربة مضاهية أو مناظرة في نمو المجتمع، غير أن الحضارة المينووية كانت تجربة تكررت في السياقات المعروفة للحضارة كصورة مجربة تمت محاولتها سابقاً للمجتمع الإنساني في الشرق الأدنى الأقدم منها. ربما كانت تجربة أخرى أو ربما تم استنباتها من مكان آخر: غير أن هذا لا يقع في إطار اهتمامنا هنا – إذ ينحصر اهتمامنا بالمجتمعات المتحضرة الأولى. ونحن نبحث في التجارب الأولى في الحضارة، والمحاولات الأولى في وجود المدينة التي تعرف الكتابة؛ وما إن نعرف كيف حصلت تلك التجارب الأولى، حتى نستطيع أن نلتفت إلى الحضارات المتأخرة فنتفحص ميلادها ونموها بعين جديدة ومجربة وواثقة.

أُكرر عامداً: لأن الأخريات تعيد التجربة نفسها. كان اتحاد المدن في بلاد الإغريق الذي وصفه «ثيوسيديد» تجربة تكررت من جديد هنا؛ فقد نمت القرى وتجمعت حول واحدة من عدد منها تحولت إلى مدينة فصارت المجموعة دولة – مدينة. ولم يكن هذا نسخة مما حصل سابقاً في مصر أو بلاد

الرافدين؛ فلم يأمر به غزاة جاءوا من ثقافة أعلى من الخارج. بل حدث وحسب، وحدث بسبب القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية داخل المجتمع الإغريقي.[١١٤]

ولذلك ليست اليونان أو ميسينا أو كنوسوس هي التي أردنا دراستها هنا: بل أن ندرس أناساً آخرين في أزمنة أخرى. تتعلق دراستنا ببداية اتحاد المدن – أي التجارب الأولى في الحضارة. وهذا هو السبب في أننا لم نُعْنَ إلا بالحضارات السبع الأولى.

هناك سؤال ثانٍ شائع جداً ووثيق الصلة وهو هذا: إذا سلمنا جدلاً بأنك لم تقم بمجرد انتقاء الحضارات الأولى، فلماذا ينبغي أن نفترض في هذه اللحظة من الزمن بأن تحت أيدينا قائمةً كاملة بالحضارات الأولى؟ أليس بالإمكان أن تُكتشَفَ حضارات أخرى، ربما في العقد القادم، أو في نصف القرن القادم، ولعلها تطعن في سلامة ما نقوله الآن؟ وهذا تساؤل وجيه جداً. ولنتذكر أن حضارة السند ما قبل التاريخ لم تُكتشف إلا في العقد الثاني من هذا القرن [العشرين]، وأن حضارة صين شانغ / آنيانغ لم تُكتشف أثرياً إلا في عام ١٩٢٨، وأن معرفتنا بالحضارتين الأولمية والزابوتية في المكسيك وتطور الحضارة البيروفية المبكرة هو حدث متأخر فعلاً. فلنواجه هذا السؤال بوضوح وصراحة: في عام ١٩٢٠، كان سيكتفي كلُّ من يكتب عن المشكلة التي نناقشها الآن

بمصر وسومر والمايا. ومن الواضح أن الصورة التي لدينا عن الحضارة القديمة تتغير تغيراً ضخماً مع تقدم الاكتشافات الأثرية – والاكتشافات الأثرية تستمر بثبات وبلا كلل من سنة إلى أخرى. فلماذا ينبغي أن نكون قد توصلنا في منتصف الستينيات إلى الصورة الكاملة حين لم نتوصل إليها في العشرينيات؟

ما الحضارات الأولى الإضافية التي سوف نعرفها في الأربعين سنة القادمة من الزمن، وكيف ستؤثر في الصورة النظرية العامة التي لدينا عن ماضي الإنسان القديم وتطوره من البربرية إلى العيش المتحضر؟ ربما تكون قد وجدت حضارات أولى غير تلك التي وصفناها، وبالتأكيد لو وجد تلميح لها، أو اقتراح بالمناطق التي يُرجح البحث فيها عنها، فإن مصادر مؤسسات البحث الثرية والجهات التي تقدم الدعم في أوروبا وأمريكا ستسارع لاستكشافها. والجواب الفعلي عن هذه المشكلة أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مكان واضح يجري البحث فيه: ربما غابات الأمازون، الكونغو، الحبشة، غابات كمبوديا، وادي الكنج، أفغانستان، جنوب وسط روسيا؟ ربما تكون قد وجدت حضارات أولى في مكان أو آخر من هذه المناطق: نحن لا نعرف، لكننا نعيش في عصر يضم رحالة لا حصر لهم وبعثات أثرية لا حصر لها. وإنه ليحق لنا القول إن المرء لا يسمع بشائعات عن مدن سرية مجهولة حتى الآن

من الماضي البعيد: فالمدن الضائعة والحضارات المختفية التي يكتب عنها الرحالة والآثاريون التبسيطيون هي تلك التي نعرفها، وغالباً ما تكون هي بعينها مدن الأزمنة التاريخية في القرون الوسطى وما بعدها.

من الواضح أن للماضي، أعني ماضي الإنسان البعيد الذي كنا ندرسه هنا، مستقبلاً؛ لكنه يجب ألا يخيفنا بعد الآن بأكثر مما يخيفنا مستقبل الحاضر. ومهمتنا في اللحظة الحاضرة هي أن نحاول أن نفهم الماضي كما يبدو في الحاضر. ومشكلتنا الفعلية تكمن في أن نجيب عن هذا السؤال: كيف نستطيع في ستينيات القرن العشرين أن نصف أصول الحضارة بمنظور يختلف عن منظور جون لوبوك في كتابه «أصول الحضارة» قبل قرن من الزمان؟ ليس من شك يعتري الجزء الأول من الجواب عن هذا السؤال. نستطيع الآن أن نعيد التأكيد على التغير الكبير في تاريخ الإنسان الذي أصرّ عليه إليوت سمث في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه «تاريخ الإنسان»، الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٣٠. ولقد كان هذا هو التغير من الإنسان الصياد الذي يجني الطعام إلى الإنسان الزارع الذي يربي الحيوانات؛ أي التغير من الإنسان الذي يستخدم بيئته لكنه يظل مستعبداً لها، إلى الإنسان الذي يسيطر على بيئته ويستطيع في الأقل أن يتحمل جزءاً من مسؤولية توفير طعامه.

وقد سمى إليوت سمث هذه بـ«ثورة إنتاج الطعام»؛ وساواها

غوردن كايلد بالعصر الحجري الجديد في نسخة لوبوك الرباعية من منظومة العصور الثلاثة عند تومسن، وقدم العبارة التي قد لا تكون موفقة عن «ثورة العصر الحجري الجديد» في الكتابة الأثرية والتاريخية. وهي غير موفقة، أو تبدو غير موفقة الآن، لثلاثة أسباب: الأول أنها تساوي التغير من جني الأطعمة إلى إنتاج الأطعمة بالتغير من تحقيق تكسير الأحجار إلى تحقيق صقل الأحجار. وتحدد «العصر الحجري الجديد» عند لوبوك أربع سمات ثقافية – الفخار، واستعمال الحجر الصقيل، والزراعة، والحيوانات المدجنة. ونحن نعرف الآن أن هذه الرباعية لم تكن تتحقق دائماً في الوقت نفسه؛ ولكن لأننا احتفظنا في علم الآثار ببعض المصطلحات القديمة، فإننا نسمع الآن الآثاريين يتحدثون عن العصر الحجري الجديد غير الفسيفسائي أو العصر الحجري الجديد بلا فسيفساء، في حين أن كل ما يقصدونه هو أنهم وجدوا آثاراً على جماعات مبكرة تجني الطعام لم تكن التقنية لديهم تشمل صنع الفخار.

في المحل الثاني، توحي عبارة «الثورة» لأكثر الناس العاديين بتغير فجائي عن طريق العنف، في حين أننا كلما تمعنا في النقلة من جني الطعام إلى إنتاج الطعام في العالم القديم والجديد، تبين لنا بوضوح أكثر أنها كانت عملية طويلة وبطيئة من التجريب والتطوير. وما من شك في أن بعض التجارب أخفقت: إذ لا نعرف سوى النجاحات التي أُحرزت مع

الدواجن التي تظهر في السجلات الأثرية. وبالتأكيد يجب ألا نفترض أننا نعرف حتى الآن جميع التجارب التي حدثت؛ بل ربما لا نعرفها لمدة قد تطول.

ولقد قلت «تجارب» متعمداً، إذ هنا تكمن السمة الثالثة القاصرة في «الثورة الحجرية الجديدة» عند كايلد. فهو اعتقد أنها شيء حدث في مكان واحد وفي زمان واحد – في الشرق الأدنى الأكثر قدماً. ولم ندرك إلا في السنوات العشر الأخيرة – وما أسرع ما تراكمت معرفتنا الأثرية الجديدة– أن الشرق الأدنى القديم (أو شمال غرب آسيا ومصر) لم يكن سوى مركز واحد من مراكز تدجين النباتات والحيوانات؛ وأنه أيضاً في هذا المركز، الذي يمتد من غرب الأناضول إلى إيران، ومن جبال زاجروس إلى مصر وبلاد الرافدين، ربما كانت قد وجدت مراكز تدجين كثيرة. وبمعزل عن هذا، فمازال يجري النقاش ويُرجَّحُ أن المحاصيل كانت قد دُجِّنت في الصين قبل أن تأتي المعرفة بها إلى الصين من الغرب بمدة طويلة. وفي أمريكا النووية، تم تدجين أربع مجموعات أو خمس من المحاصيل المتنوعة المدجنة بمعزل تماماً عن العالم القديم، وربما بمعزل عن بعضها أيضاً. زد على ذلك أنه لا يوجد سبب يدعو إلى الافتراض بأننا عثرنا حتى الآن على جميع الأدلة عن الدواجن الأولى والمجتمعات الزراعية الابتدائية. إذ يمكن أن تكون قد وجدت زراعة تعتمد على الرز في جنوب الصين أو على نهر الكنج؛ ويذهب بعضهم إلى أن تدجين السرغوم ربما

حصل على نحو مستقل في نيجيريا. ودعونا لا ننسى أيضاً أن الحبشة اقتُرِحت كأحد المراكز الممكنة للزراعة الأولى[١١٥].

يتعلق اهتمامنا الأساس طوال هذا الكتاب بالمرحلة التالية في تاريخ الإنسان، المرحلة التي سماها كايلد بـ«الثورة الحضرية». وقد كان إليوت سمث وبيري واثقين وصريحين حول طبيعة التغير من جماعات القرى الفلاحية إلى الحضارة. فهما أصرّا على أن ذلك حدث في مكان واحد ومرة واحدة، وكان ذلك في مصر: ولديهما ولدى مدرستهما، فقد بدأت الحضارة في مصر، وانتشرت من هناك إلى وادي الرافدين ووادي السند والصين – بل ذهبت أبعد، فعبرت المحيط الهادئ إلى أمريكا الوسطى[١١٦]. وقد ذكرنا سابقاً أطروحة حضور مصر في أمريكا: ولا يوجد آثاري أو أنثروبولوجي حصيف في الوقت الحاضر يرى أي تأثير مصري في حضارات أمريكا الوسطى، وبالطبع لا ينكر إمكان وجود مثيرات خارجية.[١١٧]

لكن أليس من الممكن الاعتقاد بنسخة معدلة من نظرية إليوت سمث / بيري؟ وإذا كان الأصل المصري لحضارة العالم الجديد لم يعد أمراً محل نقاش، أليس من الممكن أن تكون جميع حضارات العالم القديم مستمدة من مصر؟ أغلب الناس في الوقت الحاضر لا يعتقدون هذا، بل أصبح أمراً لا يقبل الجدل بالتأكيد أن الحضارة السومرية كانت أسبق زمناً من المصريين. ألا يمكننا إذاً أن ننقل نظرية الانتشار المتعدي

من ضفاف النيل إلى ضفاف دجلة والفرات؟ وهذا بالضبط ما فعله لورد راجلان في كتابه «كيف جاءت الحضارة؟». في هذا الكتاب جعل جميع الحضارات تأتي من جنوب بلاد الرافدين، وينبغي أن نتذكر أن سومر، كما يعبر صموئيل نوح كريمر، كانت سباقة و«أوائل» في عدد كبير من الأمور في تاريخ الإنسان. تعتمد فلسفة راجلان في أصول الحضارة على هذه القائمة المثيرة من الأوائل، ولكن أيضاً على قناعة لا تتزعزع بأن الشيء لا يمكن أن يُبتكَرَ أكثر من مرة واحدة. لقد افترض راجلان كمبدأ أن المتوحش لم يبتكر أي شيء على الإطلاق، وعلى أساس هذا الافتراض نستطيع أن نرى استحالة قبوله بالمدرسة الفكرية القائلة بالانتشار المتعدي. في المحل الأول، لأن المتوحش لم يبتكر كثيراً من الأشياء، على سبيل المثال، الزراعة وتدجين الحيوانات؛ وكما نعتقد الآن، فقد ابتكر هذه الأنماط من إنتاج الأطعمة في أجزاء مختلفة متعددة من العالم. والفلاح الزراعي البربري، الذي خلقه وابتكره المتوحش، ذهب أبعد، وهنا نتفق مع راجلان، ليبتكر الحضارة في جنوب بلاد الرافدين. لذلك لم يعد ينطوي على أية فائدة أن نقول إن المتوحش لم يبتكر شيئاً وإن البربري لم يبتكر شيئاً: وما كان بوسعنا هنا في القرن العشرين بعد المسيحية أن نحاضر على طلاب في الجامعات ونؤلف الكتب، لو لم يسبقنا موكب طويل من المتوحشين والبرابرة الابتكاريين الذين عاشوا قبلنا بقرون مديدة.[١١٨]

كما أنه ليس من الصحيح القول إن الأشياء لا يمكن أن تُكتشَفَ أو تُبتكرَ أكثر من مرة واحدة؛ فهذا هراء غير معقول ينشأ عن رفض دراسة تاريخ الابتكار والاكتشاف في جميع الميادين: ما قبل التاريخ، وعلم الأعراق، والتاريخ نفسه. ويمثل داروين ووالاس مثالين صالحين على التطور المتوازي في ميدان الأفكار. وعلى هذا الغرار مما يتفق مع الوقائع أن نقول إن الاتصالات الثقافية المتفرقة لا يمكن أن تحدث، وأن الأفكار والتقنيات لا يمكن أن تنتشر بطريقة بسيطة وفردية. وقد أشار د. جوزيف نيدهام أن لدينا من الناحية التاريخية أمثلة ممتازة على الانتشار الآلي والتقني من الصين إلى الغرب – على سبيل المثال: البوصلة، والورق، والقوالب الطباعية، وآلة النشابة. وإذا كانت هذه الأشياء قد جاءت من الشرق إلى الغرب، فينبغي ألا نجفل من إمكان أن يكون نمو الحنطة، في أزمنة سحيقة، أو سبك النحاس والقصدير لصنع البرونز، وعملية «القالب الشمعي» في سبك البرونز، قد جاءت من الغرب إلى الشرق، أو بالأحرى، من الشرق الأدنى القديم إلى الصين.[١١٩]

وقد يُعتقد أننا بحديثنا عن النظرية المصرية الشاملة عند إليوت سمث والنظرية السومرية الشاملة عند راجلان إنما نخاطب جيلاً ماضياً من الآثاريين والأنثروبولوجيين، لكن الانتشاريين ما زالوا معنا. ونظرية الجنس الواحد في الأصول

الثقافية والنموذج الانتشاري المتعدي في الفكر ليست بالنظرية الميتة. إذ ما زال البروفيسور هاينه-غيلدرن يرى أن الحضارة بأسرها تكونت في الشرق الأدنى؛ وبين الأشياء التي يقيم عليها هذا، فهو يقيمه على الكتابة ويرى أن جميع الخطوط يمكن إرجاعها إلى شعب استخدم الفخار الصقيل الرمادي أو الأسود وعاش في شرق آسيا الصغرى، وتوسع من تلك المنطقة في اتجاهات متعددة في النصف الثاني من الألفية الرابعة ق م[١٢٠]. ونحن لا نستطيع تحاشي كلمة تعاطف مع أناس مثل إليوت سمث وبيري وراجلان وهاينه-غيلدرن: فقد أرادوا جميعاً تقديم جواب كلي بسيط عن مشكلة معقدة جداً، وما أسهل الجواب الذي يقدمونه قياساً بنوع الجواب الذي نلمح إليه، أعني تحديداً اتحاد المدن المستقل مع انتشار مثير واستعارات ثقافية. ويجب ألا نرفض حلاً بسيطاً إذا بدا أنه يتطابق مع الوقائع: لكن الأصل المفرد للحضارة ليس بالحل البسيط، بل هو حل تبسيطي.

وليس الجواب التاريخي التبسيطي أفضل، ولا هو أسوأ، من الجواب الجغرافي التبسيطي. يبدو أن من السهولة البالغة والوضوح المفرط أن نقول إن الحضارات الأولى الأربع في العالم القديم قد تطورت على وديان الأنهار، لكن المرء سوف يبقى يسأل: لماذا؛ بل إن المرء ليسأل أيضاً لماذا لم تظهر حضارات مضاهية في وديان أنهار أخرى مثل الكنج،

والإيراوادي، والميكونغ، والكونغو، والأمازون. فضلاً عن ذلك، إذا كانت وديان الأنهار الكبيرة وحدها هي التي تسببت في نشوء الحضارة الأولى، فلا بد أن يسأل المرء لماذا حدث هذا في بعض وديان الأنهار دون غيرها؟ وحين ننظر إلى أمريكا النووية نرى ثلاث حضارات لا يمكن القول إنها ظهرت في بيئات مضاهية أو مناظرة لبيئات الحضارات الأربع في العالم القديم. والحقيقة أن مرتفعات البيرو، ووادي وسط المكسيك، وساحل الخليج هي في ذاتها بيئات متنوعة جداً، ولا يمكن مقارنتها على نحو مفيد بوديان الأنهار الأربعة الكبيرة التي كانت بيئة الحضارات في العالم القديم.

وإذا لم يوجد عامل تاريخي أو جغرافي لتعليل أصل الحضارة، فهل يوجد عامل تقني مفرد؟ لقد اقتُرِحَ التالي: يُزعَمُ أن الري، بما ينطوي عليه من ضرورة تنظيم مجتمع معقد وخلقه، هو الذي حقق الحضارة في الوجود. إذاً فقد كان على المجتمعات القروية المتنامية التي احتاجت إلى التجمع والتخطيط لأعمال كبرى، أن تتجمع بطرق أخرى هي التي خلقت حياة حضرية تعرف الكتابة. بعبارة وجيزة، كان اتحاد المدن عملية يُقحِمُ بها الريُّ القرى الزراعية المتنامية.

إذاً لدينا ثلاث نظريات بسيطة لتفسير أصل الحضارة: الأولى، النظرة التاريخية، وهي التي ترى أن كل شيء كان نتيجة انتشار من مركز واحد، حيث حصلت معجزة الحضارة

مرة واحدة في تاريخ الإنسان؛ ثانياً، النظرية الجغرافية، التي ترى أن بيئة جغرافية بعينها – هي وديان الأنهار– هي التي أحدثت هذه القفزة الكبرى إلى الأمام في ثقافة الإنسان؛ ثالثاً، النظرية التي ترى أن مظهراً تقنياً بعينه، ربما يكون الري، هو الذي ارتقى بها.

في تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٦٢، عقدت جامعة «وليم مارتش رايس» في الولايات المتحدة ندوة بعنوان «إنسان ما قبل التاريخ في العالم الجديد»، وشكلت هذه الندوة جزءاً من الاحتفال بالذكرى الخمسين لافتتاح الجامعة. وقد نشرت نسخ مطولة من بحوث الندوة عام ١٩٦٤ في مجلد كبير ومهم بالعنوان نفسه، وهو مجلد يحمل خلاصة متجددة لمعرفتنا بأمريكا ما قبل كولومبس. وراجع د. جيفري بوشنيل الكتاب في مجلة «الآثار القديمة» (Antiquity)، وإليكم الجملة الأخيرة في مراجعته: «تفضي بعض الاستنتاجات من الندوة إلى أفكار حول ما إذا كانت الحضارة ظهرت مرة واحدة أو أكثر في العالم القديم، ومرة واحدة أو أكثر في العالم الجديد، أو ربما مرة واحدة في العالم بأسره»[١٢١].

في هذه الجملة، التي نُقلت بوضوح وإحكام، تكمن القضية التي كنا نناقشها في هذا الكتاب. وإني لأرجو بقدر ما يتعلق الأمر بالعالم القديم أننا صرنا نشعر بأننا نعرف الجواب، وهو تحديداً أن الحضارة الأولى حدثت في بلاد الرافدين، وأن عملية

اتحاد مدن مستقلة جرت في مصر ووادي السند، مستوحاة في الحالتين من سومر. أما الصين فقضية أصعب، ويبدو أنها كانت مثالاً على الابتكار المستقل للزراعة والابتكار المستقل للحضارة، برغم حصول اتصال واستعارة من الغرب. ويجب أن نميز بين الاتصال والاستعارة التي أثّرت في نمو الثقافة في الصين، وانتشار المثير الذي أثّر في اتحاد المدن في مصر ووادي السند.

والواقع أن الصين والعالم الجديد هما من يضعان فعلاً مشكلتنا العامة في منظورها الأكثر حدة. وإذا لم نفكر تفكيراً واضحاً حول أصول الحياة الحضرية المتعلمة في الصين وأمريكا النووية، فربما نخدع أنفسنا حول القضية بأسرها عموماً. ودعونا نركز الآن على أمريكا النووية. لقد رأينا أن الحضارات الأمريكية تحققت في الوجود من خلال عملية اتحاد مدن خاصة بها. ولسنا نجد، عند وصف نشأة الأولميين، والمايا، والحضارة الكلاسيكية في بيرو، أية حضارة غريبة تستعمر أمريكا، كالمصريين أو الجريزيين أو الفينيقيين أو قبائل إسرائيل المفقودة أو سكان الأطلنط أو المو، أو سمِّهم ما شئت. غير أن هناك شيئاً واحداً لا بد من رفضه، كما تقول لنا الأدلة الأثرية والأعراقية أن نرفضه، ألا وهو فكرة الحضارة التي تأتي إلى أمريكا من الخارج؛ وهذا شيء يختلف تماماً عن رفض إمكان تأثيرات تأتي إلى أمريكا من الخارج.

تحطمت سفينة بحارة يابانيين وألقت بهم الريح إلى ساحل سان فرانسيسكو. لقد كتب إيكهولم كتابة مقنعة حول هذه القضية. يقول: «كثيراً ما تسببت الرياح والتيارات في دفع السفن الصينية المعطوبة إلى سواحلنا على المحيط الهادئ»، ويضيف: «إنه لمن المعقول أن نتصور أن الناجين ربما عادوا إلى الشرق البعيد مما حفزهم على رحلة لاحقة». يرى إيكهولم أن من المرجح أن «جماعات صغيرة من الأشخاص (بما لا يزيد عن حمولة مركب إذا شئت) نزلوا على البر في أماكن مختلفة وانتقلوا في الداخل إلى بعض المراكز الثقافية الأساسية».

علينا أن نتذكر أن هذا النوع من الأشياء قد يحدث دون أن يترك بالضرورة أية شهادة دقيقة أو ملموسة في السجلات الأثرية. لكن هناك بعض الأدلة على نظائر دقيقة ومضبوطة تراكمت في السنين الأخيرة. فقد أكّد إيكهولم نفسه على المشابهة الوثيقة بين الدمى ذات العجلات في أمريكا الوسطى والنماذج الآسيوية، ومن الغريب أن يمتلك أناس ما قبل كولومبس في بعض أجزاء أمريكا دمى ذات عجلات، بينما لم يكونوا يستخدمون العجلة لصنع الفخار والعربات. كما أن بيتي ميغرز، وكليفورد إيفانز، وإميليو إيسترادا، أكدوا على ظهور فخار على ساحل الإكوادور رأوا أنه مناظر تماماً للفخار في جومون في يابان العصر الحجري الجديد[١٢٢].

لا ينبغي رفض هذه الاتصالات، كما لا ينبغي الإصرار على

الغياب الكامل للمثيرات العابرة للمحيط الهادئ للتطورات الثقافية في العالم الجديد إصراراً متزمتاً جامداً. كان يمكن أن تقع الاتصالات والمثيرات، لكن أكثر القائلين بالنزعة الأمريكية يحيطونها بالشكوك في الوقت الحاضر. وفي هذا الوقت، لا يوجد اقتراح باستنبات مباشر لحضارة العالم القديم في الجديد، ولا اقتراح باتصالات بين العالمين القديم والجديد مضاهية للتحفيز السومري – المصري الذي ناقشناه. بل إن أي اتصالات سواء أكانت عبر الأطلسي أو عبر الهادئ ربما تكون قد حصلت لم تكن سوى اتصالات ضئيلة ومتقطعة وذات تأثير قليل على التطور الأصلي في الثقافة الأمريكية قبل كولومبس[١٢٣].

قضى الآثاريون والأنثروبولوجيون في القرن التاسع عشر قدراً كبيراً من وقتهم يتناقشون هل يمكن تفسير التغير والتطور الثقافي الإنساني في ارتقاء مستقل أم في الانتشار. وقدّم البروفيسور جوليان ستيوارد في كتابه «نظرية التغير الثقافي» واحدة من أكثر الدراسات عمقاً وأهمية. يرى ستيوارد أنه حتى حين ينكشف الانتشار كأمر واقع بين تقليدين ثقافيين، فإنه لا يكفي وحده «لتفسير» التشابه بينهما. يقول: «يحق للمرء أن يتساءل أنه في كل مرة يقبل فيها مجتمع ثقافة منتشرة فلا يعني هذا التجاءً مستقلاً للسبب والنتيجة»، وهذه فكرة رائعة ومفيدة. وستيوارد نفسه يرفض مبدأ الارتقاء الثقافي ذي

الخط الواحد الذي يصر عليه تايلر ولويس مورغان، وفي الوقت الحاضر إلى حد ما ويلي فيلبس، وهو مذهب يرى أن الثقافة البشرية بأسرها تمر تاريخياً بمراحل تطورية متشابهة. يدعو ستيوارد إلى نظرية ارتقائية متعددة الخطوط لا يمرُّ وفقها الناس جميعاً تلقائياً بمراحل متشابهة، بل يحدث عدد محدود من الارتقاءات المتناظرة – ليس كالقوانين الطبيعية– بل كاطرادات وتعميمات لعدد محدود[١٢٤].

حين ناقش البروفيسور ر. هـ. آدامز وجهات نظر ستيوارد، قال: «يمكن الآن أن نعد جميع المناطق الأربع نماذج متميزة تاريخياً بصرف النظر عن «الأصول» الأخيرة للسمات المحددة»، والمناطق الأربع التي يشير إليها هي: بلاد الرافدين، ومصر، وأمريكا الوسطى ما قبل الإسبانية، والبيرو. ولو أضاف إليها حضارتي السند والنهر الأصفر لحصل على ست مناطق. وأنا أعزل الحضارة الأولمية – الزابوتية عن حضارة المايا، وهكذا يكون لدينا سبع مناطق، هي الحضارات السبع القديمة التي ناقشناها هنا. ويبدو لي الآن، إذا عدَّلنا عبارة آدامز، أن هذه الحضارات السبع هي نماذج متميزة تاريخياً على خلق الحضارات، بصرف النظر تماماً عن الأصول الأخيرة لأية سمات محددة مثل سبك البرونز في صين شانغ.

كان عنوان «التاريخ يبدأ في سومر» عنوان أحد كتب صموئيل نوح كريمر، وفي حين أنه يصحّ أن الحضارات الأولى وأقدم

تاريخ مكتوب حصل في جنوب بلاد الرافدين، فأنا أفضل القول إن الحضارة والتاريخ بدآ سبع مرات. لماذا؟ لأن سبعة مجتمعات منفصلة في دولة ذات تطور ثقافي تمكنت فيه من تطوير بعض الإمكانات التي كان من شأنها، إذا استخدمت، أن تدفع إلى اتحاد المدن، قبلت بتحدي تلك الإمكانات وأصبحت متحضرة.

لكن هل ينفع هذا الجواب بما يكفي؟ أليس وصفاً للعملية، وجواباً عن الكيفية، أكثر مما هو جواب عن السبب؟ السؤال الذي أثرناه هو: لماذا، ولا شك أن الجواب هنا يكمن في طبيعة الإنسان والثقافة. هناك ارتقاء ثقافي يتخطى ما هو عضوي في تطور الإنسان. عام ١٩٤٠ كتب كروبر: «يجب أن ننظر إلى الحضارة كاستجابة ضرورية للقوانين التي تحكم نمو الثقافة وتسيطر على علاقة الإنسان بالثقافة»، وفي مقدمته لكتاب يتألف من مجموعة من المقالات بعنوان «مسالك جديدة نحو الأمس»، يقول البروفيسور كالدويل: «ربما لا يوجد سوى عدد محدود من العمليات الاجتماعية والتاريخية وراء أحداث التاريخ»[١٢٥]. أعتقد أن كروبر وكالدويل على حق، وأرى أن العبرة التي يقدمها علم الآثار في الوقت الحاضر تتمثل في أن سبعة مجتمعات بسبع طرق مختلفة هي التي شقت هذه المسالك التي أفضت إلى الحضارة.

يوحي القول بوجود أمر ضروري، وإن الحضارة ضرورية، بأن اتحاد المدن لا بدَّ أن يحدث في مكان ما؛ غير أن الجغرافيين

الفرنسيين لم يحاولوا أبداً الإشارة إلى أن ثمانين في المائة من سكان العالم، في الوقت الحاضر، يعيشون في قرى، ويقول بيغوت، وهو يمسح كامل مشكلة التطور الإنساني من منطلق آثاري ومؤرخ قديم، إن البربرية هي القاعدة في المجتمع الإنساني وإن الحضارة هي الاستثناء[١٢٦]. وهذه وجهة نظر محل نقاش: ولقد كان اهتمامنا في هذا الكتاب أن نرى كيف حدثت هذه الاستثناءات للمرة الأولى في تاريخ الإنسان.

إذا كنت قد قرأت الدليل الأثري على نحو صحيح، ولم يخرج أكثر الأدلة المتعلقة بمشكلتنا إلى النور إلا في السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة، فإن النموذج الانتشاري وبتأكيد أكثر النموذج الانتشاري المتعدي للماضي غير مقبول الآن، ويصح الشيء نفسه على نموذج الارتقاء ذي الخط الواحد في الفكر. يجب أن نفكر الآن في ضوء ارتقاء متعدد الخطوط يفضي بالضرورة، كما قال كروبر، ببعض المجتمعات ذات الإمكانات الجغرافية والبيئية إلى اتحاد المدن، وهو واحد من عدد محدود من العمليات التاريخية والاجتماعية التي تقف وراء أحداث التاريخ.

كتب السير جون لوبوك، في كتابه «أصول الحضارة»، المكتوب قبل قرن من الزمان: «أرى إذا كانت بعض الاقتراحات التي عرضتها والآراء التي عبرت عنها في أعمالي السابقة، قد حظيت بالانتقاد من لدن بعض المراجع الكبيرة، فأنا أستطيع

أن أبرهن على أن آخرين قد أيّدوها، وبالطبع فإن ما هو أهم من ذلك أنها تتوافق مع الوقائع». أعتقد أن تأويل أصول الحضارة من خلال الارتقاء المتعدد الخطوط يتوافق مع الوقائع الأثرية كما نعرفها الآن.

الملاحظات

هوامش الفصل الأول

(١) س. بيغوت: «علم القمامة»، مقالة في مجلة «المتفرج»، ٩ أبريل، ١٩٦٥. وكان بيغوت يقتبس من كاتب سابق، قال عام ١٨٤٦: «ذلك هو علم الآثار، إنه علم القمامة».

(٢) السير توماس براون: ريليجيو ميديتشي (١٦٤٢)، الفصل الخامس؛ فرنسيس بيكون: تقدم المعرفة (١٦٠٥)، الكتاب الثاني.

(٣) إ. أ. هوتون: القرود والبشر والمغفلون (لندن، ١٩٣٨)، ٢١٨. وبالطبع كان البروفيسور هوتون هنا محامي الشيطان ويمضي إلى القول: «في الواقع أن علم الآثار لا يقل مشروعية كبحث في الماضي عن التاريخ...إذ يشترك علم الآثار مع التاريخ في وظيفة تأويل الحاضر من خلال معرفة الماضي».

(٤) حول نبذة عن مناهج الآثاري، انظر: غرايام كلارك: علم الآثار والمجتمع (ط٣، لندن، ١٩٥٧)؛ ر. إ. م. ويلر: حفريات على الأرض (أوكسفورد، ١٩٥٤)؛ السير ليونارد وولي: نبش الماضي (بنغوين، ١٩٣٧)؛ ستيورات بيغوت: مدخل إلى علم الآثار (لندن، ١٩٥٩)؛ سغفريد دي لاييت: علم الآثار ومشكلاته (لندن، ١٩٥٧)؛ فراند هول وروبرت هايزر: مقدمة إلى آثار ما قبل التاريخ (نيويورك، ١٩٦٥).

(٥) يمكن رؤية اهتماماتي الحرفية الخاصة في أعمالي: غرف المقابر من عصور ما قبل التاريخ في إنجلترا وويلز (مطبعة جامعة كمبرج، ١٩٥٠)، غرف مقابر ما قبل التاريخ في فرنسا (لندن، ١٩٦٠)، بناة ما قبل التاريخ لأوروبا الغربية (لندن، ١٩٥٨).

(٦) كان ذلك عام ١٩٣٢. وقد اشترى مؤخراً أحد تلامذتي نسخة من الطبعة السابعة من الكتاب (منشورة عام ١٩١٣). وفي حين أن مصطلحي العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد ابتكرهما لوبوك واستعملهما لأول مرة في كتابه «عصور ما قبل التاريخ»، فإن هذا الكتاب لم يكن المرة الأولى التي يستخدم فيها تعبير «ما قبل التاريخ». إذ استخدمه دانيال ولسن في عنوان كتابه: علم الآثار وحوليات ما قبل التاريخ في اسكتلندا (المنشور للمرة الأولى عام ١٨٥١)، وكان تورنال قد استخدمه عام ١٨٣٣ – انظر: هايزر: اكتشاف الإنسان لتاريخه، ١٩٦٢، وغلين دانيال: أصول علم الآثار ونموه (بنغوين، ١٩٦٧).

(٧) حول نقد توينبي، انظر: ب. غايل «منهج توينبي في الحضارة» مجلة تاريخ الأفكار، ٩، ١٩٤٨، ٩٣؛ ورد توينبي عليه في Nederlandse Akademie van Waterischappen afd. Letterkunde, ١٩٦١، ٧؛ وغورو: اقتصاد الحوليات والمجتمعات والحضارات، ١٩٥٩، ومقالات أخرى متعددة جمعت فيما بعد تحت عنوان: دعوني أتمتع: مقالات شبه جغرافية (لندن، ١٩٦٦).

(٨) إغناسيو برنال: إنسان ما قبل التاريخ في العالم الجديد، تحرير: جينغز ونوربك (مطبعة جامعة

شيكاغو، ١٩٦٤).

(٩) حول المشكلة العامة لأصول الكتابة، انظر: ديفيد درنجر: الكتابة (لندن، ١٩٦٢)؛ غيلب: دراسة الكتابة: أصول علم الكتابة (لندن، ١٩٥٢)؛ ميرسير: أصول الكتابة والألفباء (لندن، ١٩٥٩)؛ موريس بوب: أصول الكتابة في الشرق الأدنى، الآثار القديمة ١٩٦٦، ص١٧. ونلاحظ أن درنجر يشكك بابتداع الكتابة في بلاد الرافدين (انظر كتابه: الألفباء، نيويورك، ١٩٤٨، ٤١).

(١٠) حول مسح للمجتمعات ما قبل الكتابية في العالم، انظر: غرايام كلارك: صيادو العصر الحجري (لندن، ١٩٦٧)؛ ما قبل تاريخ العالم: موجز(مطبعة جامعة كمبرج، ١٩٦١)؛ غريام كلارك وستيوارت بيغوت: مجتمعات ما قبل التاريخ (لندن، ١٩٦٥)؛ ك. ب. أوكلاي: الإنسان صانع الأدوات (لندن، المتحف البريطاني، التاريخ الطبيعي، ١٩٦١).

(١١) عن النقلة بين حقبة ما قبل التاريخ وما قبل الكتابة والحضارات الكتابية المبكرة، انظر: كلارك وبيغوت: مجتمعات ما قبل التاريخ؛ جاكيتا هوكس والسير ليونارد وولي: ما قبل التاريخ وبدايات الحضارة (لندن، ١٩٦٣)؛ جيمس ميلارت: أوائل حضارات الشرق الأدنى (لندن، ١٩٦٥).

(١٢) كروبر: جدول الحضارات والثقافة (شيكاغو، ١٩٦٢).

(١٣) حول وجهة نظر مختلفة، انظر: آرثر بيل: الحضارة (بنغوين، ١٩٣٨).

(١٤) لقد ساد عدم اهتمام مثير بآثار العالم الجديد لدى آثاريي العالم القديم حتى وقت متأخر جداً، انظر، الآثار القديمة، ١٩٧٦، ١٧٢.

(١٥) رالف لنتون: شجرة الحضارة، اختصار: أدلن لنتون (نيويورك، ١٩٥٩).

(١٦) نشر آرثر إيفانز مكتشفاته في كريت كمقالة في المجلة الشهرية، ١٩٠١، وأعاد نشرها غلين دانيال: أصول علم الآثار ونموه (بنغوين، ١٩٦٧).

(١٧) السير جون مارشال في : تاريخ كامبرج للهند، تحرير: رابسون، المجلد الأول، (كمبردج، ١٩٢٢).

(١٨) حول اكتشاف آنيانغ، انظر: لي تشي وليانغ سو- يونغ: تقرير أولي حول التنقيبات في آنيانغ (١٩٢٩ -٣٣)؛ هـ. كريل: مولد الصين: مسح للحقبة التكوينية في الحضارة الصينية (لندن، ١٩٣٦)؛ ودراسات في الثقافة الصينية المبكرة (لندن، ١٩٣٨).

(١٩) حول مناقشة أريحا وكريت وغيرها، من حيث علاقتها بتعريف الحضارات الأولى، انظر الفصل الثامن.

(٢٠) نشر كتاب كايلد «الإنسان يصنع نفسه» للمرة الأولى عام ١٩٣٦، ونشر «ما حدث في التاريخ» عام ١٩٤٢. انظر أيضاً كتابه: «التقدم وعلم الآثار» (١٩٤٤)، و«الارتقاء الاجتماعي» (١٩٥١). ولردفيلد، انظر: العالم البدائي وتحولاته (شيكاغو، ١٩٤١)، والمجتمع الفلاحي والثقافة (شيكاغو، ١٩٥٦).

(٢١) هذه التعريفات مستخرجة من كتاب: المدينة الحصينة، ندورة حول التحضر والتطور الثقافي في

الشرق الأدنى القديم، تحرير: كارل كرايلنغ وروبرت أدامز، (مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٠).

(٢٢) س. بيغوت: مقدمة إلى كتاب ملوان: بلاد الرافدين المبكرة وإيران (لندن، ١٩٦٥).

(٢٣) تقع قرية البحيرة على بحيرة براسياس وقد وصفها هيرودوت في تاريخه (الكتاب الخامس). انظر: ستانلي كاسون: اكتشاف الإنسان: قصة البحث عن الأصول الإنسانية (لندن، ١٩٥٩).

(٢٤) حول نبذة عن بعض هؤلاء «البرابرة»، انظر: تالبوت رايز: السكيثيون (لندن، ١٩٥٧)؛ ت. ج. باول: الكلتيون، (لندن، ١٩٥٨)؛ وفن ما قبل التاريخ (لندن، ١٩٦٦).

(٢٥) ترد هذه العبارة المذهلة في قصيدته: «قاعة لوكسلي»، وقد سبقتها عبارة أخرى: «المعرفة تأتي، لكن الحكمة تتوانى».

(٢٦) الآركيولوجيا، ٢، ١٧٧٣، ٢٤١. كان توماس تونال ضابطاً يحكم نيو جرسي وبعد ذلك صار حاكم ماساشوستس.

(٢٧) السير تايلر (١٨٣٢–١٩١٧)، أول أستاذ للأنثروبولوجيا في أوكسفورد، وقد كتب «الأنثروبولوجيا» عام ١٨٨١. عن نبذة عن عمله، انظر: ر. ر. ماريت: تايلر (لندن، ١٩٣٦).

(٢٨) أُعيد تحرير كتاب «المجتمع القديم» للويس هـ. مورغان عام ١٩٦٤ (بتحرير: ليسلي وايت) كجزء من مكتبة جون هارفرد التي تصدرها مطبعة جامعة هارفرد.

(٢٩) حول تطور المنظومة الثلاثية أو الرباعية للعصور، انظر: غلين دانيال: العصور الثلاثة (مطبعة جامعة كمبرج، ١٩٥٠).

(٣٠) حول تزاوج النماذج، انظر: كايلد: ما حدث في التاريخ (بنغوين، ١٩٤٢)، وكلارك: من الوحشية إلى الحضارة (لندن، ١٩٤٦).

(٣١) لمناقشة المصطلحات الأمريكية، انظر: ويلي وفيليبس: المنهج والنظرية في علم الآثار الأمريكي (مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥٨).

(٣٢) حول هذه التقنيات، انظر: ف. إ. زيونر: تأريخ الماضي: مقدمة في التحقيب الزمني للأرض (لندن، ١٩٥٨).

(٣٣) حول التأريخ بالكاربون ١٤، انظر: ويلارد لبي: التاريخ بالإشعاع الكاربوني (مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٥).

(٣٤) حول الثبت الزمني المطلق لفن العصر الحجري القديم، أنظر: هـ. ل. موفيوس: «تواريخ الكاربون وآثار العصر الحجري الأعلى»، الأنثروبولوجيا الحالية، ١، ١٩٦٠، ٣٥٥.

(٣٥) انظر: جيمس ميلارت: العصر الحجري والعصر البرونزي المبكر في الشرق الأدنى والأناضول (بيروت، مكتبة خياط، ١٩٦٦)؛ الحضارات الأولى في الشرق الأدنى (لندن، ١٩٦٥).

(٣٦) نشر كتاب تايلر: «أبحاث في تاريخ البشرية المبكر وتطور الحضارة» للمرة الأولى عام ١٨٦٥

وطبع عدة طبعات. وقد طبعت طبعة جديدة (سميت الثالثة) بقلم تايلر نفسه عام ١٨٧٨. وتتوفر أكثر الطبعات الحديثة يسراً واختصاراً في النشرة التي قام بها مع مقدمة بول بوهنان (مطبعة جامعة شيكاغو ولندن، ١٩٦٤).

(٣٧) روبرت لوي: تاريخ النظرية الإثنولوجية (لندن، ١٩٣٧). وينبغي أن يطلع كل قارئ مهتم بطبيعة التغير الثقافي على هذه الدراسة المتألقة والنفاذة.

هوامش الفصل الثاني

(٣٨) سفر التكوين، ١٠، الآيات ٢ إلى ٤. [وهنا يشير المؤلف إلى أنه استخدم الطبعة المعيارية من الكتاب المقدس. وقد استخدمت كمترجم الطبعة الصادرة عن دار الكتاب المقدس].

(٣٩) انظر: س. بيك وهـ. فلور: مزارعون وفخارون (أوكسفورد، ١٩٢٧). وهذا هو الجزء الثالث من سلسلة كتبها المؤلفان يدعى الجزء الخامس منها: البادية والبذار (أوكسفورد، ١٩٢٨). ويقول نص سفر التكوين: «وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض» (٤: ٢). وأنا أشعر دائماً أن هابيل، البدوي الرعوي من البادية والصحراء، هو الذي ينبغي أن يكون قد قتل المزراع المسالم، وليس العكس. وعن قصة الطوفان (التكوين، ٧ و٨) وعلاقتها بعلم الآثار، انظر: بارو: الطوفان وسفينة نوح (لندن، ١٩٥٥)، والسير ليونارد وولي: «أسطورة أم خرافة» (تحرير: غ. دانيال، لندن، ١٩٥٥). وكانت بلاد الرافدين هي الموطن الأصلي للقصة المنقولة في التكوين وسجلتها هي نفسها في «ملحمة جلجامش». وقد أعطى أوشر تاريخاً دقيقاً للطوفان في عام ٢٣٤٩ق م. [المرجح الآن أن الطوفان الذي تشير إليه النصوص الأدبية البابلية يعود إلى الفترة بحدود ٢٩٠٠ ق م، انظر: البابليون، ساكز، ترجمة: سعيد الغانمي، ص ٥٧].

(٤٠) حول الظروف الجغرافية في بلاد الرافدين المبكرة انظر ليز وفالكون: «التاريخ الجغرافي لسهل بلاد الرافدين»، المجلة الجغرافية، ١٩٤٢، ٢٤. [قدم المؤلفان ليز وفالكون في هذا العمل نظرية اشتهرت في حينه عن كون الخليج العربي في الألفية الثالثة ق م كان في مدينة أور. وقد انتقدت هذه النظرية في الخمسينيات، ثم أقرّت في السبعينيات وتأكدت – المترجم].

(٤١) يعرف «معجم أوكسفورد الإنجليزي» «الكلداني» بأنه «ابن كلديا» وبخاصة الماهر في تعلم الأمور الباطنية، كبابلي، والماهر أيضاً في التنجيم». ويقول راولنسن في محاضراته لعام ١٨٥٩: «في سفر دانيال يظهر الكلدانيون كمجموعة خاصة من الأشخاص في بابل لهم «معرفتهم» و«لسانهم» الخاص، ويصنفون في فئة السحرة والفلكيين». ويقول أندريه بارو في كتابه «سومر» (لندن، ١٩٦٠) إن كلديا «كانت اسماً يطلق في القرن التاسع عشر على بلاد الرافدين بأسرها. وينبغي حصرها بالمنطقة القريبة من الخليج العربي وبحقبة الألفية الأولى ق م»، وإن الكلدانيين كان اسماً يُطلق على السومريين خطأً في كثير من الكتب. أما إذا توخينا الدقة فإنه ينحصر بالقبائل التي استقرت في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين في القرنين السابع والسادس ق م. ومن الواضح أن من غير الحكمة استخدام «كلديا» و«الكلدانيين» في الكتاب الحالي.

(٤٢) حول «التلول»، انظر: ب. كارلتون: إمبراطوريات دفينة (لندن، ١٩٣٩)، وسيتون لويد: تلول الشرق

الأدنى (مطبعة جامعة أدنبرة، ١٩٦٣).

(٤٣) حول نبذة عامة جيدة عن الكتابة المسمارية انظر: كيبرا: كتبوا على الطين: الألواح البابلية تتكلم اليوم (مطبعة جامعة كامبرج، ١٩٣٩).

(٤٤) حول غروتفند انظر: سيتون لويد: أسس في الرمال (لندن، مطبعة جامعة أوكسفورد، ١٩٤٧).

(٤٥) انظر: أ. و. بج: ظهور علم الآشوريات وتطوره، وجورج راولنسن: مذكرة السير الجنرال هنري روالنسن (لندن، ١٨٩٨).

(٤٦) أ. و. بج: على ضفاف النيل ودجلة (لندن، ١٩٢٠).

(٤٧) تتوفر مساهمات إدوارد هيكس (١٧٩٢ –١٨٦٦) لفك شفرة الخطوط الهيروغليفية في الأساس في مقالات كتبت بين ١٨٣٣ و ١٨٦٥ في «محاضر الأكاديمية الإيرلندية الملكية».

(٤٨) سيتون لويد: أسس في الرمال (لندن، ١٩٤٧).

(٤٩) الاقتباس من و. ك. لوفتس: أسفار وأبحاث في كلديا وسوسة (لندن، ١٨٥٧).

(٥٠) انظر على الخصوص كتابه: إبراهيم (لندن، ١٩٣٥)، وكتابه: أور الكلدانيين (لندن، ١٩٥٠).

(٥١) م. إ. ل. ملوان: بلاد الرافدين المبكرة وإيران (لندن، ١٩٦٥).

هوامش الفصل الثالث

(٥٢) حول الأعمال العامة عن سومر والسومريين انظر كتاب ملوان الذي استشهدنا به سابقاً (انظر الهامش ٥١)؛ ف. غ. كايلد: «ضوء جديد على الشرق الأقدم» (لندن، ١٩٥٢)؛ س. ن. كريمر: «التاريخ يبدأ في سومر» (لندن، ١٩٥٨)؛ و«السومريون» (شيكاغو، ١٩٦٣)؛ أ. بارو: «سومر» (لندن، ثيمس وهدسن، ١٩٦٠)؛ ج. رو: «العراق القديم» (لندن، ١٩٦٥).

(٥٣) ج. ميلارت: «تشطل هويوك» (لندن، ثيمس وهدسن، ١٩٦٧)، و«حضارات الشرق الأدنى الأولى» (لندن، ثيمس وهدسن، ١٩٦٣).

(٥٤) حول أصول التعدين، انظر مقالة ر. ج. فوربس: «الاقتطاع والصهر والسبك» في كتاب: «تاريخ التكنولوجيا»، تحرير: تشارلز سنغر وهولمايرد وأ. ر. هول، (أوكسفورد، مطبعة كلارندن)، الجزء الأول، ١٩٥٤، ٥٧٢.

(٥٥) عن العجلات المبكرة والمركبات ذات العجلات انظر: غوردن كايلد: «المركبات ذات العجلات»، في تاريخ التكنولوجيا، الجزء الأول، الفصل ٢٧.

(٥٦) انظر جورج رو: «العراق القديم» (لندن، ألن وأنون، ١٩٦٤)، ١٩.

(٥٧) تتوفر أفضل صياغة للفكرة العامة عن رباعية العصر الحجري لدى م. س. بيركت: «أسلافنا الأوائل» (كامبرج، مطبعة الجامعة، ١٩٢٦). وانظر بهذا الصدد الحكم التالي لدى برايدوود في

«المدينة الحصينة»، ٣٠٨: «إذا كان بالإمكان قبول أي تعريف «للعصر الحجري الجديد» (وإن كنت لا أرجح وجود هذا، لأن الكلمة اكتسبت من المعاني ما ينأى بها عن الدقة)، فلا بد أن يكون المعنى الذي أسبغه كايلد...على الاقتصاد المكتفي ذاتياً لإنتاج الأطعمة».

(٥٨) حول «الاتحاد» انظر: غ. غلوتز: «المدينة الإغريقية ومؤسساتها» (لندن، كيغان بول، ١٩٢٩)، ص ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٦٠.

هوامش الفصل الرابع

(٥٩) حول مصر القديمة، انظر: سيرل ألدرد: المصريون (لندن، ١٩٤٩)، و مصر حتى نهاية المملكة القديمة (لندن، ١٩٦٥)؛ إ. س. إدواردز: أهرامات مصر (بنغوين، ١٩٦١)؛ حقبة السلالات المبكرة في مصر (تاريخ كمبرج القديم، ١٩٦٤)؛ و. ب. إمري: مصر البائدة (بنغوين، ١٩٦١).

(٦٠) حول الخلفية الجغرافية لمصر ما قبل التاريخ والتاريخية الأولى، انظر: ك. و. بوتزر: الشروط المادية في أوروبا الشرقية وآسيا الغربية ومصر قبل حقبة الزراعة والاستيطان الحضري (تاريخ كمبرج القديم، ١٩٦٥).

(٦١) حول حملة نابليون، انظر: كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر (لندن، ١٩٦٥).

(٦٢) حول الكتابة الهيروغليفية وفك شفرة حجر رشيد، انظر: السير ألان غاردنر: مصر الفرعونية (أوكسفورد، ١٩٦١)؛ السير والاس بج: حجر رشيد (لندن، المتحف البريطاني، ١٩٥٥)؛ السير هلغروف تيرنر: الأركيولوجيا، ١٦، ١٨١٢، ٢١٢؛ شامبليون: «رسالة حول ألفباء الأصوات الهيروغليفية»، ويتوفر المقالان الأخيران في عمل س. و. سيرام: عالم الآثار: الرواد يروون قصصهم (لندن، ١٩٦٦).

(٦٣) حول الآثار المبكرة لمصر السلالات، انظر: أ. ج. أركيل: «هل كان الملك العقرب مينيس؟»، الآثار، ١٩٦٣، ٣١.

(٦٤) طُبع «دياسبوليس» في لندن عام ١٩٠١. وكانت تواريخ بيتري ١٨٥٣ إلى ١٩٤٢.

(٦٥) حول المواقع المصرية المبكرة، انظر: أليس بومغارتل: ثقافات مصر ما قبل التاريخ (لندن، ١٩٤٧)؛ غ. كاتون ثومبسن وإ. و. غاردنر: صحراء الفيوم (لندن، ١٩٣٤)؛ برونتون: مستجدة وثقافة تاسيان (لندن، ١٩٣٧)؛ برونتون وكاتون ثومبسن: الحضارة البدارية (لندن، ١٩٢٨).

(٦٦) إيجرتن في «المدينة الحصينة».

(٦٧) حول مقبض السكين من جبل العرق، انظر: فرانكفورت: مولد الحضارة في الشرق الأدنى (لندن، ١٩٥١).

(٦٨) انظر: فرانكفورت: مولد الحضارة في الشرق الأدنى (لندن، ١٩٥١)، ولا سيما الفصل الرابع، والملحق: «تأثير بلاد الرافدين في مصر مع نهاية الألفية الرابعة ق م».

(٦٩) سيرل ألدرد: مصر حتى نهاية المملكة القديمة (لندن، ١٩٦٥).

(٧٠) جون ولسن: المدينة الحصينة، وانظر أيضاً كتابه: أعباء مصر (شيكاغو، ١٩٥١).

(٧١) حول نظرات بوتزر، انظر: البيئة وعلم الآثار: مقدمة إلى جغرافيا العصر الجديد (لندن، ١٩٦٤)، وبخاصة الفصول ٢٩ و ٣٠ و٣١. وانظر أيضاً المادة في تاريخ كمبرج القديم المذكور سابقاً.

(٧٢) انظر: كارلتون: إمبراطوريات دفينة (لندن، ١٩٣٩)، ١٣٧.

(٧٣) حول العرق والتصنيف العرقي، انظر: ج. س. هكسلي وأ. سي. هادون وأ. م. كارساندرز: نحن الأوروبيين: مسح للمشكلات «العرقية» (لندن، ١٩٣٥)؛ وليم بويد وإسحاق أزيموف: الأعراق والشعب (لندن، ١٩٥٨)؛ روث بنيدكت: العرق: العلم والسياسة (نيويورك، ١٩٥٩).

(٧٤) كان روبرت كالدويل (١٨١٤ – ١٨٩١) أسقف تينيفلي ومساعد أسقف مدراس. وكان يعشق الفيلولوجيا المقارنة وباحثاً شرقياً كبيراً. نشر عام ١٨٥٦ كتابه «النحو المقارن لعائلة اللغات الدرافيدية والهندية الجنوبية». انظر: الكشف عن ماضي الهند (تحرير: السير جون كمنغز) (لندن، ١٩٣٩)، وكارلتن: إمبراطوريات دفينة (لندن، ١٩٣٩).

(٧٥) ترد هذه الكلمات في مقالته «أنصاب الهند القديمة»، المنشورة في تاريخ كامبردج للهند، تحرير: رابسون، ١٩٢٢، ج١، ٦١٢.

(٧٦) حول نبذ حديثة عن حضارة السند، انظر: س. بيغوت: هند ما قبل التاريخ (بنغوين، ١٩٥٠)؛ السير مورتيمر ويلر: الهند المبكرة وباكستان (لندن، ١٩٦٨)، حضارة السند (مطبعة جامعة كمبرج، ١٩٦٠)، حضارة وادي السند وما بعدها (لندن، ١٩٦٦)؛ د. د. كوسامبي: ثقافة الهند القديمة وحضارتها (لندن، ١٩٦٥)؛ د. هـ. غوردن: خلفية ما قبل التاريخ للثقافة الهندية (بومباي، ١٩٥٨)؛ هـ. د. سانكاليا: آثار الهند اليوم (لندن، ١٩٦٢).

(٧٧) ويلر: فجر الحضارة (لندن، ١٩٦١).

(٧٨) ويلر في المادة السابقة.

(٧٩) أيضاً ويلر في المادة نفسها. وهذا الفصل في «فجر الحضارة» أُعيدت كتابته بوصفه «حضارات وادي السند وما بعدها» (لندن، ١٩٦٦)؛ انظر ص ١٣، ٥٢، ٦١، وللتوسع في نظرات ويلر، انظر كتابه: ضرائب السلوان (لندن، ١٩٦٦).

هوامش الفصل الخامس

(٨٠) إ. رايموند داوسن: تراث الصين (أوكسفورد، ١٩٦٤).

(٨١) السير جورج ستاونتن: سفارة ماكارتنيه إلى الصين (لندن، ١٧٩٧)؛ ت. ر. مالثوس: مقال أول حول السكان (أعيد نشره، لندن، ١٩٢٦).

(٨٢) ج. ف. دافيس: منوعات صينية (لندن، ١٨١٥).

(٨٣) ر. داوسن: تراث الصين (أوكسفورد، ١٩٦٤).

(٨٤) كوندرسيه: مخطط لصورة تاريخية عن تقدم العقل الإنساني (الطبعة الأولى، ١٧٩٥، الترجمة الإنجليزية، لندن، ١٩٥٥).

(٨٥) ر. داوسن: تراث الصين (أوكسفورد، ١٩٦٤).

(٨٦) وليم واطسن: الصين قبل سلالة هان (لندن، ١٩٦١).

(٨٧) ب. لوفير: منشورات السلسلة الأنثروبولوجية للمتحف الميداني للتاريخ الطبيعي (شيكاغو، ١٩١٢).

(٨٨) حول خلاصات بالمعرفة الحاضرة للآثار الصينية، انظر: و. واطسن، الصين قبل سلالة هان (لندن، ١٩٦١)؛ البرونزيات الصينية القديمة (لندن، ١٩٦٢)؛ الحضارة الأولى في الصين (لندن، ١٩٦٥)؛ تشينغ تي- كون: الآثار الصينية؛ المجلد الأول: صين ما قبل التاريخ (كمبرج، ١٩٦٠)، المجلد الثاني، صين شانغ (كمبرج، ١٩٦٠)؛ المجلد الثالث، صين تشاو (كمبرج، ١٩٦٣)؛ وأضواء جديدة على صين ما قبل التاريخ (كمبرج، ١٩٦٦)؛ تشانغ جونغ - تشي: آثار الصين القديمة (نيو هافن، مطبعة جامعة ييل، ١٩٦٣)؛ و. أ. فيرسرفيس: أصول الحضارة الشرقية (نيويورك، ١٩٥٩)؛ لي تشاي: بدايات الحضارة الصينية (سياتل، ١٩٥٧).

(٨٩) ج. غ. أندرسن: أبناء الأرض الصفراء (لندن، ١٩٣٤).

(٩٠) حول طريق الحرير إلى الصين، انظر: تشارلرسورث: الطرق التجارية وتجارة الإمبراطورية الرومانية (كمبرج، ١٩٢٤)؛ وبالذات الفصل السادس، إيلين باور: افتتاح الطريق الأرضي إلى كاثاي، الفصل السابع في كتاب: الأسفار والمسافرون في العصور الوسطى، تحرير: نيوتن، (لندن، ١٩٣٠).

(٩١) أُطلقت أفكار كايلد في كتابيه: «الإنسان يصنع نفسه» و«ما حدث في التاريخ». وحول نظرة أندرسن، انظر: أبناء الأرض الصفراء، و: أبحاث في صين ما قبل التاريخ، مجلة متحف آثار الشرق الأقصى (ستوكهولم، ١٩٤٣).

(٩٢) حول عظام النبوءة، انظر: شانغ: آثار الصين القديمة (نيو هافن، مطبعة جامعة ييل، ١٩٦٣)؛ تشينغ تي- كون: صين شانغ (كمبرج، ١٩٦٠)؛ واطسن: الحضارة الأولى في الصين (لندن، ١٩٦٥).

(٩٣) تشنغ تي - كون: صين شانغ، ١٦١.

هوامش الفصل السادس

(٩٤) عن إحياء متأخر لأسطورة مادوك، انظر: ريتشارد ديكون: مادوك واكتشاف أمريكا (لندن، مولر، ١٩٦٧)، ولكن أيضاً انظر توماس ستيفنز، مادوك (لندن، لونغمانز، ١٨٩٣) وديفيد وليمز: جون إيفانز وأسطورة مادوك (كارديف، ١٩٦٣).

(٩٥) حول اكتشاف الحضارة الأمريكية، انظر: ج. هـ. باري: أوربا وعالم أوسع، ١٤١٥ –١٧١٥، (لندن، ١٩٤٩)؛ غوردن ويلي: محاضرات بيبودي المئوية (مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٤٩)؛ كارلتن كون: تاريخ الإنسان (لندن، ١٩٥٥).

(٩٦) حول المايا، انظر: كو: المايا (لندن، ١٩٦٦)؛ جورج براينرد: حضارة المايا (لوس أنجلس، ١٩٥٤)؛ سلفانوس ج. مورلي: المايا القديمة (ستانفورد، ١٩٥٦)؛ إريك تومبسن: صعود حضارة المايا وسقوطها (جامعة أوكلاهوما، ١٩٥٩).

(٩٧) حول الإنكا، انظر: ألفرد متروس: الإنكا (لندن، ١٩٦٥)؛ ج. هـ. بوشنيل: بيرو (لندن، ١٩٦٥)؛ فكتور فون هاغن: عوالم الإنكا (نيويورك، ١٩٥٧)؛ ألدن ماسون: حضارة بيرو القديمة (لندن، ١٩٥٧).

(٩٨) كارلتن س. كون: تاريخ الإنسان من أول إنسان إلى الثقافة البدائية وما بعدها، (لندن، ١٩٦٢).

(٩٩) حول دراسة أثر اكتشاف أمريكا في الفكر الأوروبي، انظر: مارغريت ت. هوجن: الأنثروبولوجيا المبكرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر (فيلادلفيا، مطبعة جامعة بنسلفانيا، ١٩٦٤)؛ هـ. ن. فيركايلد: المتوحش النبيل: دراسة حول النزعة الطبيعية الرومانسية (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٢٨).

(١٠٠) جاكيتا هوكس: عالم الماضي (لندن، ١٩٦٣).

(١٠١) حول هذه القضايا، انظر: ووتشوب: القبائل الضائعة والقارات الغارقة (مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٢).

(١٠٢) تتوفر مقدمة جيدة لمشكلة فنلاند في كتاب: ر. أ. سكيلتن، و ت. إ. مارستن و غ. د. بينتر: خارطة فنلاند وعلاقتها بالتتار (نيوهافن ولندن، مطبعة جامعة ييل، ١٩٦٥).

هوامش الفصل السابع

(١٠٣) حول خلاصات حديثة عصرية عامة لمعرفتنا الحاضرة بما قبل التاريخ في أمريكا، انظر: غوردن ويلي: مقدمة إلى علم الآثار الأمريكي: المجلد الأول، شمال أمريكا ووسطها (إنغلوود، ١٩٦٦)؛ هنري ليمان: الحضارات ما قبل الكولومبية (باريس، ١٩٦١)؛ س. ك. لوثروب: كنوز أمريكا القديمة (جينيف، ١٩٦٤)؛ ج. هـ. بوشنيل: الفنون القديمة في الأمريكيتين (لندن، ١٩٦٥).

(١٠٤) انظر: س. ر. ماكنيش: التقرير السنوي الأول عن المشروع الأثري النباتي في تيهواكان (اندوفر، ١٩٦١)؛ التقرير السنوي الثاني عن المشروع الأثري النباتي في تيوتهواكان (أندروفر، ١٩٦٢)؛ العلم، ١٩٦٤، ٥٣١، الآثار القديمة، ١٩٦٥، ٨٧.

(١٠٥) حول خلاصة عامة عن المعرفة الأثرية الحديثة ببيرو، انظر: غ. هـ. بوشنيل: بيرو (لندن، ١٩٦٥)؛ ج. ألدن ماسون: حضارة بيرو القديمة (بنغوين، الطبعة المنقحة، ١٩٦٤)؛ هيرمان ليخت: فن وثقافة ما قبل الإنكا (لندن، ١٩٦٠)؛ ويندل س. بينيت وجونيوس ب. بيرد: تاريخ

الثقافة الهندية (لندن، ١٩٦٠)؛ ب. أ. مينز: حضارات الأنديز القديمة (نيويورك ولندن، ١٩٣١).

(١٠٦) في المدينة الحصينة، ٥٥.

(١٠٧) ميكائيل كو: مكسيكو، (لندن، ١٩٦٢).

(١٠٨) حول مونت ألبان، انظر: واكساكا القديمة: مكتشفات في آثار المكسيك وتاريخها، تحرير: جون بادوك (ستانفورد، مطبعة الجامعة، ١٩٦٨).

(١٠٩) رينيه ميلون، وبروس دريوت، وجيمس بينيهوف: هرم الشمس في تيوتهواكان: أبحاث ١٩٥٩ (فيلادلفيا، محاضر الجمعية الفلسفية الأمريكية، ١٩٦٥).

(١١٠) م. كو: المايا (لندن، ١٩٦٢)، ص ١٦٨.

(١١١) انظر: ج. إريك س. تومبسن: صعود حضارة المايا وسقوطها (لوس أنجلس، ١٩٥٤)؛ سلفانوس مورلي: مايا القديمة (ستانفورد، ١٩٥٦).

(١١٢) حول هذا، انظر: روبرت ماك آدامز: ارتقاء المجتمع الحضري: بلاد الرافدين المبكرة والمكسيك ما قبل التاريخ (شيكاغو، ١٩٦٦).

هوامش الفصل الثامن

(١١٣) حول أريحا، انظر: ك. م. كينيون: «أريحا المبكرة»، الآثار القديمة، ١٩٥٩، ٥؛ نبش أريحا (لندن، ١٩٥٧)؛ الآثار في الأرض المقدسة (لندن، ١٩٦٠). ويمكن متابعة المناظرة حول ما إذا كانت أريحا مدينة عرفت حضارة كما يدعي د. كينيون في الصفحات المنشورة في مجلة الآثار القديمة، ص ١٣٢–٦٣؛ ونبش أريحا، ص ٧٣–٨٤. وينكر غوردن كايلد أنها كانت مدينة (الآثار القديمة، ١٥٧)، أما برايدوود فيوافق على مضض بأنها كانت بلدة (الآثار القديمة، ٣٦)، في حين يشكك رشتن كولبورن في كتابه «أصل المجتمعات المتحضرة» (مطبعة جامعة برنسوتن، ١٩٥٩) أكثر منهما، وكذلك هو موقفي الشخصي.

(١١٤) غولتز: المدينة الإغريقية (لندن، ١٩٢٩).

(١١٥) أراد كارل ساوير مركزاً مبكراً للزراعة في جنوب شرق آسيا حيث تم تدجين الكلاب والخنازير وكان من بين النباتات المدجنة محاصيل الجذور. انظر مقالته: «البيئة والثقافة خلال عصر ذوبان الجليد الأخير»، مجلة الجمعية الأمريكية الفلسفية، ١٩٤٨، وكتابه: الأصول الزراعية، ص ٢٤. انظر أيضاً: رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٩٥، إ. أندرسن: النباتات والإنسان والحياة،١٤٢ ؛ غ. د. هودريكوت وهيدن: الإنسان والنباتات التي زرعها (باريس، ١٩٤٨). ويضع مردوك، في كتابه «أفريقيا: أناسها وثقافتها وتاريخها» (نيويورك، ١٩٥٩)، أصل الذرة المزروعة في غرب أفريقيا على مقربة من منابع نهر النيجر حيث يقول إنه وجد أصل مستقل للزراعة.

(١١٦) حول بيان شعبي جيد عن وجهات النظر المتركزة حول مصر، انظر: الكلمات الافتتاحية لطبعة عام ١٩٠٨ من كتاب باديكر: دليل إلى مصر: «منذ أن اتجهت الأنظار إلى مصر مع مطلع القرن

التاسع عشر، أشار البحث العلمي في عدد لا حصر له من الأنصاب بيقين يتنامى إلى أن وادي النيل هو مهد التاريخ والثقافة الإنسانية». وقبل ذلك بخمسين سنة، كان كنريك قد كتب في كتابه «مصر القديمة في ظل الفراعنة» (١٨٥٠) قائلاً: «ما من مشكلة في التركيز على البلد الذي لا بد أن التاريخ القديم بدأ به. فأنصاب مصر ومدوناتها وأدبها تسبق حضارة الهند والصين في القدم بعدة قرون».

(١١٧) تتوفر أفضل مصادر نقد نظرية الانتشار المتعدي عند إليوت – سمث – بيري لدى: ووتشوب: القبائل الضائعة والقارات الغارقة؛ دكسكون: بناء الثقافات (نيويورك، ١٩٢٨)؛ ر. هـ. لوي: تاريخ النظرية الأثنولوجية (لندن، ١٩٣٧)، الفصل ١٠؛ وغلين دانيال: فكرة ما قبل التاريخ (لندن، ١٩٦٢)، الفصل ٥.

(١١٨) راجلان: كيف جاءت الحضارة؟ (لندن، ١٩٣٩).

(١١٩) أجد دائماً أن واحداً من أنصع وأوضح الكتب حول هذه القضايا يتوفر في كتاب ر. ي. سايس: الفنون والصنائع البدائية (مطبعة جامعة كمبرج، ١٩٣٣).

(١٢٠) يرى هاينه–غيلدرن أن جميع الخطوط يمكن إرجاعها إلى شعب استخدم الفخار الرمادي والأسود الصقيل عاش في شرق آسيا الصغرى وتوسع من تلك المنطقة في كثير أو جميع الاتجاهات في النصف الثاني من الألفية الرابعة ق م.

(١٢١) الآثار القديمة، ١٩٦٥، ٧٥.

(١٢٢) بيتي ميغرز وكليفورد إيفانز وإميليو إسترادا: الحقبة التكوينية المبكرة في الأكوادور الساحلية: أطوار فالديفيا ومارتشيلا (واشنطن، ١٩٦٥)؛ بيتي ميغرز: الأكوادور (لندن، ١٩٦٦).

(١٢٣) لم أتطرق إلى ذكر حملة كونتيكي في محاضراتي، لكن هذا الموضوع نوقش باستفاضة في الدروس التي ألقيتها. وحملة كونتيكي عديمة الصلة بالقضية التي نناقشها هنا حول الاتصالات العابرة للمحيط الهادئ في الاتجاه من الغرب إلى الشرق. فما أراد ثور هايردال وزملاؤه الشجعان القيام به هو البرهنة أن الاتصالات عبر المحيط الهادئ في اتجاه من الشرق إلى الغرب كانت ممكنة، عن طريق أطواف خشبية.

(١٢٤) ج. هـ. ستيوارد: نظرية التغير الثقافي (مطبعة جامعة إلينويس، ١٩٥٥).

(١٢٥) جوزيف ر. كالدويل (محرر): طريق جديدة إلى الأمس: مقالات في علم الآثار (نيويورك، ١٩٦٦).

(١٢٦) س. بيغوت: أوروبا القديمة (إدنبرة، ١٩٦٣)، ٢٠.

المؤلف

غلين دانيال: واحد من أشهر الآثاريين وعلماء ما قبل التاريخ البريطانيين. عمل محرراً في مجلة (الآثار القديمة)، وعرف بمساهماته في البرامج التلفزيونية حول المواضيع التاريخية. من مؤلفاته: غرف المقابر من عصور ما قبل التاريخ في إنجلترا وويلز (مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٥٠)، غرف مقابر ما قبل التاريخ في فرنسا (لندن، ١٩٦٠)، بناة ما قبل التاريخ لأوروبا الغربية (لندن، ١٩٥٨)، فكرة ما قبل التاريخ (لندن، ١٩٦٢)، ومائة عام من علم الآثار.

المترجم

سعيد الغانمي: كاتب ومترجم عراقي يقيم في أستراليا. له أكثر من أربعين كتاباً ما بين مترجم ومؤلف. من أعماله المؤلفة: «المعنى والكلمات»؛ «أقنعة النص»؛ «الكنز والتأويل»؛ «منطق الكشف الشعري»؛ «مائة عام من الفكر النقدي»؛ «ملحمة الحدود القصوى»؛ «خزانة الحكايات»؛ «العصبية والحكمة»؛ «ينابيع اللغة الأولى». كما ترجم إلى العربية: «العمى والبصيرة» لبول دي مان؛ «نظرية التأويل» لريكور؛ «المدونة الكبرى: الكتاب المقدس والأدب» لفراي؛ «السيمياء والتأويل» لشولز؛ «العرب والغصن الذهبي» لستيتكيفتش...«البابليون» لساكز، «سفر التكوين البابلي»..إلخ.

المحتويات

مقدمة الترجمة العربية	١١
الفصل الأول: الوحشية والبربرية والحضارة	١٩
الفصل الثاني: اكتشاف الحضارة الأولى	٥٣
الفصل الثالث: السومريون وأصل الحضارة	٨١
الفصل الرابع: مصر ووادي السند	١٠٥
الفصل الخامس: الصين: حضارة النهر الأصفر	١٣٧
الفصل السادس: اكتشاف الحضارات الأمريكية	١٦٣
الفصل السابع: علم الآثار وتطور الحضارة الأمريكية	١٩٣
الفصل الثامن: علم الآثار وأصول الحضارة	٢١٧
الملاحظات	٢٣٩

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز

الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين – الدورة الثالثة – للشاعر المصري بشير رفعت – ٢٠٠٤.

١١– «تيار هواء» – المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين – الدورة الثالثة – للكاتبة المغربية حنان درقاوي – ٢٠٠٤.

١٢– «الانكسار» – الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين – الدورة الثالثة – للكاتب السوري عامر الدبك – ٢٠٠٤.

١٣– «البار الأمريكي» – المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع – الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤– «إلى الأبد.. و... يوم» – الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع – الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥– «قمر أور» – المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع – الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦– «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» – ٢٠٠٨.

١٧– «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» – أدونيس – أكتوبر ٢٠٠٨

١٨– «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» – أحمد عبدالمعطي حجازي – نوفمبر – ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

ملاحظة :

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

المترجم العراقي سعيد الغانمي

يسعدنا من خلال مجلة «دبي الثقافية» أن نقدم هذا العملَ الجليل للبروفيسور غلين دانيال والمسمى «الحضارات الأولى الأصول والأساطير» وقد نقله للعربية الأستاذ سعيد الغانمي بأسلوب مشوق ورائع ونرجو أن نكون من خلال نشر هذا الكتاب قد أضفنا إلى المكتبة العربية إصداراً نعده على رغم محدودية صفحاته عملاً موسوعياً من حيث القيمة العلمية للبحث..

سيف المري

27

كتاب دبي الثقافية

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع